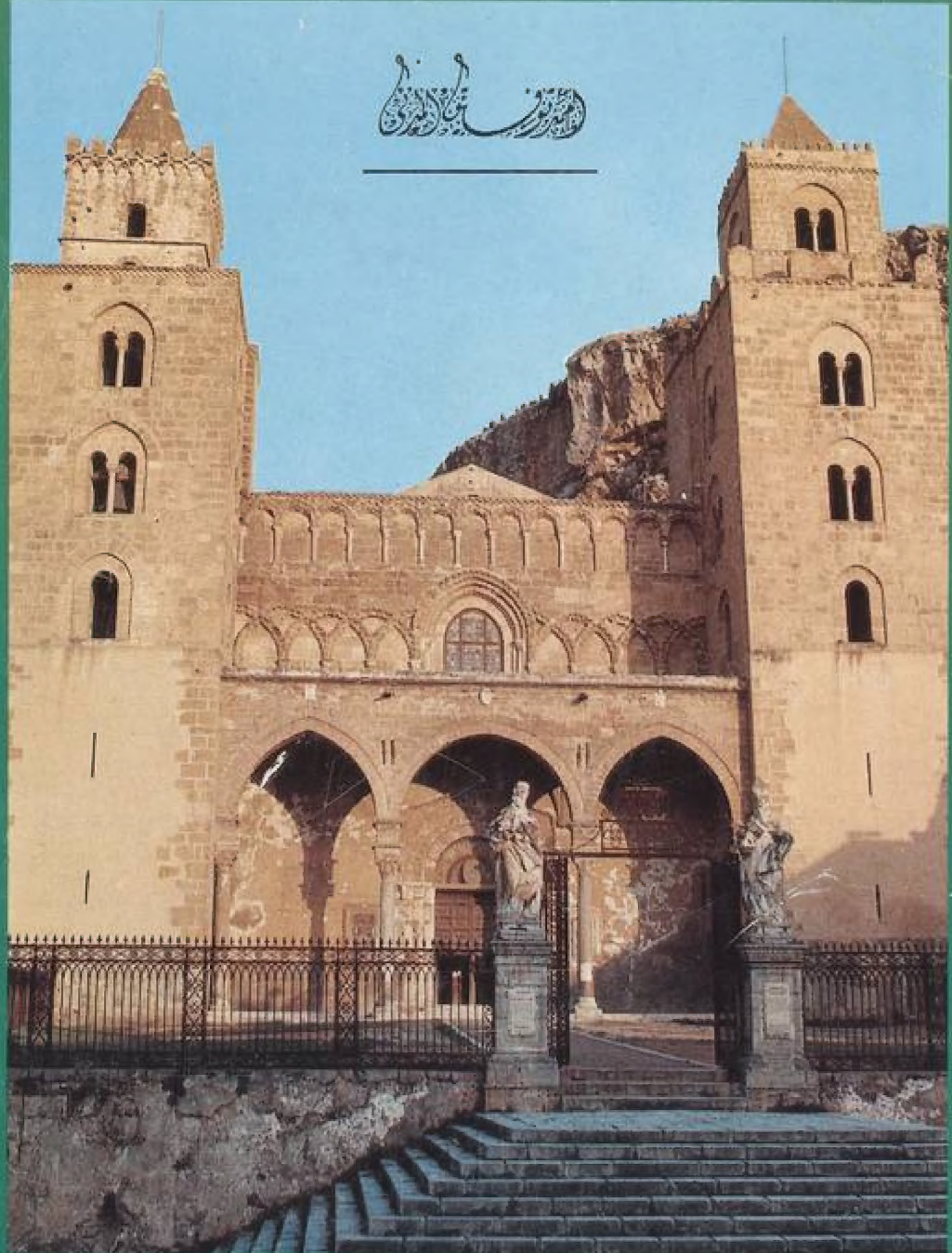
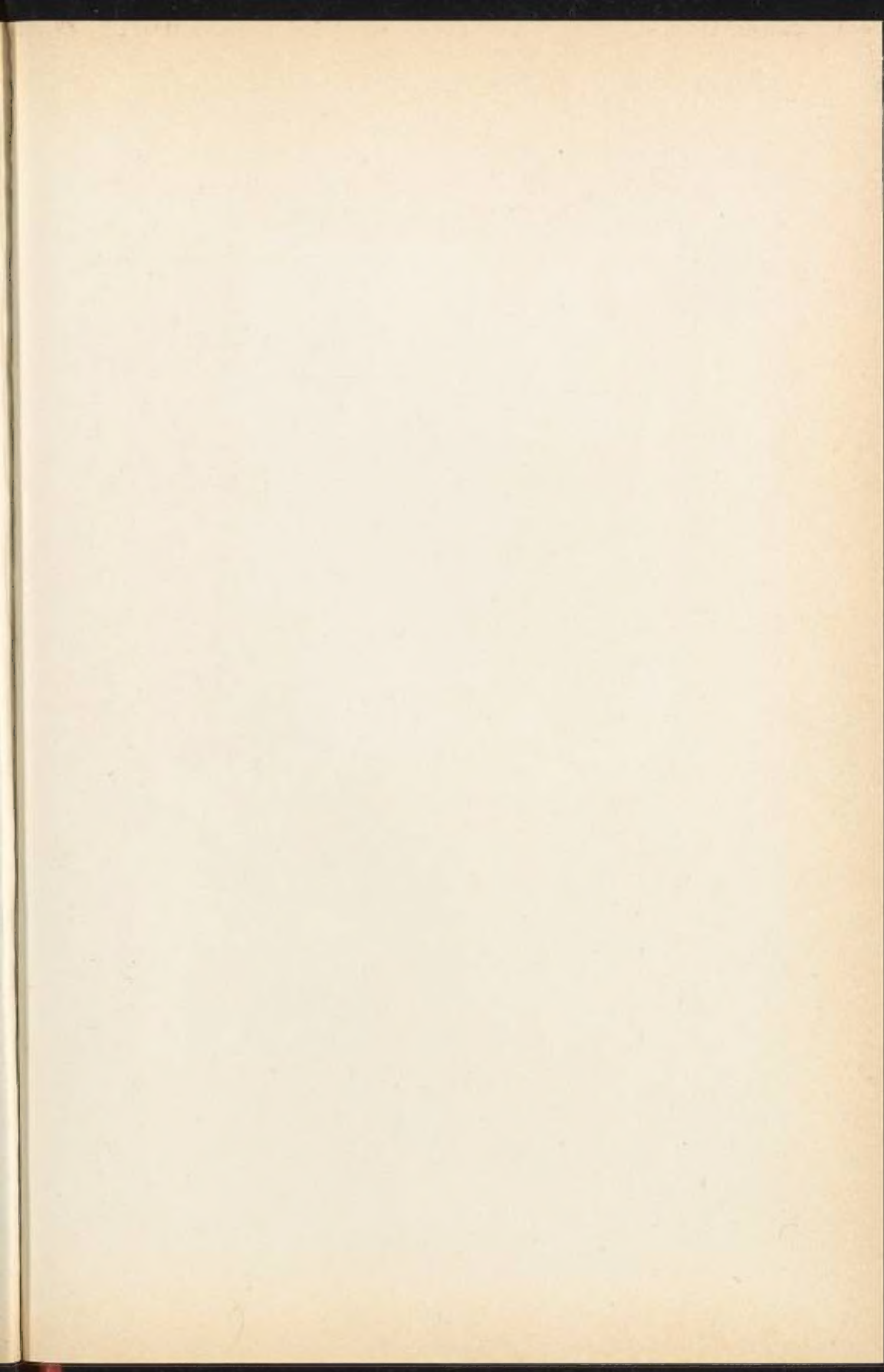


مسجد قرطبة



المسلمون في جزيرة صقلية
وَجَنُوبِ إِيطَالِيَا





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المُسْلِمُونَ حَزَبٌ لَا صِقْلَ لَهُ
وَجَنُوبٌ يَطَالِنَا

DG

867.11

, M3

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

اجل ! انها لصفحة شرف وفخار ، من تاريخ حافل مجيد .

تلك هي الصفحة التي كتبها اجدادنا الاكرمون بدمائهم الزكية ، على اديم الارض الصقلية ، وسجلوها بجلال اعمالهم في سفر الوجود ، واقتحموا بها وبامثالها ابواب الخلود .

وبالها من ذكريات تثيرها في نفوسنا تلك الصحف المطهرة صحف جهاد الاجداد في سبيل الفتح الاسلامي ، وفي سبيل العمران والرقى ونشر المعرفة والمدنية الحققة .

انها لذكريات اجداد كرام بررة ، تركوا لنا راسا في التاريخ عاليا ، وذكرنا في الحافقين مجيدا ، انهم لقوم قهروا في سبيل الله وسبيل المدنية اشاوس الارض وطغام البحر ، وتغلبوا بقوة ايمانهم ومتانة سواعدهم وشدة شكيمنتهم على كل معترض لهم في طريق حف بالصعاب ورص بالعقبات ، كان رائدهم يومئذ نكران الذات وتضحية انفس في سبيل المثل الاعلى ؛ على غرار سنة استنهاهم محمد بن عبد الله ، رسول الله ، وخلفاؤه من بعده ؛ فنالهم هنالك الاذى واصابتهم في طريقهم التكببات فما وهنوا لما اصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا ، والله يحب الصابرين ؛ وما بين مشرق الشمس وبين مغربها ، وما بين جليد الشمال وسعير الجنوب ، رفعوا فوق هام البر وفوق عباب البحر اعلامهم عالية خفاقة ، مرعية الجوار عزيزة الجانب ، وضع النضال حول هامتها هالة من نور الحق وعزة الانتصار .

وإننا قوم الشمال الأفريقي ، أبناء الأطلس الأبرار ، لاحق بإحياء هذه الصفحة الصقلية وبنفض ما تراكم فوقها خلال عصور الانحطاط ، من غبار . ذلك لأنها صفحة خاصة بإجدادنا في هذا الشمال ، فهم الذين فتحوا هنالك ومدنوا وتغلبوا ، وهم الذين انخذلوا بعد ذلك تحت تأثير عوامل شتى ، وتحت ضربات أعداء الداخل والخارج ، فضاع عنهم ما فتحوه حسا ومعنى بعد طول جلال .

فعلينا - ونحن ابنائهم - أن ندرس برورا بهم ، تاريخهم في حالتيه ، لنحيي ذكراهم ، ونصفهم حقهم ، ولنقيم لهم بأقلامنا وفي قلوبنا ، تمثالا خالدا هو عنوان الاجلال والاعتراف بالجميل ، ثم لنستخرج من كل ذلك عظات وعبرا تنير أمامنا جادة السير في طريق الحياة الحققة حياة العمل والجد والسعادة وتحقيق الآمال .

فهذه الصفحة الطيبة الثرية ، صفحة التاريخ الاسلامي بصقلية لم تكتب بعد ، ولم يقيض الله لها من يفردها بدراسة قيمة ، كما درست من قبل فتوحات المسلمين في سائر الاقطار ، فنحن لا نجد من اخبار صقلية الاسلامية الا ما تذاثر في كتب التاريخ بين عربية وغربية ، وخاصة في كتب ابن خلدون وابن الاثير وابن الخطيب وابن جبير ، وبعض امهات الكتب الاخرى ، على ان تلك الاخبار المقتضبة التي كانت تذكر استطرادا ، لم تكن تهتم الا بكبريات الحوادث الحربية ، وتاريخ تولي الولاة ووفياتهم على اضطراب بينهم في الترتيب . وقل من المؤرخين من تعرض لآثار ذلك الفتح ، وما كان له من ضلع كبير في اشراق انوار المدنية والمعرفة على ربوع اوربا ؛ وبعبارة اصرح ، مدى مشاركة المسلمين الصقليين في بناء هيكل المدنية الحاضرة ؛ فيكاد يخيل اليك وانت تتلو كتب التاريخ القديمة ان مقام المسلمين بصقلية ما كان الا سلسلة من حروب وفتن واضطرابات ، وانه لم يكن وراء تلك الحروب والفتن سوى دماء تسفك ، ومعالم تخرب ، وحرمان تنتهك ؛ وتلك لعمري هفوة من مؤرخينا ، علينا ان نتداركها ، وعلينا ان نسد هذه اشلمة في هيكل تاريخنا القومي العربي .

نعم ! يجعل بهذه المناسبة ، وفي هذا الميدان ان نذكر وان نعترف بجميل عالين جليلين ، ومؤرخين مبجلين اولهما السنيور ميكايل عماري (١) وقد نشر سنة ١٨٥٨ كتابه الحافل (المكتبة العربية الصقلية) وقد جمع فيه اغلب ما تناثر في كتب العرب من اخبار صقلية والصقليين ، ايام دولة المسلمين ؛ والف كتابا حافلا باللغة الطليانية (تاريخ العرب بصقلية) في خمسة اجزاء ضخمة .

وثانيهما صديقي الكبير واستاذي الجليل ، السيد الوزير حسن حسنى عبد الوهاب ، مدرس التاريخ بالحدونية سابقا ، وعضو مجمع اللغة العربية ؛ حيث قدم لمؤتمر المستشرقين الرابع عشر المنعقد بمدينة الجزائر سنة ١٩٠٥ رسالة قيمة باللغة الفرنسية (١) عن مسلمي صقلية وما كان لهم من اثر محمود في ميادين العلم والمدنية .

(١) هو صاحب السيف والقلم ، وبطل العلم والسياسة . واحد كبار المجاهدين في سبيل الامة والوطن ، والدرة الناعمة في تاريخ الاستشراق الغربي على الاطلاق ؛ ولد في مدينة باليرمة سنة ١٧٠٦ من عائلة ربما كانت تنحدر من اصل عربي حسيما يدل عليه اسمها ، وحسيما يدل عليه اتجاه هذا البطل العظيم من احياء تاريخ المسلمين بصقلية . وجمع آثارهم والاشادة بما كان لهم من فضل على العلم والمدنية بحيث انه قد عمل وحده في هذا المضمار ما تنوء تحت وقرة العنبة القوية من العاملين .

ولقد شب في بيت ثائر ، اذ كان أبوه من رجال الحركة الوطنية الاستقلالية بصقلية . وحكم عليه بالسجن لمدة ثلاثين سنة ؛ فكان ميكايل متشبعا منذ نشأته بتلك الافكار لكنه اندفع في ميدان العلم فحظق العربية . مدفوعا لذلك بعاطفة غسريزية ولاريب . واخذ منذ شبابه يدرس تاريخ المسلمين ؛ وعندما حدثت الثورة في سبيل الحرية سنة ١٨٤٨ اندفع صاحبا في مضمارها وخاض لغمارها . وسمى نائبا عن وطنه في مجلس الامة ؛ وتولى وزارة المالية حيث جاهد جهاد الابطال في سبيل الشعب والمستضعفين ؛ ثم ترك السياسة واعتكف على الدراسة والانتاج الحصب . لكن ثورة غاريبالدي عام ١٨٤٠ اخرجته من جديد لعالم السياسة والجهاد فشارك في الثورة مشاركة محسوسة ، واصبح بعد نجاحها مدير المعارف بمدينة باليرمة ثم وزير المعارف للدولة الطليانية الموحدة سنة ١٨٤٦ .

ثم اعتزل السياسة من جديد ، واخذ يدرس العربية في جامعة فلورنسا . وتراس بتلك

ثم نشر حفظه الله بمدينة بالرمة سنة ١٩١٠ القسم المتعلق بالشمال
الافريقي وجزيرة صقلية من كتاب اعمال الاعلام ، لابن الخطيب ، مع هوامش
مفيدة باللغة الفرنسية متداركا بذلك ما سها العلامة ميكايل عمارى الآنف
الذكر عن حشره ضمن (المكتبة العربية الصقلية) .



ولقد كان اهتمامى بموضوع التاريخ الاسلامى بصقلية قديما ، وكانت
ولا تزال رغبتي فى اختراق مجاهله اكيدة ؛ فنشرت فى الجزء الرابع من كتابى
تقويم المنصور سنة ١٩٢٦ بحثا وجيزا عن تلك الحقبة من التاريخ ، ولربما
كنت قد وفقت يومئذ بعض التوفيق ، فى تعبيد ذلك الطريق .

واننى لأعود اليوم الى هذا الموضوع ، مقدما بين يدي الامجاد ، قوم
الشمال الافريقى ما اوصلنى اليه جهد البحث والاستقراء عن تاريخ صقلية
الاسلامية متوسعا فى ذلك ، حسبما امكننى ان اتحصل عليه من مختلف الوثائق
والمعلومات وبين طيات ما وصلت اليه من كتب عربية وفرنجية ؛ مثبتا على
هامش ذلك ، حسب طريقتى ؛ اهم الاحداث الكبرى ، بالشرق وبانغرب ، حتى

المدينة مؤتمر المستشرقين سنة ١٨٧٦ ، واستمر عاملا جادا فى سبيل العربية والتاريخ الاسلامى
الصحيح الى ان توفى بفلورانس سنة ١٨٨٩ . ومن اهم آثاره (تاريخ المسلمين فى صقلية)
فى خمسة اجزاء ضخمة ، نشره سنة ١٨٥٤ ، واعيد طبعه من تعليقات مفيدة وكتاب (المكتبة
العربية الصقلية) جمع فيه اهم ما كتبه المؤلفون المسلمون عن صقلية ، وكتاب (الآثار العربية
المنقوشة على الحجارة بصقلية) وكتاب (مذكرة عن حوادث التاريخ فى القرآن الكريم) وترجم
للطليانية كتاب سلوان المطاوع لابن طغر : ورحلة ابن جبير بصقلية وتاريخ ابن خلدون . الخ .
وقد اقام المستشرقون حفلا رائعا بمناسبة مرور مائة عام على ولادته ؛ وبذلك المناسبة نشر
استاذنا حسن حسنى القسم المتعلق بصقلية وافريقيا من (اعمال الاعلام) .

وانى لأعتقد انه لا يتسنى للعرب الاطلاع على حقائق ودقائق تاريخ مسلمى صقلية ما لم
يقض الله من بينهم من يترجم للغة الضاد كتاب عمارى الحافل الثرى « تاريخ المسلمين فى صقلية »
فهل من مجيب ؟

(1) La domination musulmane en Sicile

يمكن لقار كتابي ان يخرج بالتاريخ المحلى عن عزلته ، ويربط الحوادث الصقلية فى مختلف ادوارها بيمجرى التاريخ العالمى .

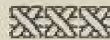
لكننى - والحمد لله - بعيد عن الغرور وكاذب الادعاء ! فاقول بكل صراحة ، ان كتابى هذا لا يجب ان يعتبر الا تمهيدا لدراسة تاريخ المسلمين فى صقلية ؛ فان كنت قد علمت شيئا وسجلته ، فقد غابت عنى ولا ريب اشياء ؛ وان كنت قد اذليت خلال هذه الدراسة التاريخية ببعض آراء وافكار ، فما انا بمقدمها الا لكى تعرض على مجال البحث والمناظرة ، حتى يظهر من الحقائق التاريخية ما اخفته دفات الكتب ، او طمست معالمه حوادث الايام .

بل انتى ازيد غلوا فى الصراحة ، فاقول للعلماء والكتاب والمؤرخين من بنى قومي ، انتى ما اقدمت على وضع كتابى هذا ، ونشره ، وعرضه على النقادين ، الا لكى استفز منهم المشاعر ، واستحث فيهم الهمم ، عليهم نندفعون بهمة وعزيمة وبما آتاهم الله من علم ، فى هذا الباب ، يتداركون النقص ويأتون بفصل الخطاب ، تلك هى غايى ، وذلك هو منأى (١) .

واننى لا يتهل الى الله ، ان يلهمنا الحق والصدق والصواب ، ويهدينا سواء السبيل ، حتى نخدم تاريخنا الخدمة المثلى ؛ فنخلد بذلك ذكرى اجدادنا ، ونقدم الامانة سليمة للاحفادنا .

وما تسوفى الا بالله ، عليه توكلت ، واليه انيب .

الجزائر - ١٢ ربيع الانور ١٣٦٥



(١) من المؤسف حقا ، انه لم يصدر حول هذا الموضوع ، منذ هذا النداء ، الا كتاب واحد لاغير ، الى يومنا هذا . سنة ١٩٦٨ ، ويكاد يكون قاصرا على ذكر الادب والشعراء والاثر الحضارى .

القسم الاول

وصف جزيرة صقلية ومناخها وعمرانها

معقل طبيعي ، صنعته يد الله في منتصف البحر الابيض المتوسط ، فقسمه الى شطرين شرقي وغربي ، فهيمن على حركة المرور بينهما . وحصن حصين ارتكز بين القسمين البارزين من قارتي اوروبا وافريقيا حيث تجابه شبه جزيرة شريك ، في هيئة تحد ظاهر ، شبه جزيرة قلورية ، كان كلا منهما يريد ان يمد ذراعه نحو الاخرى ، فتقوم بينهما جزيرة صقلية ، لتكون في بعض الاحيان حكما ووسيطا ، لتكون في كثير من الاحايين جسرا يعبر عليه اهل الجنوب الى اهل الشمال ، او ينحدر منه اهل الشمال الى اهل الجنوب ، حسب القوة والاستعداد ، ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض .

شكل مثلث تكاد تتساوى اضلاعه ، اطلق عليه الاقدمون من اجل ذلك اسم « اترينا كرييا » اي المثلث يفصله بحرا عن قلورية (بايطاليا) مضيق مسينا وهو لا يكاد يجاوز ٣ كيلو مترات ، ويفصله عن البلاد التونسية معبر صقلية ، وعرضه ١٢٠ كيلومترا ؛ ويمسح هذا المثلث الصقلي ٢٥٤٦١ كيلومترا مربعا .

فاذا نحن قمنا بحركة طواف حول الجزيرة الصقلية مبتدئين سيرنا من مدينة مسينا ، رأينا منذ النظرة الاولى ان هذه الجزيرة تكاد تكون مقطعة من ايطاليا حيث تستمر فيها ، في اتجاه واحد جبال الابنينان ، وتكاد تستأنف منها في نفس ذلك الاتجاه نفس تلك الجبال في الشمال الافريقي ، متخذة لنفسها اسم « الاطلس التلي » . ولا يسع الرائي يومئذ الا الاقتناع بان افريقيا واروبا كانتا متصلتين في غابر الازمان قبل عهد التاريخ ، بمعبر قلورية ، صقلية ، شبه جزيرة شريك ؛ ولقد صدق الله العظيم اذ يقول : « او لم ير الذين كفروا ان السماوات والارض كانتا رتقا ففتقناهما » .

ترى اثر خروجك من مسينا ، لاول وهلة ، كتلة هائلة من الصخر والتراب والمعادن المختلفة ، ترتفع الى غنان السماء قمتها ، وينزل الى قاع البحر اصلها ، ذلك هو فلكان « الاتسا » او جبل النار ، حسبما تسميه كتب التاريخ العربى ، وانه ليثور فى بعض الاحيان ، فيخرج من جوفه فى اصوات كهزيم الرعد القاصف حمما وتيرانا متقدة ودخانا كثيفا ، فلا يبقى حواليه ولا يذر ، يحطم المداين والقرى والساكن ويهلك الحرث والنسل ؛ ثم لا تكاد تنقضى ثورته حتى يعود الصقليون الى تجديد ما خطمته التياران وما غمره الحما المسنون ، فكان المعركة هناك خائدة مستمرة بين قوى الطبيعة وبين الانسان ، وكان الله سبحانه وتعالى اراد ان يقيم منها مثالا دائما للجلد والثبات ، والتغلب على العقبات ، والصبر على الناثبات .

فاذا نحن انحدرنا من مدينة مسينا نحو الجنوب رأينا ساحلا صخريا ، لا نتوء فيه ولا جون ولا خليج ، ويستمر كذلك الى مقربة من مدينة قطانيا ؛ ومن هنالك تتغير هيئة الساحل فيغدو رمليا لطيفا ، وترى فيه مصب وادى « ليريتو » ثم يبرز الى البحر فى جمال رائع ، راس اكروتشى .

ومن ثم تستمر فى انحدارنا صوب الجنوب ، فنجد عروس صقلية مدينة الفن والجمال ، والصيت التاريخى الرائع ، والذكريات المجيدة ، سرقوسة ، واننا لا نذكرها حتى يترامى لنا شبح بطلها العظيم ارخميدس (١) الاغريقى حيث اجتمع العلم والوطنية والتضحية فى ذهن واحد جبار ، فهو الى جانب اكتشافاته العلمية العديدة التى تعد قسما للعنصر البشرى ، اراه يوالى اختراع آلات الدفاع لصدد غارة الرومان عن وطنه ، وقد جندله اخيرا سيف الطغيان بيد احيد الوحوش الرومانيين .

(١) من اكبر علماء البشرية على الاطلاق . ولد بسرقوسة وقتل بها (٢٨٧ - ٢١٢ ق م) من اهم اكتشافاته . الثقل النوعى وان اى جرم داخل فى الماء يفقد وزنه بفقدان ما ازاحه من الماء . وقد اكتشف هذه القاعدة الحادة التى كانت اساسا لعدة اكتشافات اخرى وهو يستعمل : فالخذه السوجد فى شونة الاكتشاف وخرج من حمامه ناديا يجرى فى طرقات سرقوسة ويفصح بالكلمة المأثورة EUREK, EUREKA اى وجدت . وجدت .

ومن سرقوسة الى رأس باسيرو ، يتكون من الساحل شكل هلال ليس فيه ما يستحق الذكر ، وهناك ينتهي الساحل الشرقي من صقلية ؛ ويبلغ عمق البحر المتوسط حوالي ذلك نحو من ٣٦٠٠ مترا ، وناخذ طريقنا صاعدين مع الساحل الجنوبي في حركة تدريجية وعلى خط يكاد يكون مستقيما ، وهناك ينصب وادي سالسو ؛ ثم تقوم مدينة جرجنتي ذات الذكر الطويل في تاريخنا العربي الصقلي ومن ثم نزيد ارتفاعا نحو الشمال الغربي فنرى سواحل كثيرة المياه ، وافرة المراعى والمروج ، حيث تقوم مدينة « مرصالا » ، ذات الرحيق الرقيق ، وبعد ذلك نصعد صوب الشمال حيث نجد مرفأ « طرابنة » اللطيف الشهير والذي سيمر بنا ذكره كثيرا أثناء البحث التاريخي .

عند رأس كستيلا ماري ، تمنحني الجزيرة ويمتد الساحل الشمالى على خط مستو يمتد من الغرب الى الشرق ، فنراه ساحلا صخريا جبليا ، ونلاحظ فيه باديء ذي بدء خليجا تام الاستدارة بهي الشكل ، بديع الاطار ، هو خليج « كستيلا ماري » ومن عجب انه لا يحتوي الا على بلدة « الكابو » الصغيرة وبعض اكواخ لصائدي الاسماك ، فان خرجنا منه وجدنا رأس « دى قالو » ومن عليائه تشرف على جون مدينة بالرمة البديعة الطيبة عاصمة صقلية الاسلامية ، ومركز ادارتها الى يومنا هذا . ثم نستمر فى سيرنا مع سواحل صخر وجمال حتى تصل مدينة « مسينا » ذات البهاء والجمال والحركة المستمرة والعمران المتواصل ، ومنها ابتدأنا سيرنا حول سواحل الجزيرة . فلنتجه الآن بانظارنا فاحصين دواخل الجزيرة باحثين فى جبالها وسهولها وانجازها وانوارها .

الجبيل : ان جبل « الأتينا » ، هو اول ما يستحق الذكر ويستجلب النظر فى صقلية ، فارتفاعه يبلغ ٣٣١٢ مترا ، من ذلك كان اكبر جبال النال فى أوروبا . ولقد ادركه الهزم من قديم العصور فكلل الثلج هامتة بنشيب سرمدى ؛ لكن لم يكن ذلك بمانع لثورة ضميره ، والقاء ما فى قرارة نفسه

امام العالم حيناً بعد حين ؛ اما مساحته فتبلغ نحواً من ١٢٠٠ كيلومتر مربع ويمكن الصعود الى اعلى قمته بكل سهولة حيث الانواء الرهيبة التي يخرج منها على الدوام دخان يكون تسارة لطيفاً وطوراً كثيفاً ؛ وتسمع منها زمجرة نار الله الموقدة وهي تتميز من الغيظ ، فكان الصاعد هنالك يشرف من عل تلى جهنم الحمراء او يرى عينة منها على الاقل .

وجبل « الاتنا » لا يكاد يتصل باى سلسلة من الجبال العقلية الاخرى ، فى شمال الجزيرة تمتد سلسلة من انشروق الى الغرب وهي جبال صخرية جرداء قلما رايت عليها اخضرار نبات او ابتسمت فى وجهك منها زهرة ؛ تتكون طبقتها الخارجية من حجارة كلسية ، ومن انواع الرخام الرفيع ؛ وهذه السلسلة وهي سد طبيعى يحوى الجزيرة من غارات الشمال ، ويقبها رياح الشمال الباردة ، يبلغ ارتفاعها نحو الالفى متر ، وهي تعتبر امتداداً من وراء مضيق ميسينا لجبال الابنين بايطاليا ، وتعتبر ايضا ، تمهيدا لجبال الاطلس كما اسلفنا ؛ ومنها تتكون بعض جبال فرعية ، تنحدر من اعلى الجزيرة الى اسفلها ، اسمها الجبال التى ارتفعت فوقها مدينة « قصريانة » ، ويبلغ ارتفاعها نحو ٩٩٠ متراً ، والجبال التى تنحدر صوب مدينة « جرجنتى » ، واسمها جبال مادونيا ، وارتفاعها يبلغ ١٥٨٦ متراً ؛ وفى هذه الجبال ثروة ذرية من الخزف ، والملح المعدنى ، والجص .

وما بين هذه الجبال ، تجد وهاباً ونجوداً ، وسهولاً ضيقة خصبة ، وغابات قليلة قسوة .

المياه : ان كانت ارض الجزيرة تختلف بين الشمال والجنوب ، فاوديتها وانهارها تختلف مثل ذلك ، فالساحل الشرقى القاحل ، لا تكاد تجد به الا اودية ضئيلة غير مستقيمة السير ، ومنها ما لا يبلغ عرضه اكثر من متر واحد ، يجف اغلبها ابان المصيف ؛ او هي تلوح كمثل اطلال خاوية ؛ كباقى الوشم فى ظاهر اليد ؛ هنالك واد واحد يستحق الذكر ، هو وادى القنطرة ، وقد احتفظ باسمه العربى هذا ؛ ويبلغ طوله ١١٦

كيلومترا : ويرزى حوضا مساحته ٤٣٨٩ (كم) مربع .

اما الساحل الجنوبي : فاوديته غنية بمياهها صيفا وشتاء حيث تغذيها سلسلة الجبال الشمالية : واهم هذه الودية : وادي سالسو ، وطوله ١٤٤ كيلومترا وحوضه نحو الالقى (كم) مربع .

وبالجزيرة بعض بحيرات ذات اهمية ، اكبرها شانا بحيرة لنتيني في مقاطعة سرقوسة ، ومساحتها ١١٩ كيلومترا مربعا ، وتليها بحيرة برعوسا وبالتشى .

اما الامطار ، فمعدل نزولها في السنة هو ٧٦٠ ملمترا ، والايام المطيرة تبلغ ١١٢ يوما في السنة .

المناخ : خص الله هذه الجزيرة الطيبة ، بحكم موقعها ووضعيتها الجبال فيها ، بمناخ جميل ، وهواء معتدل ، وجو صاف ، بحيث انه ليس في قارة اوروبا ما يعادلها من حيث اعتدال الطقس ولطف الهواء .

فصل الشتاء فيها ليس بقارس البرد . يبتدىء من شهر نوفمبر وينتهي عند شهر مارس مع انقطاع الامطار غاليا في شهر جانفي ! وخلال شهرى النمو في افريل وماية ينزل من السماء ماء غزير هو قوام حياة البلاد اذ يذكي حركة الزراعة والغراسة .

اما فصل الصيف فهو كذلك لطيف معتدل ما لم تهب رياح السموم ، ترسلها افريقيا تحية غير لطيفة الى هذه الجزيرة ! لكن السموم لا تزيد مدتها هنالك عن ثلاثة ايام متوالية : ومن غرائب عاداتها - ولماذا لا تكون للرياح عادات كمعادات البشر ؟ - انها تهب في شهر افريل بصفة خاصة وعند اختلاف الفصول الاربعة بصفة اعم فتأتى معها بجيش عرمرم من الغبار والرمل وتبلغ عندئذ درجة الحرارة في بالرمة وسوادها نحو ٢٧ درجة .

اما معدل الطقس فهو في بالرمة نحو ١٧ درجة ، واقصى ارتفاعه الطبيعي هو ٢٦،١٢ درجة : واقصى نزوله زمن الشتاء هو ١١ درجة . من اجل ذلك سميت تلك الناحية « بلاد الربيع الابدى » ومن اجل ذلك كانت مستقر

الملوك والكبراء والحكام منذ العصور القديمة .

الثروة الطبيعية : اهم النتائج الطبيعية التي اشتهرت بها الجزيرة هو الكبريت le Soufre ويوجد غالبا في مقاطعات الجنوب الشرقي ؛ في « قاطانا سبتا » وجرجنى و (قطانيا) وكذلك حول مدينة بالرمة ؛ ويلى ذلك في الاهمية الملح المعدنى المستخرج من طبقات الارض . والرخام بمختلف انواعه الزفينة والعادية ، وحجارة الكلس والجص والقار بنوعيه .

ولقد كانت الجزيرة ايام الحكم الاسلامى ، وقبل ذلك ، مكتسية بالغابات الشاسعة الغنية التى تنتج انواعا من الاخشاب الصلبة المستعملة في بناء السفن والمراكب . الا ان سوء الادارة بعد ذلك وعدم التبصر بعواقب الامور ، وترك الجبل يجرى على الغارب دون مراقبة وانتباه ؛ قد افقر الجزيرة او كاد من غاباتها فاصبحت لا تحجب الا مقدار جزء من عشرين من ارضها .

اما الثروة الزراعية فتلك هى نعمة الله الكبرى على الجزيرة ، وذلك ما جعلها الى جانب مناخها الحسن وموقعها المنيح ، مطمح انظار الفاتحين منذ قديم العصور .

من حسنات المسلمين الخالدة بتلك الجزيرة انهم نقلوا اليها من شمالنا الافريقى ، ولا يزال يوجد هنالك واغرا ، النخل الباسق الذى ينتج الرطب (الجنى ، واشجار الليمون والنانج والبرتقال والموز والزيتون .

والجزيرة تنتج كميات عظيمة من القمح والشعير والقطاني والكتان ، وتعتبر بعد البلاد التونسية اكبر منتجي زيت الزيتون .

اما اعنابها فذات شهرة بزت شهرة اعناب اليونان ؛ وتنتج صقلية خمورا وافرة تعتبر احسن خمور اوروبا واجودها ، عند اهل الخبرة .

وان كانت الماشية بالجزيرة غير ذات اهمية ، تشمل قطعان الغنم والبقر والماعز والخنازير ؛ فان سواحلها وافرة الغنى بما ينتجه صيد البحر من اسماك مختلفة الانواع ، يستهلك الاهلون في طعامهم الكثير منها ؛ ويصبر اغلبها ويوضع في العلب للتصدير كالشن والسردين وما اشبهها ؛ ونشأت عن ذلك

صناعة ذات بال *

السكان - لا نريد ان نخترق غياهب العصور ؛ حيث يختلط التاريخ بالخرافات وتندمج الحقائق فى الاساطير ؛ لكي نبحث عن سكان صقلية الاصليين ؛ وهل كانوا فى العصر الحجري من اقوام الشمال انحدروا نحو الجنوب ؛ او من اهل الجنوب صعدوا نحو الشمال ايام ، كانت اوروبا وافريقيا قطعة واحدة ، وصقلية اداة وصل بينهما *

وان كان لى ان ابدى رأيا فى الموضوع ؛ لا يعتمد إلا على الحدس والتخمين ، فهو ان سكان المفاور والكهوف الذين عمروا صقلية انما صعدوا اليها من افريقيا ولم ينحدروا لها من اوروبا ؛ ذلك ان مناخ صقلية لطيب ، ومراعيها اخصب ، ومياهها اوفر من افريقيا ؛ والانسان الاول فى فجر حياته كان يبحث عن كل ذلك ويسير نحوه حيثما وجده ؛ وعليه فسكان صقلية الاولون يكونون فرعا من اجداد البربر سكان الشمال الافريقى * وهذا البحث جدير بالاهتمام والدراسة *

انما الذى اثبتته التاريخ بصفة قطعية ، هو ان سكان صقلية فى العهد التاريخي كانوا من قوم « الصيقول » وهم امة نشأت فى بلاد البلقان ما بين مقدونيا وبلاد الاغريق ؛ ثم استوطنوا ايطاليا ومنها عمروا الجزيرة التى اشتقت يومئذ اسمها من اسمهم (صيقول = صقلية) فابتلعوا من سبقهم بها من الشعوب الاخرى *

ثم امت الجزيرة جموع واثرة العدد من جزيرة اقريطس ، واخيرا هاجر اليها قوم غفير العدد من الاغريق ، فعمروها رهبوا حواشيها ، ومدنوها على غرار مدينتهم الانامية الزاهية ، وكانت يومئذ نبراس العالم المنير ؛ فابتلعوا فى بودقتهم كل العناصر الاخرى ؛ ولم يبق بالجزيرة الا الاغريقى الاصيل او الاغريقى الصيقولى الاصيل *

اشتعلت نيران الحرب البونيقية بين روما وقرطاجنة فوق اديم الارض الصقلية فامتلات الجزيرة بالرومانيين والقرطاجنيين وبالتابعين وتابع التابعين

لكل من القريبيين من عبيد وجند مرتزق شمل اخلاطا من شعوب البربر والقوط والوندال .

ثم ان الفتح الاسلامي قد طبع البلاد بطابعه الخاص ؛ فترك بها من سلالات العرب والبربر ما لا يحصى اثره ، او تنعدم شمائله ، كما ترك اهل الشمال الترمانيون انصارهم كذلك بينة واضحة ، كما تركها من بعدهم الجرمنيون الذين اسسوا دولة « شواب » هنالك .

فالعنصر الصقلي اتيهم ، مزيج من شعوب الشرق بين يونان وكنعانيين وعرب وبربر ؛ ومن لاتينيين وجرمانيين . ولا تزال بالجزيرة جماعة لا شك في اصلها الكنعاني ، تتكلم لسانها العربي المحرف على غرار اهل صالطة ، ولا تزال محافظة على شيء من طقوس من دينها الوثني القديم .

ولقد انتج اختلاط هذه العناصر وتساكنها ، بله وتنازعها البقاء ثم تشكل بقاياها في صفة امة ، قوما اقوياء اثنية قصار القامة ، نحيفي الاجسام ، لا يزيد معدل الطول فيهم عن ميتر و ٦١ في السواحل وميتر و ٥٠ في داخل البلاد .

ولقد تفتى بعض الشعراء بجمال المرأة الصقلية ، كما ضربت بجمال المرأة الاسبانية الامثال . انما كلتا المرأتين لا تتميزان بشيء عن المرأة المتوسطة الاعرابية ببلادنا .

وليس للرجل الصقلي ما يميزه كثيرا عن الرجل الاسباني ، بل انك في اغلب الجهات تكاد تجد اسبانيا خالص السحنة ؛ اعين سوداء لماعة ، وبشرة سمراء قاتمة ؛ وانف اقنى ، وخدود غائرة ، فهو بلا شك اقل جمالا من العربي الضميم .

وفي كثير من الجهات تجد الشعر الكستنائي والعيون الشهل ، وتجد احيانا على قلة الشعر الاشقر والاعين الزرقاء وذلك في الاوساط المثيرة الراقية ؛ مما يدل دلالة واضحة على انهم من بقايا الترمان والجرمانيين .

والصقلي بصفة عامة متوسط الذكاء ؛ ويكون ذكائه احيانا دون

المتوسط ، وهو غير مبال لعلم ولا لفن ؛ وكانت الامية تغلب على البلاد بصفة مدعشة قبل الاستقلال الذاتى فهناك تجد ، اشرافات موطننا خصباً ، والاعتقاد فى القوى الطبيعية ومفعول السحر عظيم ؛ والعادات الوثنية قد تركت هناك اثرًا لم تستطع محوه يد الاسلام ولا يد النصرانية .

المجتمع : سكان صقلية اليوم يزيدون عن خمسة ملايين نسمة ، يتكلمون نوعاً من اللغة الطليانية المحرفة ليست بذات رقة ولا جمال ، ويعيش الناس هناك منقسمين الى طبقات اجتماعية يتفصل بعضها عن بعض ولم تستطع ايدى الاصلاح القليلة ان تغير من ذلك شيئاً محسوساً . فالسواد الاعظم من الناس كان يعيش هناك مع السلطة الطليانية الملكية مهضوم الحقوق مهين الجناح فاقد كل وسائل الحياة الشريفة .

هناك طبقة مستعمرة غنية ؛ تملك الارض وما عليها ، تسرف فى الترف وتنعم بملذات الحياة ، وتتمتع بسكنى القصور الفخمة والحدائق الغناء ؛ وترداد الاندية الفاخرة ؛ ثم هى تدير مزارعها الشاسعة مصدر ثروتها ومنبع غناها بواسطة نظام ماجورين ؛ وعمال فلاحين فهم عليهم اغلب الحقوق التى كانت للامراء الاقطاعيين فى القرون الوسطى ؛ وكانت هذه الطبقة قبل النظام الفاشيستي واثامه ؛ تؤلف كتلة قوية تخضع لارادتها رجال الحكومة ونواب الامة وشيوخها ايام الحكم البرلماني ؛ وكثيراً ما مد هؤلاء الطغاة ايديهم لعبيدهم ؛ وساعدوهم على القيام بساقل المآرب مقابل المساعدة التى يلقونها منهم لتنفيذ غايتهم من مقاومة الحكومة ان ازادت اصلاحاً لايرضونه ؛ ومن التعرض لنزع ملكية الارض لفائدة صندوق الدولة اذا ما تراكت الضرائب عليهم ؛ وغير ذلك مما يطول ذكره .

ولقد شكل حثالة الصقليين جمعية سرية اسموها « لامافينا » انتشرت فى انحاء البلاد ونشرت شرورها وآثامها ؛ ولطخت بالدماء البريئة ارجاءها ؛ خدمة للمآرب ساقطة وارضاء لمطامع نفسية ذنيثة .

تاريخ صقلية - ٢

وتحت هذه الطائفة في السلم الاجتماعي ؛ توجد طبقة المديرين والمحصلين والسماسرة الذين يباشرون الامور وساطة بين كبار المستعمرين والعملة .

واخيرا في اسفل الدرجات ؛ نجد طبقة العمال الفلاحين وكانت تكاد تكون من طبقة الوقيق ؛ لا يرى الرائي لها مثيلا ، الا في روسيا قبل ثورتها الشيوعية او في بعض جهات الشمال الافريقي ايام الاستعمار الفرنسي الفظيع .

فالتطبقات العاملة ، ليست لها مساكن صحية ، ولا تتقاضى من الاجر الا ما لا يكاد يسد الرزق ؛ وليس لها من اللباس الا ما يكفي لتمييزها عن بقية الحسوان ، ثم تراها بعد ذلك تروّج تحت وطأة الضرائب العامة التي تصيب المواد الاولية الضرورية لحياة الانسان ؛ فالصقل كان افقر انسان في رعاية ايطاليا لكنه يتحمل اربعة اضعاف ما يتحملة الطلياني من الاعباء ؛ ثم هو لجهله وقلة ادراكه ؛ كان يطيع السادة الاقطاعيين طاعة عمياء ؛ ياتمر طوعا باوامرهم وينتهي بنواهيهم ؛ كانه يعتقد دينيا بان الله خلقه من اجل خدمتهم .

اما طبقة العمال في المناجم والمعادن ، وبقية الصناعات الاخرى ؛ فقد تمكنت بفضل اجتماعها وتغلغل الافكار الاشتراكية فيها ؛ من تغير حالها والاحراز على بعض الحقوق ؛ ولقد جنحت في بعض الاحايين لفكرة الشيوعية ؛ الى ان ضربتها الفاشستية الهوجاء فسوت بينها وبين بقية العمال في ايطاليا تحت لبواء طغيانها . واستمر اثنين العمال خائفين ؛ الى ان اقبلت شمس الفاشيستية ؛ وهاجمت قوات المتحالفين من انكليز واميركيين ارض الجزيرة ، فلم يحرك اهلها ساكنا ، بل قبلوا الفاتحين بصندور رجبة ملئت الحرب ؛ وقلوب مبتهجة سنمت الجور والطغيان ؛ وكانهم قالوا ان ليس في الامكان اسوا مما كان ؛ فمزحجا بالقدام الجديد ؛ عله يصلح ما افسده الاقدمون .

وبعد كفاح طويل ، نالت الجزيرة ما كانت تصبو اليه من استقلال

ادارى . وحكم محلى . كما سترى فى الموجز التاريخى ، فانكب احرار صقلية
على اعمال الاصلاح التى شمل الميادين الاقتصادية والاجتماعية . ولا يزال
مجال العمل امامهم فسيحاً .



القسم الثاني

تاريخ جزيرة صقلية من اقدم عصورها الى اليوم

الفينيقيون : منذ نحو الالف سنة قبل الميلاد (١) توطن شعب الصيقول الجزيرة التي اشتقت من اسمه اسمها ، واسس ذلك الشعب المدن والداكر ، واصلاح الارض ، ولم يقع اى تصادم بينه وبين رواد المدينة الشرقية بحارة فينيقيا من بشى كنعان ، وقد كانوا يؤمنون بجوابون عباب البحار ويؤسسون على سواحلها قرى تجارية كانوا يدعونها « المصارف » وبواسطتها كانت اشعة انوار المدينة الشرقية تبدد ظلمات الوحشية الغربية ، وان المبادلات التجارية ولتعارف والتتالف حول تبادل المصالح لاحسن وسيلة لارتباط الشعوب بعضها ببعض وتآخيها فى سبيل التقدم الانساني ، شتان بينها وبين وسائل الغزو بواسطة الحديد والنار : وانخضاع الشعوب الضعيفة تحت نير الاستعمار .

سلك الفينيقيون هنالك مسلكهم فى بقية الحوض الغربى من البحر المتوسط فاسسوا بالجزيرة مراكزهم التجارية العمرانية ومنها « معطية » و« بانورم » بالرمة » و « صلديس » .

الاغريق : وانبثق بعد ذلك من الشرق نور جديد ، بسط على صقلية شعاعه مع رجال الاغريق ذوى المدينة الزاهية الزاهرة ، فاستوطنت جموح كثيرة منهم شرقي الجزيرة فعمروها واسسوا بها مدنا شهيرة مثل « سرقوسة » سنة ٧٣٤ ق م و « قطانية » خمسة اعوام بعد ذلك و « مسينا » حوالى ذلك التاريخ ، واستمر نفوذ اليونانيين الاغريق فى تقدم وازدياد نحو مائتى عام الى سنة ٥٣٦ ق م .

(١) فى نفس الوقت الذى ابتدأت فيه هجرات الكنعانيين الفينيقيين الى المغرب العربى .

تدخل قرطاجنة : تضاعف شأن الاغريق حيث كانت بلادهم ميدانا
للاتقسام والتناحر حول الحكم والمناصب ؛ وما كانوا يتورعون عن ايقاد
نيران الحرب الاهلية في ذلك السبيل ؛ وكانت يومئذ مدينة قرطاجنة
الاfrيقية الكنعانية تسطح بدرا لا معا في سماء العالم القديم ؛ وكانت راسخة
القدم في بلاد الشمال الافريقى ، تربط بين مختلف ارجائه برباط المصلحة
والمدينة ، ولقد مدت ابصارها الشرهة نحو جزيرة صقلية ورامت الاستحواذ
عليها ، اما تمهيدا لوثبة اخرى من ورائها نحو القارة الاوروبية ، وبما اتقاء
لشر غارة يشنها عليها من يشب قدمه بتلك الناحية ؛ وقد كانت قرطاجنة
احتلت قبل ذلك جزيرتي سردينيا وكورسكا .

لقد كان انزاع يومئذ مستفجما بين الاغريق والفينيقيين في صقلية ،
واصبح العنصران يتنازعان هنالك البقاء . قاغتنمت قرطاجنة القرصة
وجهزت اسطولها يخول جندا عتيدا تحت قيادة السبط . « مالى » . وكانت مهمته
الظاهرة انجاد الفينيقيين في الجزيرة ونصرتهم ضد الاغريق ؛ ومهمته الخفية
نصب سلطان قرطاجنة على لبلاد . لكن السبط مالى اخفق في انجاز مهمته .
وتغلب عليه اغريق الجزيرة فاضل ما احتله من البلاد ورجع خائبا الى
قرطاجنة .

لم تكن الحثيات العسكرية تثنى عزم القرطاجنيين عن مداومة الكفاح
والنضال ، فاحذوا يستعدون لاعادة الكرة ، وارادوا قبل ذلك ان يامنوا
شر تدخل اجنبى فى الامر ؛ وارادوا ان يجعلوا الاغريق فى عزلة سياسية
وحربية . حتى لا يجدوا معينا لهم فى البحر المتوسط ، فتعاقدت قرطاجنة مع
عدو الاغريق ، ملك الفرس « اكسريس » وتعالفت فى نفس الوقت مع
الرومانيين الذين لم يتألق نجمهم بعد فى سماء البحر المتوسط ؛ ووضع
القرطاجنيون بهذه الصفة جنوب البلاد الطليانية ضمن منطقة نفوذهم .

جهزت قرطاجنة حملتها الثانية تحت امرة « عميلكرضى بن ماغون » البرقى
وارسلت به الى صقلية ، فتصادم تحت جدران سرقوسة مع الاغريق وما كان

نصيب هذه الحملة الا كنصيب الحملة الاولى : خذلان وفشل ذريع : اما القائد
فقتل ، واما الجند فانس ، واما الاسطول فدمر .

وكانت بلاد الاغريق يومئذ قد وثبت وثبة جريئة واستعادت قواها
ومنتعها فلم يكتف الاغريق بدحر القرطاجنيين بصقلية ، بل تغلبوا مع ذلك
وفي نفس الوقت ، على الفرس اعدائهم الاقدمين في وقعة سلامين الشهيرة
سنة ٤٨٠ ق.م .

طلبت قرطاجنة يومئذ الصلح فثالثته بعد لاي من الملك جيلون الاغريقي
الصقلي ، وكان من جملة شروط الغالب على المغلوب ان التزمت قرطاجنة
بالعدول عن تضحية الصبيان بين يدي الصنم ملك . . .

ولئن كانت الحنية اليمية ، فقد كانت العزيمة عظيمة : وما عثم
القرطاجنيون ان جهزوا حملة ثالثة تحت امره حنبعل بن عمكرض (هو غير
حنبعل الشهير بطل الحرب البونيقية) فساروا اليها بقوة وعزم يحدهم
الامل ، وتدفع بهم نحو الامام عاطفة الانتقام والاخذ بالثار ، فنزل حنبعل
الجزيرة ، واخترقها بجيوشه الجرارة ، ونكل برجال الاغريق تنكيلا ذريعا
فذبح في المكان الذي قتل فيه ابوه عمكرض ثلاثة الاف من مقاتليهم المأسورين ؛
ووطد بعد ذلك سلطانه على نحو الثلث من الجزيرة ، ونال الفينيقيون المتوطنون
هنالك فوزا عظيما . ثم انعقد الصلح بين القرطاجنيين وبين الطاغية ديتس
اليوناني ، ملك سرقوسة : نال بواسطته كل من الفريقين الاستقلال
بالحكم في نصف من الجزيرة .

وما كان الصلح من دينس الا خدعة وكسبا للوقت : فما كانت تنقض
مدته المعينة ، حتى كان قد اكمل عدته واحسن عدته ؛ وشتتها على
قرطاجنيين والفينيقيين حربا شعواء ، دحرتهم آخر الامر فحطم مدنهم وخرب
معالمهم ؛ واسر رجالهم ونساءهم فبيعوا رقيقا .

حاول السبط هملقون محاولة جريئة للأخذ بالثار ؛ وانقاذ ما يمكن
انقاذه ، فحاصر سرقوسة فعلا واحتلها ودحر الاغريق في عدة مواطن ، وكاد

يستتب له الامر نهائيا ، لو لا ان مددا عظيما جاء الاغريق من بلاد اليونان ام الوطن ، فدارت الدائرة من جديد على رجال قرطاجنة وانتحر السبط - هملقون - بالاقلاع عن الطعام ، وهذه اول مرة في التاريخ على ما اعلم نرى فيها مثلا لأضراب الجوع الذي اشتهر فيما بعد في تاريخنا الحديث بأضراب الزعيم الارلاندى « ماكسويل » شيخ مدينة يورك وبأضرابات زعيم الهند « غاندى » المتوالية : وأضرابات احرار الجزائر الصناديد ايام حرب التحرير . وخسرت قرطاجنة يومئذ سنة ٣٩٥ ق م جميع ما امتلكنه في الجزيرة ، فاحتله الاغريق .

لكن المحاولة الخامسة لم تبطل كثيرا : فجهزت قرطاجنة القائد « ماغون » وارسلته صحيفة جند ضخمة واسطول قوى ، فامتلك الكثير من السواحل الصقلية ، وثبتت هنالك اقدام القرطاجنيين الذين اتصلوا بالقائدين صديعل وعملكرض مددا : والقت قرطاجنة يومئذ في الميدان الصقلي باحسن ما كان لديها من جند وعتاد . واستمرت الحرب طويلا في الجزيرة بين قرطاجنة وسرقوسة الى سنة ٢٦٤ ق م ، حيث استتب لهم الامر بكامل الجزيرة ، لا بواسطة الحرب والقتار . بل بواسطة انقلاب سياسى خطير ، ذلك ان الملك الاغريقى « هيارون » اذ راي نفوذ روما يقوى ويشتد ويتفاقم امره ، دخل تحت حماية قرطاجنة ، وتعاهد معها على دحر كل طارق جديد .

روما وقرطاجنة : كانت رومة حقا قد نشأت يومئذ نشأة قوية واشتد ساعدها واخذت هي الاخرى ترمى بانظارها وراء البحار : فرات مثلنا وات قرطاجنة من قبل ان امتلاك صقلية : انما هو عمل اساسى من اجل تحقيق امانها في التوسع والاستعمار . وان السلطان الرومانى لن يتحقق في البحر المتوسط ، ما لم ينصب اعلامه من قبل فوق اديم الارض الصقلية : ومن لم شجرت الحروب اليونانية بين روما وقرطاجنة ، فدامت ١١٨ عاما : في ثلاث دفعات متوالية : ابتدأت بصقلية سنة ٢٦٤ وانتهت بتعطيم قرطاجنة واغدامها من عالم الوجود ، بصفة وحشية ، سنة ١٤٦ ق م .

كان السبب الظاهري للحرب البونيقية الاولى : وهى الوحيدة التى يهمنى امرها فى جزيرة صقلية ، هو ان جماعة من سكان ايطاليا كانوا يحتلون مدينة مسينا المواجهة لبلادهم ؛ فكانت - حسب التعبير العسكرى الحديث - راس جسر مده الطليانيون فى الارض الصقلية ؛ واذ كانت روما قد شبت وترعرعت واصبحت تحلم بالسيادة البحرية ، راي القرطاجيون ، كما راي حليفهم الاغريقى ملك سرقوسة ، ان بقاء الطليانيين بمسينا يوشك ان يكون خطرا يهدد الجزيرة بشر مستطير ؛ فجهز الحليفان حملة داهمت مسينا ؛ فاستنجد اهلهابنى جلدتهم الرومانيين ، وكان هؤلاء لا ينتظرون الا مثل هذه الاشارة ، فارسلوا عشرين الفا من خيرة رجالهم ؛ يقودهم القنصل « ابيوس كلوديوس » نزلوا مرسى رجيو ؛ وارغموا القرطاجيين على فك حصار مسينا واطردهم عن ساحتها ، فاعتصموا ببعض معاقلمهم بعيدا عنها ؛ ثم لوى الرومانيون عنانهم نحو الملك الاغريقى هبارون فاضطروه للالتجاء الى معقله فى سرقوسة ، ثم فاضوه فى نكت عهد القرطاجيين . وقد راي راي العين قوة شكيمة الرومانيين ، وحسن نظامهم ، واقتنع بان الحيران سيكون نصيب اعداء الامس وحلفاء الساعة ، فقلب لهم ظهر المجن واعلن معاقلة رومة واخلص لها الولاء . وذلك سنة ٢٦٣ ق م . ورجع القائد حنون القرطاجنى لوطنه مذموما مذخورا ، فاتهم هنالك بخيانة الوطن واعدم صلبا .

رأت قرطاجنة يومئذ ، والحق ما رأت ، ان المسألة اصبحت تتعدى صقلية ، وان الهدف الذى يرمى اليه الرومانيون هو سيادة البحر المتوسط . وان الحرب ان غادرت الارض الصقلية فلكى تحل بسوايلاتها فى الارض الافريقية . ومن اجل ذلك قررت وجوب التضحية بكل عزيز فى سبيل الاحتفاظ بتلك الجزيرة ؛ او على الاقل بجعل الحرب منحصرة هنالك ، وقاية لقرطاجنة وارضها الافريقية ؛ فجهزت من اجل ذلك حملة جديدة ، بلغ عدد رجالها ٥٦ الف رجل ، نزلوا بمدينة « اقريجنث » ، وتصادموا حولها مع جند الرومان تصادما رهيبا ، وما استطاعوا صد رجال رومة عن تلك المدينة.

فسقطت بين ايديهم ، وباع الرومانيون بيع الرقيق من بقى من اهلها حيا ،
وكانوا زهاء الخمسة والعشرين الفا .

وما كانت تلك خاتمة نكبات قرطاجنة بارض صقلية ، فان هذه الدولة
التي اظهرت بهذه المناسبة ثباتا عزم في التاريخ نظيره . ارسلت القائد صدر
بعل سنة ٢٥٠ قم : لمحاولة استرجاع ما فقدته بصقلية ، ولإمداد معاقليها
الباقية هنالك بالنجدة اللازمة ؛ فنال أول الامر فوزا وجيزا ، ثم دحره
القائد الروماني « مينلوس » آخر الامر وكسره سن كسرة وقتل من جنده
اكثر من عشرين الف رجل ، ورجع القائد المتدحر لقرطاجنة حيث كان
ينتظره الاعداء ضلوا .

كانت تلك آخر عملية ذات اهمية قامت بها قرطاجنة هنالك ، وقد اعتقد
رجالها آخر الامر ، وعندما نصب معينهم ، ان صقلية قد افلتت من ايديهم
نهائيا وان لا قبل لهم بمقاومة الرومانيين ، فلم تكد تخفق المحاولات النهائية
اليائسة التي قام بها القائد عيلكرض البرقي سنة ٢٤٢ قم : حتى انسحبت
قرطاجنة نهائيا من تلك الجزيرة بعد تدخل واستيلاء داما ٢٧٤ عاما ، وانتهى
بذلك أمر الحرب البونيقية الاولى .

لقد كانت هذه الحرب اكبر اسباب انهيار قرطاجنة فيما بعد ، اذ فقدت
فيها تباغا زهرة رجالها ، وخيرة قوادها واكثر معداتها ومدخراتها ؛ كما
كانت هذه الحرب ايضا اول اشراق ليدرومة الذي ازداد فيما بعد - طيلة
قرون عديدة - نموا ولعانا .

الحكم الروماني - أصبحت الجزيرة يومئذ من مستلكات روما ، تابعة لها
في حياتها الادارية والاقتصادية ؛ واصبح تاريخها في ذلك العهد جزءا من
تاريخ الامبراطورية الرومانية عدة قرون ؛ شاركت فيها نمو الامبراطورية
وصعودها اوج القمة ؛ وشاركت فيها اتجارها في مهاوى الانحطاط والانهلال
شاركت صقلية روما في حروبها الداخلية الفتاكة ، فبالها من جراء ذلك
خراب كبير ؛ وعلى الاخص بعد تلك الفتنة الوحشية انقضية ؛ فتنة

اوكتافىوس وبومباى : حيث خربت المعالم وخطمت المدن ، وعمت النكبة سائر اصقاع البلاد ، حتى اضطر امبراطور اغسطس لاعادة بناء مدنها وتعميرها من جديد بواسطة جموع من الرومان والافاقيين والعبيد .

وقد كان كبار المستعمرين الرومانيين يرسلون الى الجزيرة زرافات من العبيد يعملون هنالك كالانعام لفائدة السادة ، وكانوا يعاملون معاملة هي الوحشية بعينها ، رمت بهم الى احضان الثورة العنيفة مرارا ؛ فكانت ثورات العبيد الفتاكة ضد سادتهم ، سنوات ١٣٩ و ١٠٤ ق م و ٢٥٩ بعده ؛ من اكبر نكبات الجزيرة اثناء الاحتلال الرومانى .

وعندما انقسمت الامبراطورية الرومانية شطرين : بيزنطية شرقية ، ورومانية غربية ؛ كانت صقلية من نصيب الرومانيين ونالها ما نالهم فى عصر الانحطاط والاضطراب ، من فتن فى الداخل ؛ وتدهور فى الاخلاق ، وانحطاط فى النفوس ، واخيرا السقوط تحت ضربات الشماليين ؛ الذين كانوا يدعونهم يومئذ « الباربار » اى الوحشيين .

صقلية الرومية - عندما استقرت قدم الوندال بالشمال الافريقى ؛ وتسفوا باعانة البربر فى سنوات قليلة كسل معالم الرومانيين بهذه الارض ما دية كانت او معنوية ؛ احابتهم ممن سبقهم بقرطاجنة عدوى الفتح والتوسع ، فتوجهوا صوب صقلية ايام عاهلهم العظيم جنسريق ، واستحوذوا عليها دون عناء كبير واتخذوها مركزا لغزواتهم ضد ايطاليا وما حولها .

لكن ايام الونداليين لم تطل كثيرا هنالك ؛ حيث ان الروم البيزنطيين اعبادوا الكرة عليها ، واستخلصها القائد بليزار من ايديهم نهائيا سنة ٥٣٠ م (١) ، واصبحت منذ ذلك العهد ، ولدة ثلاثمائة سنة ، قطعة من الارض البيزنطية ، اصابها اثماء ما اصاب بقية الارض الرومية ، وخاصة الشمال الافريقى ، من فتن واضطراب ، وفساد فى الادارة ، وفتن ودشائس ؛ حيث اصبحت الرشوة هى القانون انعام الذى يخضع له الموظفون واصحاب السلطة والنفوذ ؛ فما ترك الروم الجزيرة الا وهى اشبه شىء بالخراب البلقع ، وذلك سنة ٨٢٧ م .

صقلية الإسلامية - توطدت سلطان المسلمين بالبلاد حسبما سيأتى تفصيله ، وتوالت على الجزيرة وفود العرب والبربر ؛ للفتح والسكنى والاستعمار ، فبنوا فيها القرى والدساكر ، وعمرؤا بساتينها ، وأحيوا حقولها ، وأسسوا المدارس والمساجد ، وأنشأوا بها صناعات كانت يومئذ مجهولة فى أوروبا ، وادخلوا فيها كما رأيت فى القسم الجغرافى ؛ أشجار الزيتون ولنخيل والليمون ولبرتقال وقصب السكر ؛ ثم تركوها جنة يانعة ؛ حسبما سيمر بك فى آخر الكتاب ، رغبا عما كان يقع بينهم من فتن دامية واضطرابات ، ورغم الوقائع الحسرية التى كانت مسترسلة بينهم وبين المسيحيين دون انقطاع .

ولقد حكم المسلمون صقلية ، غازين فاتحين مدنيين ، مدة ٢٢٣ عاما عنها ، فكانوا طيلة عهد النرمان ، هم الذين يديرون الملك ويديرون شؤون السياسة ، ويعمرون قصور الامراء ودور العلم ، ويشيدون المعالم والمعاهد ؛ هجرية (٢٢٤ عاما ميلادية) من سنة ٢١٧ الى ٤٥٠ هـ.ج. ومن سنة ٨٣٢ الى سنة ١٠٥٦ م .

الا ان نفوذهم بقى عظيما قويا فى الجزيرة ، بعد ان تقلص سلطانهم والمعاهد فكانوا يومئذ يشتركون فى حكم الجزيرة اشتراكا فعليا ، حتى انه ليكاد يتقرر بان الزهى وازهر عصور المسلمين فى صقلية انما هو العصر الذى عملوا فيه اعمالهم التمدينية الباهرة تحت سلطة امراء النرمان .

ولقد اتخذ اولئك الامراء الشماليون ، وكانوا حديثى عهد بالمدينة ، نيرة ملوك المسلمين ، فلبسوا لباسهم ، وتعلموا باخلاقهم ، وسكنوا مساكنهم ، واستعملوا فى دواوينهم لغتهم العربية ، فكانت الدولة يومئذ

(١) بعد اربعين عاما ، سنة ٥٧١م اذعان العالم بازدياد نسبة البشر محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم بمكة المكرمة ؛ اتمام حكم كثرى أبو شروان بالفرس ، حينما كان ابنه ملك الحبشة . صاحب الليل ، يحاول فتح مكة لتخظيم الكعبة ، فدمره الله شر تدمير ، وللبيت رب يحميه .

دولة نرمانية اسلامية ، ودامت الحالة على ما ذكرنا سائرة لا محالة في طريق الضعف والانحطاط والتدلى طيلة ١٩٣ عاما ؛ الى ان طغى سلطان التعصب الدينى . فأخرج الامبراطور افريدريك الألماني المسلمين عامة من الجزيرة وانزلهم بالسواحل الأفريقية ؛ وبقيت منهم بقايا بالبلاد تنصرت او ماتت هما وكندا .

وهكذا اقام المسلمون من اهل الشمال الافريقى بالارض الصقلية بين حاكمين ، ومشاركين فى الحكم ، ومحكومين ٤٢٦ عاما : تفصيلها بالتاريخ الهجرى :

مدة الحكم الاسلامى (٢١٧ - ٤٥٠) ٢٣٣ سنة

مدة الحكم النرمانى (٤٥٠ - ٦٤٣) ١٩٣ سنة

النرمان - النرمان ، واسمهم مشتق من كلمة نور Nord اى الشمال قوم انحدروا من اعالي اوروبا ، وخاصة من قطرى النرويج والدانمارك . نحو جنوب تلك القارة وشرقها . فاغاروا خلال القرن التاسع الميلادى على بلاد الشرق الاوروبى وكانت تلك الطائفة المغيرة منهم تدعى « روس » فتوطنوا السهول حوالى نهر « دنيابر » وعمرؤا مدن سمولنسك وكييف وغيرها من شهيرات المدن التى سارت بذكرها الركبان خلال الحرب العالمية الثانية ، ثم توغلوا فى الارض ميممين شطر الجنوب الشرقى . فقتلهم امبراطورية بيزنطة ، حتى وقفوا تحت جدران القسطنطينية ، ثم رجعوا عنها خائبين ، وثبتت اقدمهم بالشرق الاوروبى ، فاصبحت البلاد هنالك تدعى باسمهم « روسيا » .

ولقد كان لقامهم بالغرب الاوروبى ، عا كان لقامهم بالشرق من اثر كبير ؛ فانهم كانوا يتدفقون نحو الغرب فى جماعات متوالية ، قليلة العدد ، يركبون مراكب خفيفة سريعة ، يلقون مرساها عند مصب الانهر الفرنسية الكبرى ؛ وخاصة نهر السين ، وهناك كانوا يطلقون لعواطفهم الوحشية العنان من نهب وسلب ، وتخريب معالم ، وهتك حرمت ، لا يراعون فى مخلوق الا ولاذمة ؛ وابتدا ذلك الخطب الوبيل حوالى سنة ٨٠٠ ، عند ما كان الامبراطور

شارلمان يتولى امر امبراطوريته الغربية . وعند ما كان ابراهيم بن الاغلب
يؤسس في افريقيا دولته المستقلة ، ضمن دائرة الخلافة العباسية .

واما ملك الانكليز الفريد الكبير ، فقد اوقف تيار هجرة النورمانيين الى
بلاده بواسطة معاهدة عقدها مع كبرائهم ، بدل في سبيل تحقيقها غالى الثمن ،
واشترى بواسطتها راحة بلاد الانكليز الى حين .

اما شارل الاصليح ملك فرنسا ، فقد اخذ يحدو حذو الانكليز ،
ويشترى بالثمن انفاجش مرة بعد اخرى ، انسحاب النورمانيين من بلاده .
ولقد نقضوا مرة العهد ، وضيقوا على مدينة باريس الحصار ، فلم ير شارل
السمين ، ملك فرنسا يومئذ بدا من بذل ثمن لانسحابهم لم يرو لنا التاريخ
مثلا له في خطته وذنائه : سمح لهم بمقابل فك الحصار عن باريس بنهب
مقاطعة برغونيا الغنية الزاهرة . ولا تسئل عما وقع هنالك من فظائع واهوال
ووحشية تقشعر لذكرها الجلود (١) .

واخيرا تعاقد معهم نهائيا ملك فرنسا شارل البسيط ، فاقطعهم الناحية
الشمالية الغربية بفرنسا ؛ على ضفاف بحر المانش ، وهي التي اتخذت منذ
تلك الساعة اسمهم فاصبحت تدعى « فرمنديا » وهي اليوم من ازهر وابدع
جهاث فرنسا ، وفي مقابل ذلك اعترف اميرهم رولون بالثبعية لملك فرنسا ،
فتأقلموا في البلاد وانتهى امر عدوانهم .

(١) كان من نتائج اعمال النورمان بالبلاد الفرنسية ، ان انتظمت بها حياة « البنادة » الاقطاعيين ؛
واصبح لهم الطغوذ المطلق بالبلاد ؛ حيث ان عامة الشعب لم تكن قادرة على الدفاع عن نفسها ؛
فاخذ الاغنياء ، ينشئون القصور المحصنة ويحيطونها بالاسوار المنبسة والجناد القبيحة . وكلما
تم بناء قصر ؛ امتع جموع الشعب فسكنت حوله ، واحتضت به ، فكان سيد القصر يبدل حمايته
لذلك الجنوع ويقودها في الحرب مقابل اطاعتها له وادعائها لأوامره . وازدادت تلك الطاعة مع
مرور الزمن حتى اصبحت غزوية مطلقة ؛ واصبح السيد يملك رقاب رعاياه ومتاعهم ، ومن
جملة حقوقه الدخول على كل امرأة عند زفافها قبل زوجها ؛ وتقاسم نفوذ هؤلاء السادة ، حتى
اصبحوا اشبه شئ بالملوك المستقلين ، ومنهم من لما سلطانه واستقل فعلا وبشر علاقته منع
الملك ، وامتلات القصور الوسطى بفظائع ووحشية هؤلاء السادة الهمج ، وكان لهم خلال
العنوان الصليبي على بلاد الاسلام شأن كبير .

الا ان الغرب غزواتهم وابعدها مدى واكبرها اثرا ؛ هي غزواتهم لجزيرة صقلية ، وغزواتهم بلاد الانكليز على يد غليوم الفاتح امير نرمنديا ، السلود بمدينة فاليز من مدنها التي لا تزال قائمة الجدران ؛ فانه قد اغار بجموعه على بلاد الانكليز سنة ١٠٦٦ وقتل ملكها في موقعة هاستينغ التي كانت اعظم انتصار تحصل عليه النورمان في تاريخهم ، فبايعه الانكليز ملكا عليهم في مدينة لندن ، واحاط عرشه بسياج متين من الاشراف والنبودات وكبار الامراء ؛ فطبع بلاد الانكليز بطابعه الخاص الذي لا يزال الى يومنا هذا موجودا ، رغم تطور الزمن .

اثناء هذه الحوادث كان فريق آخر من النورمان في الجنوب الاربوي ؛ قد وطدوا ملكهم على انقاض مستلكات الاغريق بالبلاد الطليانية الجنوبية ، وفي سنة ١٠٦١ اجتاز احد ملوكهم روجي (رجار) مضيق مسينا ، ووضع قدمه فوق الارض الصقلية لمحاربة المسلمين واقتضاء على ملكهم هنالك ، فنشبت بين الفريقين حرب عوان استمرت ثلاثين سنة ، وانتهت عام ١٠٩٦ (١) بتحطيم آخر مقاومة حربية اسلامية ؛ وقد كان حينئذ الامير رويسر ، شقيق الملك رجار ؛ قد مد سلطانه في ايطاليا شمالا حتى مدينة نابولي .

تولى الملك في صقلية سنة ١١٠١ ، الملك رجار الثاني الحكيم ، وكان في اعماله وفي تصرفاته ملكا اسلاميا ، نالت الجزيرة في عهده ارج عازها ومنتهى

(١) من غرائب القصد ، ان تاريخ انتهاء آخر مقاومة اسلامية بصقلية كان تاريخ ابتداء تلك الحملة الصغواء الهائلة ، التي شنتها المسيحية على الاسلام ؛ والتي تفرق بالحروب الصليبية ، فقام المسيحيون في كامل البلاد الاربوية يحدوهم التعصب الاعى تحت تأثير بطرس الراسب ؛ والبابا اوريانوس الثاني ، وكانت نتيجة الحملة الاولى من هذه الحرب الوحشية ، اختلال بيت القدس سنة ١٠٩٩ ؛ وكان المسلمون قد التجأوا الى مسجدها الاعظم عندها اندحر جيشهم المذاب من اخطاط الترك والعرب ؛ فاقبض الصليبيون المسجد ، وذبخوا فيه وفيما حواله سبعين الفا من المسلمين ، ويقول التاريخ ان الدماء كانت تسيل يومئذ كاللاودية بين الازقة والطرق . وقد استرجع البطل الاسلامي صلاح الدين الاربوي بيت القدس من الصليبيين سنة ١١٨٧ ؛ واندحر ملك فرنسا لويز التاسع تحت جدران فرطاجنة ، وتعت ضربات المستنصر بالله الحفي سنة ١٢٧٠ ، وسنة ١٢٩١ سقطت آخر معاقل الصغرى في بلاد الشام بايدي المسلمين ، وبذلك انتهت الممابع الصليبية التي لطخت ارض الشرق بالدماء ما يقرب من مائتي عام في ثمان حملات .

سيؤددها ، ونال من البابا ١١٣٠ لقب ملك « الصقليتين » .

مملكة الصقليتين - كانت هذه المملكة تشمل صقلية ، وجنوب البلاد الطليانية الى شمال مدينة نابولي ، ولقد فقدت صقلية بتأسيس هذه المملكة كيانها الذاتي ، واصبح تاريخها مرتبطا بتاريخ البلاد انطليانية .
لقد كان ازهر عصر من عصور هذه المملكة الفنية الناشئة هو عصر الملك ريجار الثاني الأنف الذكر ، وكان قد وطد دعائم ملكه على كواهل المسلمين وعلى سواعدهم وأسس بواسطتهم المدارس الكثيرة العالية التي بثت علوم المسلمين في كل انحاء ايطاليا ، وبقيت البلاد الاروبية ، وكانت عن حق اساس النهضة الاروبية الحديثة .

الحكم الجرمانى - لكن صقلية النورمانية الاسلامية سقطت سنة ١١٩٤ تحت سيطرة اباطرة المانيا من عائلة السواب الجرمانية ، واصبحت قسما من تلك الامبراطورية التي تخضع عن كره منها لسلطان الجرمانيين . ومن اشهر اباطرة هذه الدولة افرديريك الثانى ، فقد اعاد تنظيم الدولة وأسس لها مؤسسات حديثة جريئة ، فجعل منها اهم دولة اوروبية فى عصره (١٢٢٢ - ١٢٥٠) وكان بلاطه الملكى فى بالرمة بفضل اتعرب اشهر بلاط فى بلاد اروبا ، وقد عمر الدولة مدارس ومعالم ، واخطت المدن والقرى وأكثر العمران ، وكان ميالا للعلوم والفنون والآداب ؛ وسأتيك شىء من تفصيل حياته الغربية .

اخراج المسلمين - الا انه الى جانب ذلك ، جنى جناية على صقلية قاست - ولا تزال تقاسى - من جرائم الامرين ؛ ذلك انه بعد سيرته الحسنة الطويلة مع المسلمين ، اراد ان يوحدتها فى المسيحية ؛ وان يخرج منها الطائفة الاسلامية القليلة التي بقيت بها فاركب جميع المسلمين البحر ؛ واجتاز بهم الى الارض الافريقية ؛ ففقدت البلاد بذلك اذكى عناصرها واشدهم عملا واكثرهم مدنية ؛ (١) واكبر دليل على ذلك ، هو ان الدولة اخذت فى الانحطاط والتدنى عندما تم ذلك الحادث الجلل ؛ واخذت او صالها تتفكك ، وتطاول الادعاء عليها فانهار بنيانها ، واغتنم البابا كليمن الرابع فرصة ذلك الانهيار سيؤددها ، ونال من البابا سنة ١١٣٠ لقب « الصقليتين » .

فافتك الدولة من ايدى الترمان والشواب ؛ ونصب على مملكة الصقليتين الامير الفرنسي شبارل دانجو شقيق الملك لويس التاسع ، المعروف باسم القديس لويس الذى حارب المستنصر بالله الحفصى فى الحملة الصليبية واهلكه الطاعون تحت جدران قرطاجنة تونس .

وانه لمن رائب الاقدار ، ان دولة الترمانيين ما عاشت فى صقلية ، الا ما دامت معتمدة على جماعات المسلمين الذين افكتك البلاد منهم ؛ فلما اخراجتهم من البلاد انهار ملكها ودالت دولتها .

مذابح صقلية - كان عهد الفرنسيين بمملكة الصقليتين عهدا ثقيلا ظل غير مرغوب فيه . فالملك شارل ابتدا امره جاهلا عادات البلاد وتقاليدها ، فخرج احساس القوم ، وانقل الضرائب بصفة فاحشة ، واخذ يسجود ظلما وعدوانا على املاك الرعايا ويوزعها على رفاقائه الفرنسيين . فكانت نتائج كل ذلك ان عمد اهل المملكة الى السلاح ؛ وقاموا ثائرين فى وجه الطاغية الظالم وانصاره . وتلك الثورة تعرف فى التاريخ باسم (صلاة العصر الصقلية) *Vepres Sicilienne* : ذلك

لأنها انفجرت يوم عيد الفصح فى سنة ١٢٨٢ (١) وكانت العلامة المتفق عليها بين الثائرين هى قسرع نواقيس الكنائس اىذانا بصلاة العصر المسيحية ؛ فانقض الصقليون على الافرنسيين وقتلوهم حيثما تقفونهم ؛ وعلى الاخص فى مدينة باليرمة حيث لم ينج من الفرنسيين الا فارسان اثنان ؛ وكانت مذبحة من افطع واقسى ما رواه لنا التاريخ . وكان الزعيم يوحنا دى ابروتشيدا هو الذى تسولى كبر الثورة واشرف على تنظيمها . واصبحت كلمة « صلاة العصر الصقلية » تطلق فى الادب على كل مؤامرة تنتهى بمذبحة عامة .

دام الاضطراب بعد ذلك فى كل جهات الجزيرة ، وعم بها الحراب

(١) واقتدى به من بعد ملوك اسبانيا ، بعد سقوط غرناطة ؛ فابعثوا المسلمين كافة (ثلاثة ملايين) خلال قرن ونصف . وقضوا بذلك على العلم والعمران واقنعوا البلاد فى هذة الجهل والحراب .

والدمار ، فاستتجد الصقليون عائلة ارغون الحاكمة في بلاد الشرق
الاسباني (٢) ، فانجدهم ضد الفرنسيين ، الذين ثبتوا في الجنوب الايطالي ،
وكان خلفاء الملك شارل الفرنسي يتخبطون في دياجير الدسائس والفتن
والاضطراب ، وذابت صقلية بعض الراحة تحت حكم الاسبانيين .

الحكم الاسباني - ورث ملوك قشتالة الاسبانيون ، عائلة ارغون فيما
كانت تحكمه من الارض ، وذلك اثر انقراضها ، فنصبوا سلطانهم على اديم
الارض الصقلية منذ سنة ١٤١٢ (٣) ثم استتب لهم الامر بالجنوب الايطالي ،
فمحقوا خيال الحكم الفرنسي فيه : واعادوا تأسيس مملكة الصقليتين كما
كانت اول مرة ، (١) وكان الفرنسيون يوالون محاولاتهم وتدخلهم مفسدين
على البلاد راحتها ، فعادت الفتن والاضطرابات من جديد ولطخت الدماء
الارض ، ودام ذلك الفساد نحو من تسعين سنة ، سادت فيها الظلمات
ارض الجزيرة وانبعث منها معالم المدينة التي شاهدها المسلمون هنالك
والنورمانيون .

ما صفا الجو للحكام الاسبانيين في مملكة الصقليين ، وما قضوا على
آثار الاضطراب القديم الا حوالى سنة ١٥٠٣ ، ودام ذلك الحال في صفو
نسبي خلال مائتي عام : انقضت اثناءها دولة النمسا في محاولة نصب
سلطانها على الجزيرة ، وما كانت ايام الحكم الاسباني الا ايام ظلمات لم يقع
اثناءها اى اصلاح رغم بعض محاولات فاشلة حاولتها بعض ملوك البربون .

(١) سنة ١٢٩٩ ، استقل الامير عثمان التركي في قطعة من بلاد آسيا الصغرى وانشأ على
انقاض المملكة النجوقية الواحية ، السلطنة العثمانية الكبرى التي شملت كامل التاريخ
الحديث الى سنة ١٩٢٢ .

(٢) وقع ذلك بمدينة « القالة » على الساحل الشرقى الجزائرى ، حيث قام الاسبان باول محاولة
لاستعمار القرب الاوسط ، في القرن الثالث عشر .

(٣) في هذه السنة اعاد السلطان محمد الاول العثماني بناء السلطنة العثمانية بعد ان جرد
اركانها الطاغية الترى تيمور لك ، في واقعة ابقرة الشهيرة سنة ١٤٠٣ ، حيث سقط المجاهد
العظيم بايزيد الاول اسيرا ، وتنازع اولاده الامر بعده مدة عشرة اعوام .

الجمهورية - انبثق فجر الثورة الكبرى سنة ١٧٨٩ ، فالتهبت نيران الافكار الجديدة ؛ وسرى تيارها فى مختلف البلاد ، وهب جماعة من الصقليين تحت زعامة شامبيونى ، شيخ مدينة نابولى ، واعلنوا اعتناقهم تلك المبادئ السامية الخلافة ، مبادئ اعلان حقوق الانسان ، والتساوى بين عامة البشر ؛ وان لا حكم فى بلاد الا لامة ؛ ثم نادوا بتأسيس الجمهورية الشعبية الحرة .
انما حركة الرجعيين كانت قوية عنيفة ؛ اذ جمع رجال الطغيان من رهبان الكنائس ، امراء الاقطاع ، ورؤساء الطوائف ، امرهم ضد حركة الشعب ؛ اذ ايقنوا ان الثورة الجمهورية تذهب باموالهم وبعيبتهم وبامتيازاتهم الفاضحة ، فتحزبوا زمرا واشتروا باموالهم جماعة من اللصيف والرعاع يخربون بيوتهم بايديهم ، وصادموا الجمهورية الفتية فنسفوها وارجعوا الملك فرديناند الى عرشه مؤيدا من قبل الاميرال الانكليزى الشهير نلسون ، عدو فرنسا الالذ ومحطم اسطول بوناپرت ؛ فامعن الملك البطش بالجمهوريين ، وارفع سيف الطغيان فوق هاماتهم ، فاسقط منها ما يزيد عن العشرة آلاف راس ، وسجن منهم نحو الثلاثين الفا وتفى من الارض حوالى السبعة آلاف نسمة . تلك كانت اكبر تكتبات صقلية فى العصر الحديث .

بوناپرت - تدخل نابليون بوناپرت فى المسألة الصقلية الطليانية ؛ وكاد يصبح يومئذ صاحب الحكم المطلق فى الغرب الاروبى ؛ فاعلن خلص العائلة الاسبانية التى تم يبق بين يدها سوى صقلية وحدها ، ونصب شقيقه جوزاف ملكا على دوتة نابولى ؛ ولقد حاول ملك نابولى الجديد الاجتياز الى صقلية ونصب سلطانه عليها الا ان الاسبانيين دحروه عند كل محاولة ؛ فكانت مملكة نابولى تحت امرة بوناپرت تزدهر وتنمو ، وتتفشى فيها افكار الثورة

(١) خلال هذه الحوادث فى ٣٩ من شهر مائة سنة ١٤٥٣ ، وقع الحادث التاريخى الجسيم ؛ استيلاء السلطان العثمانى محمد الفاتح - قنسى الله روحه - على مدينة القسطنطينية العظمى . ودخل الاسلام اوروبا من جهة الشرق واستقر بها راسخا متينا الى يومنا هذا والى ان يرب الله الارض ومن عليها . وقد اقلق المؤرخون على اعتبار هذا الحادث نهاية القرون الوسطى وابدا التاريخ المعاصر الحديث . وبعد اربعين سنة من ذلك ، اى سنة ١٤٩٣ ، سقطت مدينة غرناطة بايدى الاسبان ، وانقرضت بذلك دولة الاندلس الزاهرة .

الفرنسية . بينما كانت بلاد صقلية تحت امرة الاسبان خاضعة لسلطان الضلال . لكن ايام جوزاف بوناپرت لم تدم بمملكة نابولي طويلا ، فاندحار شقيقه نابوليون والسحابة مرغما من ميدان السياسة الاوروبية قد جعل عرشه واهى الاركان وما اغنت عنه محاولة استمالة الاعداء ولا الاستنجاد بالنمساويين شيئا ؛ ونادى بتوحيد الطليانيين تحت زعامته فذهبت جهوده ادراج الرياح ، وانتهى امره بان اعدم رميا بالرصاص سنة ١٨١٥ (١) فاجتاز فردناند ملك صقلية الى الارض الطليانية واعاد « مملكة الصقلتين » سيرتها الاولى ، وأرجع لأصحاب الكنيسة وزجال الاقطاع كل حقوقهم القديمة .

انما الشعب كان قد افاق من غفلته وتشبع بالافكار الحديثة ، وقد تركت فكرة الجمهورية في نفسه اثرا ، فسادت جمعية « الكاربوناري » اي الفحاميين السرية ، واخذت تفتك بالظالمين وتبطلش بالمتجبرين ؛ وكانت نتيجة هذه الحركة ان ارغم الملك فرديناند سنة ١٨٢٠ على اعلان الدستور ، واجتمع البرلمان التشريعي لأول مرة في مدينة نابولي .

عهد الظلمات - اغتتم الملك الطاغية فرصة انعقاد مؤتمر لايباخ ؛ فخرج من مملكته وذهب يستنجد دولة النمسا ضد رجال الحرية من قومه الذين ارغموه مكرها على اعلان الدستور ؛ وكانت امبراطورية النمسا مهد الرجعية ومعقل المستبدين ، فامدته بجند كثيف دخل على رأسه محاربيا جنود الحرية فدمروهم ؛ واعلن حكم الاطلاق من جديد ، وارسل الى الموت والى التعذيب ويطون السفن للتجذيف آلافا مؤلفة من الرجال الاحرار ؛ ودامت الحالة بشيخة

(١) كان السلطان محمود الثانى العثمانى يقاسى ازمة عنيفة من جراء الثورة الوهابية ببلاد العرب ، التى اخمدتها بشدة طوسون بن محمد على والى مصر (سنة ١٨١٣) ؛ ثم ثورة بلاد البانيا . وقد حاول السلطان ادخال الاملاجات الحديثة لبلاد السلطنة ؛ واعد فرقا الانكشارية الطاغية ، وانشأ الجند الحديث ؛ الا ان ثورة محمد على باشا فى مصر واقتحامه بلاد السلطنة حتى قونية ؛ وحرب اليونان ؛ وتحزب فرنسا وانكلترا وروسيا ضد تركيا ؛ تحطيم الاسطول الاسلامى فى معركة نوارين (١٨٢٧) قد جعلت السلطان يخفق فى كل اعماله ؛ واخذ تدهور السلطنة العثمانية يتساقم امره تحت معاول اوروبا ، وبمساعدة سائير العناصر المسيحية فى البلاد .

دامية طيلة ايام هذا الطاغية السافل ، وايام ابنه الذي خلفه في الحكم فرانسوا الاول (١٨٢٥ - ١٨٣٠) (١) وكذلك ايام فرديناند الثاني بن فرانسوا الاول ، اذ سار على غرار ابيه وجده في محاربة الحرية والاحرار ، وبطش بطش الجبار بمحاولة دستورية قام بها رجال صقلية سنة ١٨٣١ - ١٨٣٧ : قمع حركتهم وشتت شملهم .

انما - هل يلد هذا الضغط العنيف المستمر سوى الانفجار الهائل المدوي ؟ فكانت نتيجة هذا الطغيان الجائر ان ثار اهل صقلية ثورة عنيفة منظمة هائلة سنة ١٨٤٨ (٢) وعمت تلك الثورة سائر جهات الجزيرة ، واعلنت خلع الملوك الاسبانيين واستمرت الحرب سجالا ؛ وقطاعتها متوالية ؛ وخواباتها عامة الى ان توطد لامد قصير سلطان الملك الظالم .

غاريبالدی - ما مآل الظالمين الا السقوط والانهيار ، فان رجال الثورة الاحرار هبوا من جديد يحدوهم الامل في نسف قلاع الاستبداد ؛ ويستشهد بين ايديهم قوم ذاقوا نير الجور ، وفظاعة الاستعباد ومرارة التنكيل والاضهاد . ولقد كان على رأس الثائرين هذه المرة زعيم له صفات تؤهله لقيادة الشعب في طريق الحرية ، هو غاريبالدی الشهير ، قدس الثائرون الاحرار جنود الملك فرانسوا الثاني ، حتى الجأوه لفرار صحبة آله وذويه .

وكانت ايطاليا يومئذ قد وجدت صفوفها وجمعت كلبتها تحت امره الملك فيكتور عمانويل الاول ؛ واصبحت بفضل سياسيتها الاكبر « كافور »

(١) كان يتولى ملك فرنسا يوفند الطاغية الظالم شارل العاشر ؛ فامعن في غنى الحرية وضيق على الناس ، حتى اخفت بؤادر الثورة تظهر ، فاراد ان يشغلهم بحرب خارجية عله بواسطة انتصار حربي يستطیع الشيات ؛ فارسل جنده وعمارة قويتين هاجمتا واحتلتا مدينة الجزائر (٥ يولية عام ١٨٣٠) بعد مقاومة عنيفة . تكن ذلك النصر لم يفن عنه شيئا ، وثار الشعب الطالب للحرية ثورة عنيفة في ثلاثة ايام يدعوها التاريخ « الثلاثة المأجدة » وذلك بعد اربعين يوما من احتلال الجزائر ؛ واضطر الملك الطاغية للتنازل عن العرش .

(٢) في ٢٢ فيفري من هذه السنة استقل الجمهوريون والاحرار الفرنسيون آخر ملك من ملوك فرنسا ؛ لويز فيليب ، واسسوا الجمهورية الثانية التي ما عمت ان اصبحت « الامبراطورية الثانية » حيث اعلن رئيس الجمهورية . نظرا لخلافات الامة وكثرة شقاقها ارجع امبراطورية نابليون ؛ واطلق على نفسه اسم نابليون الثالث .

دولة فتية ، فامدت الثوار الغاربيالديين بصقلية وساعدتهم على التخلص من الطاغية ، وبثت في البلاد دعاية نشيطة في سبيل الانضمام للوحدة الطليانية ، ففي اكتوبر سنة ١٨٦١ ، اى بعد انهيار الملك فرانسوا بنحو الثمانية اشهر ، وقع في صقلية استفتاء شعبي كانت نتيجته اعلان صقلية ارادتها في الانضمام للوحدة الطليانية .

الحكم الطلياني - انما لم تكن صقلية سعيدة الحظ في وقت من الاوقات وهي قابعة تحت السيادة الطليانية الجديدة . فالضرائب الثقيلة والاتاوت الباهضة حطمت جهود الشعب ، واضطرت له لاعتلان الثورة مرارا ، وخاصة سنة ١٨٩٣ ، حيث هاجم الثوار مراكز جمع الضرائب واقدوا فيها النيران؛ ثم تكلمت بهم الحكومة الطليانية تنكيلا ذريعا ، وغدت صقلية ولاية من ولايات ايطاليا يخيم عليها الجهل كما يخيم على ولايات كلابرا وبلاد الجنوب الطلياني؛ وضاعت على الصقليين الارض بما رحبت ، فلبجأوا الى الهجرة افواجا نحو البلاد التونسية او اميركا الجنوبية وغيرها من البلاد ، وشارك الصقليون الطليانيين في اعتدائهم الاول على بلاد النجاشي منليك امبراطور الحبشة ، ذلك الاعتداء الذي انتهى بكارثة « عدوة » المخجلة ؛ كما شاركوهم في اعتدائهم الاثيم على ولايتي طرابلس وبرقة العثمانيتين وما وقع خلال ذلك من فظائع ومنكرا ب . وشاركوهم في الحرب العامة الاولى ، وفي الاعتداء الثاني على بلاد الحبشة ، وفي الحرب الاثيمة العالمية الثانية .

انما لم تنل صقلية اثناء كل ذلك ، سواء خلال الحكم الدستوري او الحكم الفاشيستي ، اى اصلاح جوهري يغير نظامها الاقتصادي الاقطاعي ويجعل للفلاح وللعامل فيها مركزا اجتماعيا معقولا بتمكين الاول من الارض وتثبيت الثاني في المصنع ، فكان الصقليون يتأفقون من الحكم الطلياني انما يعجزون عن خلع نيرة والثورة في وجهه .

فعندما حطمت الجنود الحليفة قوى الالمان والاطليان بالبلاد التونسية سنة ١٩٤٣ واجتازوا الى صقلية يقتفون فيها خطى الالمان واطليان ، لم يبد الصقليون ادنى مقاومة ، بل تقبلوا الفاتحين باذرع مفتوحة وصدور رحبة ؛ كأنهم املوا منهم اخراجهم من نير الاستبداد وريقة الاستعباد . وما كاد ينهار الحكم الفاشيستي البغيض في ايطاليا حتى ابتدأ رجال صقلية الاحرار يفكرون في مستقبل بلادهم ، ويرجون الاحراز على استقلال ادارى واسع النطاق ان لم يتحصلوا على الاستقلال التام ، حتى يتمكنوا من فتح عهد جديد للجزيرة يعيد لها سالف مجدها وسؤدها ايام المسلمين والترمان .

وحركتهم هذه سائرة في طريق النجاح ، اذ اعترفت الحكومة الطليانية لهم في اكتوبر ١٩٤٤ ، بامتيازات مركزية عديدة ؛ وقع توسيعها في العشرين من نوفمبر ١٩٤٥ حتى اصبحت شبه استقلال داخلي .

وان جينا للحرية يجعلنا نتمنى لهذا الشعب المسكين الذي ذاق مرارة الاضطهاد قرونا مديدة ، واندى تربطنا به ذكريات عديدة ، عهدا جديدا كله حرية وسعادة ومحق لنظام الاقطاع وسيطرة الكبراء وتحقيق لعزير الآمال .

واننا بهذه المناسبة لنقول في كل صراحة وعلى رؤوس الملاء انه حينها ان يستقر في العالم السلام وان تنتهى الشحنة والاحن والحروب بين الامم ما لم تنل سائر الشعوب حريتها التامة واستقلالها ، سواء قويا وضعفها كبيرا وصغيرها وان تغدو العلاقات بين الامم علاقات صداقة وتعاون في ميادين الثقافة والاقتصاد وتبادل المصالح لا علاقات فتح واستعمار وقضاء على حرية وكرامة وحياة الشعوب .

القسم الثالث

امهات المدن والقرى بصقلية

ومعالمها آثارها

بالرمة

من امهات المدن قديما وحديثا ؛ ومن اجل واجمل الحواضر في كل الاقطار والامصار ؛ جمال في المناظر ، واعتدال في الطقس ، ومياه دافقة ، وحدائق وخمائل ، ومروج وبساتين ، وقصور شاهقة ، ودور فسيحة الرحاب ، وآثار باقية مما تركه السلف للخلف .

كان اسمها اليوناني « باترموس » وكانت مدينة كنعانية قرطاجنية حسا ومعنى ؛ ولقد رأينا في المقدمة التاريخية مدى ما بذلته قرطاجنة من جهد عنيف للاحتفاظ بالجزيرة وجوهرتها الفريدة . لكن بالرمة وقد اسحوذت عليها روما لعدة قرون ، قد احتفظت بمركزها الممتاز واصبحت من المع دور التاج الروماني . انما قد بلغت بالرمة اوج عزتها وسدرة منتهى رونقها وبهاثها ، عندما اتخذت منها الامراء المسلمون ثم ملوك بني المحسن ، عاصمة ملكهم ؛ واصبحت مركزا من اهم مراكز الحضارة والنور بالبحر المتوسط ، وارتفعت بتجارتها وصناعاتها وعلومها الى مصاف عواصم الاسلام الكبرى .

يسكن هذه المدينة اليوم نحو من ٥٠٠ ٠٠٠ نسمة ؛ حول مرسى هو من اهم مراسى ايطاليا . وقسمه القديم يدعى الى يومنا هذا « القلعة » la Cole على مقربة من آثار القصر العربي القديم « قصر الصبارة » Castellammare ولم تبق حداثات الايام والحروب المتوالية على كثير من آثار الكنعانيين القرطاجنيين ، ولا من آثار الرومان والعهد الاسلامي ، الا ان آثار النرمانيين وهي من انشاء العرب قد بقيت قائمة الى يومنا هذا شاهدة بعظمة وحسن ذوق منشئها . وفي بالرمة الحقيقة لا تزال حارات عديدة تحمل انطباع

الإفريقي على شكل مدتنا الإسلامية بهذا الشمال ، ولا تزال هنالك حارة تدعى «Alterini» كانت بلا ريب حارة أو سوق العطارين .

قصر الفوارة - هو من أهم آثار بالرمة الإسلامية ؛ ولقد ترمم بذكر مجاسته الشاعر عبد الرحمان بن أبي العباس حينما يقول :

فواره البحرين جامعة المني * عيش يطيب ومنظر يستعظم

يقع هذا القصر الشامخ الذرى فوق جزيرة تحيط بها بركة صناعية من جهات ثلاث ، ولقد شاده وبالع في زخرفته الأمير جعفر ؛ من ملوك بني الحسن ، فيما بين سنتي ٩٩٧ و ١٠١٩ ميلادية ، واتخذ منه هو وخلفاؤه من بعده مقرا للترف والتعظيم .

وعندما ضرب الدهر بضرباته وتحطم سلطان المسلمين هنالك ، أصبح قصر الفوارة مقر للهو واللعب والحلاعة لملوك النرمانيين ومن تبعهم ؛ ثم اخنى الدهر على هذا القصر عندما أصبحت الجزيرة العوبة بين ايدي الغاصبين من ملوك اوروبا فلم يبق منه اليوم الا الحرابيات وكنيسة صغيرة شادها المسلمون للملك رجار وبعض اقبية وغرف ؛ وحوالي القصر لا تزال ترى البناء الذي يحيط بالبركة الصناعية ليحبس بها الماء ، ولا تزال ترى الحنايا الإسلامية الثلاثة التي كان الماء يجلب عليها للبركة المذكورة .

قصر العزيز - ويدعوه الأوروبيون لازيزا La Ziza شاده ليتخذ منه مقرا للملكه وسلطانة . الملك غليام الاول فيما بين سنتي ١١٥٤ و ١١٦٦ م ، بواسطة مهندسين وبنائين ونقاشين من المسلمين فكان القصر آية من آيات الفن المصارى الاسلامي ، ولقد ابقت الايام على اكثره ، ولم يحل به ما حل بقصر الفوارة من التخريب ، وهنالك ما شئت من باهر الاقواس الهندسية وبديع النقوش الحلابة والكتابة الكوفية على النمط الهندسي حول الابواب والعقود ، وعيون جارية تغذى فواره في وسط البهو الأكبر ثم يتكون من ذلك سيل لطيف من الماء يخترق القاعة ثم يختفي تحت ابوابها .

قصر القبة - هو بناء على شاكلة قصر العزيز ، اتسم صنعة البنائون المسلمون حوالى سنة ١١٨٠ م . ولقد تحطم اكثره وياللاسف . ولم تبق الا بعض جدرانها وقاعاته قائمة ، تذكر الايام بما سلف لها من مجد . وعلى بعض الجدران ترى آثار الفسيفساء البديعة التنسيق . وكتابة على النمط الكوفى ذات جمال خلاب ، ونقوش مذهبة على قواعد الرخام . ومن اجل ما ابقت عليه عوادى الايام بهذا القصر قاعة القبة ، وهى حسبما يدل عليه اسمها قاعة فسيحة الارعاء تعلوها قبة منسقة بنقوش خلاصة من الرخام الصناعى .

الكنيسة الكاتدرائية الكبرى - هى من اهم بدائع الفن والجمال بالرمة شيدت سنة ١١٨٥ على يد صناع من المسلمين ؛ وكانت خليطا من الفن العربى والفن الغربى ، انما تغلبت عليها الصبغة العربية . على ان قسما منها شيد على انقاض مسجد جامع لا تزال هياكله على حالها تقريبا . وعلى ابوابها وبين اقواسها رسمت بالجص آيات من القرآن الكريم بالحظ الكوفى .

القصر الملكى - آية خالدة من آيات الفن والجمال . انشاء الملوك المسلمون فكان مقر الدولة والامارة . ثم استقر به ملوك التومان بعد ذلك ، فزادوا فى مساحته ، و اضافوا اليه بواسطة البنائين المسلمين اقساما اخرى . ولا يزال قائم الذات يذكر الحلف الغافل . بعظمة تاريخ السلف الحافل . ومن روائع ولا يزال قائم الذات يذكر الحلف الغافل ، بعظمة تاريخ السلف الحافل . ومن اقسام هذا القصر الملكى : الكنيسة الصغرى التى ابتناها العمال المسلمون بأمر ملك رجار الثانى ، فيما بين سنتى ١١٣٢ - ١١٤٠ ، فهى ذرة وضاعة وسط عقد الآثار الاسلامية الخلاصة . ومن ابداع ما يراه قاصدوا بالرمة ، تشد اليها رجال السائحين من كل قطر ؛ ومن اعرب ما يراه المشاهد هنالك سقف بديع الشكل يخلب الابصار ، وهندسة غريبة فى بناء الثوائف ، تكسب النور حينما ينعكس بعضه على بعض روثق الموسيقى وروعة الشعر الرقيق ، ولا سيبل للاطناب فى وصف ما هنالك من نقوش على الجص : (نقش جديدة) وفسيفساء خلاصة الالوان .

ومن جملة البدائع المحفوظة بهذه الكنيسة الفنية ضمن ذخايرها الفنية

صندوق من صنع المسلمين كله قطعة من عاج منقوش ؛ وعلى مقربة من القصر الملكي وكنيسته توجد كنيسة القديس يوحنا . وقد بناها الصناع المسلمون كذلك بإمر الملك رجار الثاني ؛ على النمط العربي الحاصل ، وضمن هذه الكنيسة يوجد مسجد اسلامي قديم دخل في صلب الكنيسة وبقي على حاله غير متناقض في هندسته مع ما اضيف اليه .

المتحف الكبير - من أجل ما يرى ايضا ببائرمه متحفها الاخرى الرائع الذي جمع فاعوى ؛ قيمة فنية كبرى ، وجمال عرض وبتدعيم تنسيق ؛ وفيه قاعة اسلامية عربية عرضت فيها بدائع ما تركه الصناع المسلمون هنالك من تحف نادرة وطرائف ثمينة من اواني وزخارف حديدية وبدائع من الخزف والبلور والرخام وغير ذلك من ادوات المنازل وكماليات الترف والنعيم . هذا علاوة على ما في المتحف المذكور من آثار الكنعانيين والقرطاجنيين ومن آثار الاغريق والرومان والثرمان وغيرهم .

وفي بالرمه ، دون ذلك ، عدة من متاحف اخرى تتعلق بالتاريخ الصقلي ؛ وفيها المكتبة البلدية التي تشمل ما يزيد عن مائتي الف مجلد ، منها نحو الثلاثة آلاف مخطوط .

ضواحي بالرمه - على نحو ستة اميال من بالرمه توجد مدينة القاموق الاسلامية الاصل والتي احتفظت باسمها فهي تدعى اليوم Alcamo وسكانها يتجاوزون الخمسين الفا ، وحاراتها القديمة تذكر بايام المسلمين ؛ وعلى نحو الخمسين ميلا من بالرمه توجد مدينة الزقاق ، وقد احتفظت باسمها كذلك فهي اليوم Siceca وهي من اهم المدن الاثرية الصقلية ، لا يزال اغلبها على حاله كما كان ايام دولة المسلمين ودولة الثرمان .

سِينَا

من اهم المدن الصقلية واجملها موقعا ؛ يسكنها اليوم ما يزيد عن نسمة ؛ ومرساها من اوسع مراسي البحر الابيض المتوسط واكثرها حركة ،

وتحيط المدينة بالمرسى في استدارة بديعة : حيث ترى عقدا ثميناً من القصور
 الحلابة الجمال يحيط بجيد حسناء فاتنة . لكن نكبة مؤلمة أصابت المدينة
 سنة ١٩٠٨ (٢٨ دسامبر) حيث اغتالها زلزال رهيب دام ٣٢ ثانية ، فحطمتها
 تحطيماً فظيعاً وقتك بأهلها فتكا ذريعاً : فمات فيها وحواليها ما يزيد عن
 المائة ألف نسمة : ثم استرجع الإنسان حقوق حياته ، فأعاد بناء المدينة على
 انقاض الخرابات ، وأصبحت مسينا الحديثة تكاد تعادل مسينا العتيقة بهاء
 ورونقا وجمالا ، ولهذه الحادثة يشير شاعر النيل حافظ إبراهيم رحمه الله
 حيث يقول في وصف المدن الصقلية الطليانية :

تحتها والعياذ بالله نار * وسعير ومنكر ومنكير

أرضها جنة ، وحر ، ولدا * ن ، واستهرق ، وملك كبير
 وليس في مسينا ما يدل على أنها بقيت بغض قرون مركزاً من أهم
 مراكز العمران الإسلامي بصقلية ، ولعل الحروب المتوالية فيها وفيما حواليها
 بين المسلمين والروم : وبينهم وبين الإيطاليين ، ثم النرمانيين قد جعل آثار
 المسلمين هنالك متعدمة الوجود .

من أعجب ما في مسينا : مقبرة ضحايا الزلزال اذكر أنفا ، فقد
 جعلت هذه المقبرة في ابداع مكان مشرف على المدينة ، يرى منه منظر قد اتفق
 الباحثون على أنه من أجمل مناظر إيطاليا وصقلية معا ، وغرست فيها حديقة
 جمعت في تناسق بديع كل أنواع الأشجار والزهور والرياحين .

ومن أهم ما يرى بها متحفها الفن الغنى : وليس به الا القليل النادر
 من آثار المسلمين ومنها في الصالة رقم ٥ صندوق بديع الصنع حسن التركيب .

شيفالو

أما شيفالو : فهي مدينة صغيرة يسكنها جماعة من الصيادين ، لا يتجاوز
 عدد سكانها ، إنما تمتاز بوجود كنيسة كندراية هي بلا ريب أجمل وأقدم
 كندرايات صقلية ، أمر ببنائها الملك رجار سنة ١١٣١ ، وابتناها كما ابتنى

غيرها في ذلك العهد بناؤون المسلمون . وبالقوا في زخرفتها وتجميلها ، وفيها اقدم واجمل فسيفساء بالارض الصقلية . وتجاه الكنيسة متحف صغير بديع فيه مجموعة كاملة من النقود الصقلية في مختلف العصور ؛ ومن بينها بل ومن أهمها النقود الاسلامية . وعلى نحو ميل من المدينة وفوق صخرة ترتفع ٢٦٩ مترا توجد آثار قصر وصهريج من آثار المسلمين .

ترميني

واما مدينة ترميني ولا تبعد عن بالرمة الا ١٩٦ ميلا فهي تكاد تكون مدينة اسلامية خالصة بحاراتها وازقتها ودورها وطريقة العيش فيها ، كثيرة الحركة فيها حمامات حارة وفيها متحف بلدى يضم كثيرا من الآثار والنقوش والنقود الاسلامية .

مازرة

ولم يبق بها ما يكشف الستار عن ماضيها الاسلامي الحافل لولا ما يدل على مشاركة البنايين المسلمين في اقامة هيكل الكاتدرائية وبعض الكنائس الصغرى التى أنشئ اكثرها على انقاض المساجد الاسلامية عندما دالت دولة المسلمين هنالك .

مرسى على

كانت هذه المدينة ايام المسلمين من اكثر المراسى حركة واكبرها تجارة لانها كانت نقطة الاتصال بين صقلية والبلاد الافريقية وقد فقدت المدينة اهميتها منذ انقطعت الصلات بين القطرين ، التونسي والصقلي ، فلم تبق لمرسى على الا اهميتها الحمزية ، وذكراياتها التاريخية .

تجاه مرسى على ، وعلى بعد نحو ٨ كيلومترات منها توجد جزيرة معطية القرطاجنية التى سبق ذكرها فى المقدمة التاريخية وكان المسلمون يدعون

هذه الجزيرة « المعزية » ولقد اجريت حفريات في هذه الجزيرة ووقع اكتشاف الكثير من آثارها القرطاجينية ومرسماها العتيق .

اطرايش

تستدير هذه المدينة حول مرساها في شكل هلال ! وليست بها حركة تذكر كما انه لم يبق بها ما يذكر بايام المسلمين ، فولا ما هو موجود بمتحفها من قطع النقود الاسلامية وبعض اقمشة من صنع المسلمين .

قلعة النساء

لم يبق لها من القديم الا الاسم ، اشتهرت اليوم بتجارة الكبريت لايشغلون سكانها الا بذلك وبما يمت له من صناعة . وبالمدينة متحف صغير فيه بعض آثار اسلامية ليست بذات اهمية ، والى جانب المدينة توجد آثار القلعة الاسلامية التي تدعى اليوم قصر بياترا روسا ! ومن هذه القلعة يشرف الانسان على قصر يانا التي لم يبق بها اليوم شيء من آثار المسلمين ، انما على مقربة منها (٣ كيلومتر) توجد « قلعة السبت » Calta Cibetta ويمكن اعتبار هذه المدينة اقدم مدن صقلية اليوم من حيث بناؤها الذي بقى على اصله منذ القرون الوسطى ومن حيث لباس اهلها وتقاليدهم التي بقيت في معزل عن الحياة الحاضرة .

طبرمين وضواحيها

اذا استثنينا جمالها الطبيعي ومركزها الممتاز بالنسبة للمستوحين فاننا لا نجد في طبرمين اهمية من ناحية التاريخ الاسلامي ! ولعلك تذكر ان المسلمين لم يحتلوا مدة طويلة هذه المدينة التي كانت باستمرار معقل المقاومة البيزنطية . حتى اذا تمكن المسلمون من ناصيتها نهائيا سنة ٩٠٢ ميلادية

دكوها دكا كي يقطعوا آخر امل للروم فيها ؛ وقد بقيت بها الآن آثار قصر
 قديم ، يدعى « قصر المولى » Mola يشرف على المدينة وضواحيها .
 ومن المدينة ، يسير الانسان نحو قرية لا تزال عربية
 اسما هي « القنطرة » Alcantara على مجرى الوادى المدعو
 بالقنطرة ايضا ، وهناك في تلك الضواحي مدينة لا تزال كذلك
 تحمل اسما عربيا وتكاد ديارها تحمل الطابع العربى الاسلامى ايضا وهي
 قرية « الزعفرانة »

قطانية

ان كانت هذه المدينة تعتبر اليوم ثانى مدن صقلية
 بعد بالرمة ، وان كانت بناءاتها الضخمة وعماراتها البديعة
 تجعلها فى مصاف المدن الكبرى ؛ فانها رغم كل ذلك لاتشبع نهم
 الباحث العربى لانها لا تحوى شيئا يذكر من آثار المسلمين ، وذلك لانها
 علاوة على التخریب الذى لحقها كما لحق كل مدن صقلية من جراء حوادث
 الاحتلال النورمانى قد اصابها زلزال عنيف حطمها تحطيمًا ذريعا سنة ١٦٩٣ ؛
 فلم يبق فيها عمرا نا واهلك فيها ١٦٠٠٠ نسمة .

اهم ما يراه الباحث فيها اليوم متحفها الذى جمع فيه القبطانيون كثيرا
 من آثار صقلية ومجموعه ثرية من الصور والرسوم ؛ ومكتبة فيها نحو
 الخمسين ألف مجلد منها نحو الخمسمائة مخطوط نفيس والفى رق فيها الكثير
 من اوائل العهد النورمانى .

سرقوسة

روعة وجمال ، وبهاء وجلال ؛ هى مهد الذكريات الاغريقية والقرطاجنية ،
 يهيمن عليها خيال ارخميندس العظيم وآثارها السابقة
 للمعهد الاسلامى غنية ثرية ؛ وبها متحف يكاد يكون مختصا

بدراسة آثار ومدنية شعب الصيقول . وبدائع من صنع المدنية الاغريقية والفنيقية : انما ليس بها ما يشبع نهم الباحث عن التاريخ الاسلامي . واهم آثارها على الاطلاق هو المسرح اليوناني الشهير الذي ابتناه الملك هيارون حورين سنة ٤٧٠ ق.م : وهو اهم ما تركته لنا ايدي الزمان من مسارح الاغريق وتبلغ دائرته ١٣٨ .

نوطس

كانت اثناء التاريخ الاسلامي مركز ولاية ، وكانت ذات اهمية كبرى اسسها الصيقوليون ووسع دائرتها المسلمون ، واستمرت مدينة اسلامية في جميع مظاهرها الى سنة ١٦٩٤ حيث تحطمت بصفة تامة وهجرها سكانها فابتنوا على مقربة منها مدينة جديدة : انما في آثارها رسم هيأتها الاسلامية السابقة ، واما المدينة الجديدة فليست من الناحية الاثرية بذات اهمية .

القسم الرابع

الحكم الاسلامي

ايام الدولة الاغلبية

نشأة الدولة الاغلبية = وقبل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا .

كان محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم يتلو هذه الآية الكريمة يسوم الفتح الاكبر ، وهو يحطم الاصنام داخل البيت الحرام ، واضعاً بذلك حدا فاصلا بين هدى الاسلام وضلال الجاهلية ، فاتحاً بذلك عهداً جديداً في تاريخ الانسانية هو عهد النور والمدنية الحقة ؛ عهد تحرير الفرد والجماعة من ربقة النذل والعبودية لغير الخالق ؛ عهد تحرير العقول من الاوهام والاباطيل ؛ عهد التساوى الحق الذي لم ير له العالم قبل ذلك ولا بعد ذلك مثيلاً .

التهبت يومئذ نيران الثورة العالمية في سبيل التحرير والمعرفة ، يحمل رايتها رفيعة وهاجعة قوم اسلموا لمحمد وآمنوا بما جاء به من الهدى ودين الحق فتدفقوا سيلاً نورانياً جارفاً يكتسحون الظلمات ، ويدركون اسس القيصرية والكسروية ، ويقيّمون على تلك الانقاض البالية عدل الاسلام ، وحرية الاسلام ، واخوة الاسلام .

وانه لم تكد تنقضي ثلاثة ارباع القرن على هجرة الرسول الاعظم حتى كان ما اريد ان اسميه « امبراطورية الاخوة الاسلامية » يشمل فضلاً عن بلاد العرب العراق وفارس وما وراء النهر وبلاد الشام ومصر وطرابلس وشمالنا الافريقي حتى امواج المحيط الاطلسي .

على ان اصعب الفتوحات الاسلامية مراساً : كان بلا ريب فتح اقطار هذا الشمال الافريقي ، وذلك لبعدها من جهة عن مركز الخلافة الاسلامية ، بالمدينة كان او بدمشق او ببغداد ، وصعوبة المواصلات بين قلب المملكة ومصدر الامر

والنهي ، وبين هذه البلاد النائية ، ولأنها من جهة أخرى كانت تسكنها أمة البربر الأمازيغية الأبية ؛ وهي مجموعة اقوام ما وهنت أمام جبروت الظالمين وما ضعفت قواها تجاه اربابهم وبطشهم الشديد ؛ وما استكانت لسلطان الاستعباد أينما كان مصدره ؛ وسواء جاءت من رومة اغلاله او صبت في بيزنطة قيوده .

فالبربر على تفرق شلهم ، كانوا أكثر الناس استماتة في سبيل الحرية واشد الناس تضحية في ميدان الاستقلال ؛ ولقد كانوا طيلة العهد الوندالي يمسكون بين ايديهم زمام امورهم ؛ وقد تعاونوا مع اولئك الفاتحين الهمج ، على تخريب ما شاده الرومانيون لأنفسهم بهذه الديار ، من معالم وآثار ، ثم كانوا طيلة العهد البيزنطي الحرب يباشرون داخل بلادهم مقاليد الحكم تاركين لرجال بيزنطة الاحتلال العسكري والادارة الاسمية والرسمية .

فلا غرو ان رأينا رجال البربر من جبال طرابلس الى كتلة الاطلس يقومون مرة اثر اخرى ضد غارات العرب الفاتحين منذ غزوة عبد الله بن ابي سرح سنة ٣٠ الى ان تمهد الامر نهائيا للفاتح الاكبر موسى بن نصير حوالي سنة ٩٠ هجرى (١) .

فنحن نرى ان فتح العرب للمغرب قد استغرق من جهودهم زهاء الستين سنة ، واستترف من قواهم خيرة الجند وجلة القواد ؛ كمعاوية بن خديج ، وعقبة بن نافع العظيم غالب كسيلة ومؤسس القيروان ، وحسان بن النعمان قاهر الكاهنة ، وغيرهم من ابطال العرب واشبال المسلمين ؛ ولقد كان البربر ان خسروا المعركة اظهروا الانقياد والطاعة عن مضض ؛ فلا تكاد تتغير الحالة بتغير عامل من العمال او بتمرد في الجند ، حتى يعودوا الى الثورة والعصيان مرتدين عن الدين في اكثر الاحيان .

(١) في سنة ٩٦ توفي بدير مروان الخليفة الوليد ابن عبد الملك ، وكانت ايامه من اسعد ايام الدولة الاموية ؛ ثم خلالها فتح اسبانيا وجنوب فرنسا ، وبلاد الترك ، وفتح القائد محمد بن القاسم الثغرى اكثر بلاد الهند .

بقيت الحالة كذلك بين صفو وكدر ، وأمن وانتفاض ، طيلة أيام الامويين واولئل عهد العباسيين .

وانه لمن اكبر تكبات هذا الشمال الافريقي ، سواء في اول العهد الاسلامي ، او في غيره من العود : كثرة تداول الولاة عليه ، فلا تكاد تستقر به قدم واحد منهم فيدرس حالته ويدرك قيمته ، ويختلط بشعوبه وامنه ، ويأخذ بأسباب العمران والانشاء والتكوين ، حتى تلعب في مركز الدولة العبيد الدسائس والفتن وتعمل السنة السوء والوشاية اعمالها ، وتلعب الغايات النفسية او العصبية ألاعيبها الخبيثة ، فيصدر الامر بتولية عامل جديد يكون في الكثير من الاحيان عدو العامل القديم فيفقد على البلاد يعدوه حب الانتقام ، ويسفر ذلك عن وقائع تسيل فيها الدماء ، ويستفيد البربر الواقفون بالمرصاد من ذلك ، فتكون الثورة ويكون الانتفاض (١) .

انما الى جانب هذا الاضطراب في السياسة كان الدين الاسلامي على ريد رواده الامجاد يستقر استقرارا متينا في البلاد ، وينتشر انتشارا عظيما . ولقد فهم البربر اخيرا : بعد طول اختلاطهم بالعرب ، واخذهم الدين واللغة عنهم ، ان هؤلاء الفاتحين ليسوا كمثل الذين سبقوهم من الفاتحين ، فسمو اخلاقهم ونبل عواطفهم وبساطة عيشتهم وسهولة دينهم الفطري : كل ذلك يجعل بونا شاسعا بين هؤلاء واولئك : ومن ثم امكن اتحاد العرب والبربر تحت راية الاسلام المسوية ، وتحقق لهذا القطر ما كان يرجوه منذ قديم الازمان ، ولم يتحصل عليه قبل ذلك : تحقق له الاستقرار الديني الذي دام منذ ذلك العهد الى يومنا هذا والى الابد ، رغم ما وقع من شتان سببه خلافات مذهبية قد استعملت في اكثر الاحيان وسيلة سياسية يراد بها الوصول الى الحكم .

وما عتق ذلك الاستقرار الديني ان اسفر عن استقرار سياسي ، بضعة اعلان القطر المغربي الاسلامي استقالة عن مركز الخلافة الاسلامية : وادارة اموره

(١) انظر كتابنا « قرطاجنة في اربعة عصور » طبع تونس ١٩٢٧

المحلية بواسطة الانجاب من بنيته .

لقد كان المغرب الأوسط بـ قطر الجزائر - اسبق جهات المغرب لاعلان الاستقلال ، وذلك بتأسيس الدولة الرستمية : على يد كرام بررة من رجال البربر اسلموا وحسن اسلامهم ، واعتنقوا مذهب الامام ابن اباضي رضى الله عنه . وقد كان اول مذهب اسلامي انتشر في بلاد الاسلام ، واعتنقه قوم كثيرون بالشمال الافريقي والبلاد الطرابلسية ، ولقد قام بكبر تأسيس الدولة الرستمية البربرية الاسلامية القاضي عبد الرحمان بن رستم الفارسي سنة ١٦٠ (١) فحكمت البلاد حكما اسلاميا يذكر في كل عصر ويشكر ، وسجلت في تاريخها صفحات نبل وفخار لا تعدى على ذكرها الطيبة الايام .

واذا كان العقد قد انتشر من الوسط ، واستقلت عن الخلافة العباسية وعن ولايتها بالقيروان دولة بنى رستم في تيهرت . فلم تعتم جهات المغرب ان اقتضت اثرها واعلنت استقلالها على يد بطل من ابطال العرب وسيد من سادة الاسلام وشريف من اشراف قريش ، هو ادريس بن عبد الله بن حسن بن الحسين بن علي بن ابي طالب ، وذلك بمدينة مليلي سنة ١٧١ هجرى (٢) (٧٨٧ ميلادية) .

فما كادت تنتهي ولاية الامير روح بن حاتم بالقيروان : سنة ١٧٥ حتى كانت الخلافة العباسية لا تحكم الا البلاد التونسية وبلاد الزاب : اى القسم الشرقي من قطر الجزائر الحالي ؛ وما كادت تستقر بالبلاد اقدام الوالى الجديد ابراهيم بن الاغلب الكبير ، اثر حوادث كثيرة واخطراب ، حتى رأى ، ورأى وجوه

(١) وقع هذا بعد انهيار الدولة الاموية بالشرق ، بمقتل آخر خلفائها مروان ابن محمد سنة ١٣٣ هجر (٧٥٠) وقامت الدولة العباسية مقامها معتمدة على الفرس حاكمة ببغداد .

(٢) بعد سنة ، اى عام ١٧٤ ، مات بالاندلس سقر قريش عبد الرحمن الداخل الاموي ، الذى انتقل ببلاد الاندلس ، وانشأ فيها دولة اموية جديدة موحدة دامت هناك زهاء ٢٩٠ عاما ودامت ايامه ٣٣ سنة وانشأ بقرطبة التى اتخذها دار ملكة المسجد الأعظم الذى هو الى يومنا هذا اعجوبة الزمان .

القوم وكبراء الامة معه ، وجوب الانفصال الادارى عن بغداد ، والاستقلال بامور البلاد ، فراسلوا امير المؤمنين هارون الرشيد فى ذلك ، وجاءت المصادقة منه بعد استشارة اهل الحل والعقد بمركز الخلافة سنة ١٨٤ (٨٠٠ ميلادية) وتعاهد الفريقات على ان تبقى الامارة الجديدة معترفة بسيادة الخلافة العباسية : وان تدفع خراجا سنويا لبغداد ، مقداره ٤٠ الف دينار ، متنازلة عما كانت تتقاضاه اعانة لها من خزينة مصر ومقداره مائة الف دينار .

تمت الامارة بذلك لابراهيم ابن الاغلب ، واصبح فى البلاد ملكا مستقلا ، مصلاحا معمرا ساهرا على امور مملكته باسطة العدل والامن بين كل طبقات وعيته : والتف حوله فى تضامن اسلامى « ووطنى » بديع رجال العرب والبربر ، فتوطدت اسس الدولة واقبل الناس على صالح الاعمال : والناس على دين ملوكهم . وهكذا نشأت الحضارة الاغلبية الزاهية الزاهرة : واصبحت القيروان العظيمة عاصمة ملك وسلطان ، امتها رسل الامبراطور شارلمان مهنثة (١) وامتلأت قصورا وبساتين ، ومساجد ومدارس ودواوين ، وارسلت العمال من قبلها الى اقصى جهات المملكة ، وازدهرت المدنية ، وانتشورت العلوم والآداب وكثر العمران ، فلم تنقض ايام ابراهيم التكبير وابنه الاول عبد الله وابنه الثانى زيادة الله حتى كانت دولة بنى الاغلب من ازهى عمارت المسلمين ، وبلغ خراجها يومئذ الف الف درهم (نحو ٨٠٠٠ كيلو من الذهب) .

ولا تقلن لك فى خاتمة هذا الباب ، ما قاله الاستاذ فكتور بيكى فى كتابه « مدينت شمال افريقيا » عن الدولة الاغلبية . قال : « لقد سار الامراء الاغلبية سيرة قسط وعدل ، محترمين للحقوق ، مظهرين جميل الاستعداد

(١) جاءت رسل امبراطور الغرب شارلمان مهنثة بالملك والاستقلال واجبة عن ملك القيروان ان يرجع للمسيحية بقايا شهادتها وآثارهم ومخلفاتهم بالبلاد الافريقية : فاقبل ابراهيم ابن الاغلب سفارة شارلمان بقصر العباسية ، جواز مدينة القيروان ، واحتفى بهم احتفالا عظيم النظم واجابهم الى مطلبهم فرجعوا مبتهجين : ثم ارسل ابن الاغلب حسيما تقتضيه التقاليد السياسية ، سفارة من لدنه ترده زيادة شارلمان ، فاقبل تلك السفارة بمدينة بادو بايطاليا : اقبالا لائقا فخرا .

تلقيا بجلال الاعمال لفائدة الامة .

« من ذلك انهم انشأوا وظيفة تلقى نورا غريبا على المجتمع في ذلك العصر فلقد نصبوا في كبل مدينة شخصية سامية مهمتها الرسمية (حماية الشعب ضد عدوان الكبراء) « صاحب المظالم » وهيئات ان يجد مجتمعنا العصري عبارة اجمل من هذه العبارة ، لوضع صورة تمثل في آن واحد : احترام العدالة واحترام حقوق الانسان .

« ولقد اشتغل امراء الاغالبة بالمنشآت العامة والاعمال النافعة ؛ فاكثروا من العمران والتجديد بمدينتي سوسة وتونس ، وامر واحد منهم (هو الامير احمد ابن محمد بن احمد) بحفر وبناء الصهريج العظيم بمدينة القيروان (فسقية الاغالبة) حيث تجتمع المياه الواردة من جبال جلامى ، ودائرة هذا الصهريج تبلغ ١٢٨ مترا ولا يزال مستعملا الى يومنا هذا ؛ وان المسافرين لتأخذ منه الروعة كل ماخذ عندما تلوح له هذه الصفحة المائية الناصعة في وسط بيداء جرداء يخيل للناظر ان لا جد لها .

« يقع هذا الصهريج اليوم شمالى سور القيروان ، بعيدا عن البناء والعمران ، انما هو بلا ريب لم يكن خارج اسوار المدينة العتيقة ، وذلك ما يعطيك فكرة عن اهمية مدينة القيروان التى كانت في ذلك العصر آهلة غنية . « والى جانب كل ذلك ، كان امراء الاغالبة قواد جنود لا تنكر مهارتهم الفاتحة في الحروب ، فاستطاعوا ان يوطدوا سلطانهم بصفة مستمرة على قبائل من طيهاا الشعب والهرج ؛ وتغلغل بواسطتهم النفوذ العربى فى البلاد الى حد بعيد .

« انما كان اولئك الامراء على الاغلب ، اذا استتب لهم الامر وسادت السكينة ارجاء المملكة ، ينهمكون فى الملذات والشهوات والشراب ويقومون تحت تأثير ذلك باقسى الاعمال التى يدفع اليها جبروت ليس له من حد (١) . »

المحاولات الاولى لفتح صقلية - ان كانت بلاد المغرب العربى مطمح النظر كل من استقرت له قدم فى جزيرة صقلية ؛ فقد كانت هذه الجزيرة كذلك مطمح

انظار كل من توطد له بالبلاد الافريقية الشمالية امر .

ولقد فصلنا في مقدمة هذا الكتاب اعمال الدولة القرطاجية في صقلية وما قامت به من جهود عتيقة في سبيل فتحها وفي سبيل الاستقرار بها .

فما كادت طلائع الفتح الاسلامي تبسط الوتئها الطافرة فوق اديم هذه الارض فتجعل منها معقلا منيعا لتعروية والاسلام ، حتى اتجهت الانظار ، انظار الفاتحين الاولين صوب صقلية ، وكانوا من وراء الجزيرة الصقلية ينظرون الى قارة اوروبا ، السابحة في الهيجية التائهة في بقاء الوحشية والظلمات .

كانت غزوة الاشراف ؛ اشراف الحسب والنسب واشراف الجهاد والجلاد اول غزوات المسلمين بالبلاد الصقلية . وكان القائم بكبر هذه الغزوة بطل العروبة والاسلام الخالد الذكر موسى بن نصير القرشي ، وقد اقر الله على يده الكريمة امر الاسلام بهذه الديار المغربية . ووطد بها اركان الفتح العربي ، وتمت تلك الاخوة الاسلامية العظمى التي لم ير العالم لها من مثيل ، اخوة العرب والبربر ، لحمتها الدين الحنيف الذي سوى بين الناس ، وما جعل من فضل لعربي على اعجمي الا بالتقوى ؛ وبسببها المصلحة المشتركة .

اراد موسى في بادئ الامر ان يعبر الى القنطرة الاروية ، متطليا صهوة الجزيرة الصقلية ، فانشأ بتونس دار صناعة جهزت له مائة سفينة وصاح في الناس أن حيي على الجهاد فلبى الناس داعي الجهاد في سبيل الله افواجا ولم يبق شريف ممن كان معه الا ركب البحر ، ومن ثم دعت هذه الغزوة غزوة الاشراف ، وعقد موسى لواصا لابنه عبد الله ؛ فنزل ارض صقلية ودحر قوى الروم بها وغنم مغائم طيبة ، انما لم يستطع البقاء بها واتمام فتحها ، فاكتفى بما ناله وقفل باسطولة الى البلاد الافريقية .

ولعل طول المسافة البحرية بين تونس وصقلية ، وضعوبة ارسال المدد الى الغزاة من جراء ذلك هو الذي جعل موسى يعدل عن فتح صقلية ، ويعقد

(٩) وهذا في الحقيقة من اهم اسباب انهيار الدول العربية الاسلامية السالفة ، في كل مكان .

العزم على مهاجمة اوروبا من ناحية اخرى تكاد تتصل فيها بالارض الاثريقية : وهكذا نشأت غزوة بلاد الاندلس من مجاز طنجة الذي اصبح يعرف فيما بعد والى يومنا هذا ببوغاز جبل طارق . وهو طارق بن زياد الليثي الذي اتم الله على يده ذلك الفتح المبين .

ولى الامر بافريقيا من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك ، عبيد الله ابن الحبحاب ، فرأى ان يقتفى اثر موسى بن نصير وان يدخل اوروبا من صقلية بعد ان توطن فتح الامدلس ، فارسل فى اول الامر غزوة بحرية لقيت اسطولا المروم يعترضها الطريق ، فدار القتال بين الاسطولين وانهزمت مراكب الروم وولت الادبار ، الا ان المسلمين لقوا من جراء ذلك عنتا ، واسر الروم منهم قبل انهزامهم عددا من رجالهم ، من جعلتهم العالم الشهير الشيخ عبد الرحمان بن زياد الذي بقى فى الاسر الى سنة ١٤١ (١) ثم رجعت مراكب المسلمين بما غنمته من الروم .

لكن ابن الحبحاب لم يضبر على هذه الخيبة وضيم على انفاذ السهم فى صقلية فجهز من جديد حملة عظيمة وضع على رأسها القائد حبيب بن ابي عبيدة بن عقبة بن نافع ، ومعه ابنه القائد الجسور عبد الله بن حبيب ،

(١) قبل سنة اعيام (٧٧٣ م) وقعت معركة ابواتية ، او بلاط الشهداء : وبعد اوقف شارل مارتيل زحف المسلمين على ضفاف نهر اللوار وقتل اميرهم البطل عبد الرحمان الثقفى . وقد كان المسلمون دخلوا بلاد فرنسا سنة ٧٧٠ واحتلوا مدن نربون وقرقشنة ونيم ثم استولوا على افينيون سنة ٧٧٠ وبورجو سنة ٧٧٣ ووضعوا جاليات اسلامية بهاتيك الديار : فبعد معركة ابواتية انسحب المسلمون الى الجنوب حيث استقروا امدا طويلا فى البلاد المواجهة لجبال الجيرانات الفاصلة بين فرنسا واسبانيا .

وقد كان المسلمون يتقدمون فى جنوب فرنسا الشرقى ملبيين دعوة الاهالى لهم وكان من آثار المسلمين هناك تأسيس جامعة « مونبيل » وبعد انجلاء المسلمين جرد ملك فرنسا (بييان البريت) ابن شارل مارتيل حملة انتقامية ضد اهل جنوب فرنسا الشرقى فامعن فيهم مدة ٣٥ سنة قتل ونهباً وتعديبا .

وبهذه المناسبة يقول المؤرخون الغربيون ان الفاتحين العرب كانوا يتقدمون فى البلاد حسب التقازير السرية التى كانوا يتصلون بها من اليهود الذين انشأوا يومئذ جوسسة واسعة النطاق لقائدة الفاتحين المسلمين : يسعي منهم فى الخروج بواسطة عن احكام المسيحية الجائرة القاسية التى كانت تمنع قيم اسطهادا وفثكا وتعديبا .

وسار الاسطبول الاسلامي من دار صناعة تونس سنة ١٢٢ فزل الأرض الصقلية وقاتل من اعترضه وهزم من قاتله حتى وصل تحت جدران سرقوسة الشهيرة ونصب عليها الحصار وضيقه وضرب باب المدينة ضربة رمزية بسيفه فأثرت فيه ، واذعن الروم والاغريق المصلح وبدلوا في سبيله جزية ذريعة ، وعزم حبيب وابنه عبد الله على البقاء بصقلية وانجاز فتحها ، وقد تيسرت لهما اسبابه . الا ان الحالة ساءت بافريقيا اذ وقعت ثورة في ناحية طنجة قام بها البربر (١) فارسل ابن الحبحاب عليهم القائد خالد ابن ابي حبيب الفهري ومعه وجوه القوم واشراف قريش ، وكأنه اراد بذلك ان يقمع الفتنة بوجه سلمى وبطريقة الاقتناع والاذعان فلحق على يد قوم لهم مكانة عالية في الدين وفي المجتمع . الا ان الفتنة كانت عمياء هوجاء ؛ والتقى الثوار برسول الامير وكانوا جماعة غفيرة فقتلوه عن آخرهم وكاد امر الفتنة يستفحل ؛ فبادر عبد الله باستدعاء الجند الاسلامي من صقلية مقدما الهم على المهم ؛ واضطر حبيب ومن معه لاختلاء الجزيرة مرة اخرى بعدما كادوا ينجزون فتحها ، ورجعوا على مضض الى البلاد الافريقية .

راى عبيد الله بن الحبحاب خيبة أمل المزدوجة ، وفشل مساعيه الجسيمة فترك الولاية ؛ ورجع الى المشرق في جمادى الاولى ١٢٣ ، وكانت ولايته سنة ١١٠ ومن آثاره العظيمة الخاتمة الجامع الاعظم بتونس ، جامع الزيتونة العام منبع النور والهدى بالشمال الافريقي زاده الله رفعة وسعوا . وينسب له بعض المؤرخين بناء دار الصناعة بتونس ولعله حسنها وزادها اتساعا ونشاطا ، لان موسي بن نصير كان قد استعمل بتونس دار الصناعة ، ومنها جهز مراكبه لغزو صقلية كما اسلفنا .

ثم في ايام الوالي عبد الرحمان بن حبيب الفهري اعاد عبد الله بن حبيب غزوة الجزيرة وكان الروم قد حصنوها وانشأوا بها اسطولا لا يقصدون به

والمدون ، مخالفا بذلك احكام القرآن ، وتعاليم الاسلام .

(١) . نسب هذه الثورة عسك العاقل على فتنة من قبل ابن الحبحاب . واسرافه في الظلم

الدفاع فحسب ، بل كانت مهمته مهاجمة مراكب المسلمين وقطع البحر عنهم ؛ قال ابن الأثير : فكانوا كلما ظفروا بمركب من مراكب المسلمين أخذوه بما فيه . اشتعلت نيران الحرب بين الاسطولين ؛ وخطم ابن جبيب الكثير من مراكب الاعداء ؛ وذلك حصونهم . ولم تكن نيته هذه المرة الاستقرار بالجزيرة . فتركها بعد ان صالحه الروم بها على مال كثير ورجع الى افريقيا مثقلا بالغنائم .

الفتح الاغلبى واسبابه - نشأت الدولة الاغلبية كما اسلفنا فى عزة وكرامة وتوطد لها الملك والسلطان ، ودانت لها الناس ، فقامت بمآثرها الخالدة على صفحات الوجود الا وهى فتح صقلية ، وموالاته الجهاد بها ، ونصب نورية الاسلام والعروبة فوقها عالية خفاقة زاهية .

كان أهم أسباب العزم على الفتح بصفة قارة مستمرة ، هو تمهيد السبيل لفتح البلاد الاروبية ومهاجمتها من الوسط . حيث اخفق هجوم المسلمين عليها من ناحية الشرق عند جدران القسطنطينية ، واخفق هجومهم عليها كذلك من ناحية الغرب فى سهول مدينة ابواتية امام شارل مارتال .

أما السبب الثانى الرئيسى لهذا الفتح فهو محاولة قطع دابر القرصنة البيزنطية الرومية وقيد اتخذت صقلية كما اسلفنا مركزا لها ، تشن منها الغارة الفينة بعد الفينة على الارض الافريقية فتخرب الثغور وتنتهب الارزاق وتذهب بالسكان الآمنين اسرى حيث يباعون عبيدا ان لم تنادر الدولة الاسلامية بدفع الفدية عنهم .

زد على هذين السببين الرئيسيين سببا ثالثا هو رغبة الملك الاغلبى فى قطع دابر الفتن الداخلية والثورات التى كانت تحتاج البلاد مثل واحدة لخطر من الطاعون وافتك من الوباء ؛ باشتغال الناس من بربر وعرب ، بأمر الجهاد فى سبيل الله فوق اديم ارض اجنبية ، ينسيهم قتلهم الداخلية ويلهيهم عن محاربة بعضهم بعضا . ولقد تخلص الملك الاغلبى بواسطة هذا الفتح من العناصر المتهيجة المثيرة فى الجند العربى ، والتي اوصلت المملكة الاغلبية تحت قيادة الزعيم الثائر منصور بن نصر امير الحمديدية الى شافة القبر ، وما

امكن التغلب عليها الا بجهد جبار وتدبير حكيم .

وقد نجحت هذه الغايات السامية الى حد بعيد ، ونجح بلاط القيروان الزاهر في عهد الاستقلال الذهبي ، حيث اخفقت محاولة الولاة في عهد التبعية والحكم المباشر بواسطة الخلافة .

العزم على الفتح - تكاثرت عند المسلمين الاسرى بجزيرة صقلية ، فعقد الملك زيادة الله اتفاقا مع حاكم الجزيرة من قبل الروم ، تعهد به هذا بارجاع اسرى المسلمين الى البلاد الافريقية ، ولا يبقى منهم احدا بارض الجزيرة .

وكانت الحالة يومئذ في صقلية على اسوأ ما تكون عليه حالة بلاد يحكمها من قبل الاجانب حكام غلاظ شداد ، ديدتهم الارقتشاء ، ودينهم عسكرة الذات ، وسيرتهم الجور والعسف ، وسيرتهم الحقد والحسد ونية السوء ، والشغب المسكين يشن من جراء ذلك اثينا منكرا ، وليس عليه الا الخضوع لارادة الظالمين . كان يتولى امر الجزيرة يومئذ من قبل امبراطور الروم في القسطنطينية عامل يدعى قسطنطين ، جمع الله فيه ما تفرق في بني قومه من فساد السيرة وخلال السوء . وكان على الاسطول الرومي بالجزيرة امير البحر اوفيمياس Euphémias (ويسميه مؤرخو العرب فيمي) فلم يكن احسن من زميله سيرة ولا اظهر سريرة ، وكان الخلاف مستحكما بين الرجلين بصفة فظيعة فسعى الوالى لدى الامبراطور البيزنطى ميخائيل الثانى ، واستصدر منه امرا بالقاء القبض على امير البحر ، وكان لهذا انصار واتباع يسرون تحت لوائه وينتفعون منه ، فثاروا على السوالى ، ونبذوا دعوة الامبراطور ، واعلنوا في الجزيرة استقلالهم ، وانتصب اوفيمياس حاكما بامرهم هنالك .

لكن الدهر لا يصفو للظالمين ؛ فان اوفيمياس لم يكتف في الملك طويلا ، حتى ثار عليه احد قواده ، بسلطة ، وهزمه في معارك عديدة واعلن رجوع البلاد لطاعة الامبراطور .

ضاققت الاسباب بوفيمياس فقدم بجماعة من انصاره الى مدينة القيروان

مستنجدا بلاطها ضد خصمه .

كان مجلس شورى الملك زيادة الله يتفاوض يومئذ في مسألة الاسرى المسلمين بصقلية ، وقد علم رجال القيروان انه لم يزل بين ايدي الروم هنالك جماعة من المسلمين . وان العقد الذي عقده الملك مع ولى الجزيرة لم ينفذ ، وكان الجدال يومئذ محتدما حول ذلك ؛ وحل يجوز نقض العهد معهم والعودة الى حربهم ؟ فقال قاضى الجماعة اسد بن الفرات : علينا ان نستخبر رسلهم ؛ يعنى (جماعة اوفيمياس) فاننا بواسطة الرسل قد عاقدناهم ، وكذلك بواسطة الرسل نقيم عليهم الحجة ونجعلهم ناكثين .

اوتى بالرسل يومئذ فسنلوا عن الامر ، واكدوا انه لم يزل حقا بالجزيرة الصقلية خلافا للعهد ، جماعة كبيرة من المسلمين في حالة رق واستعباد .

اذلك قرر المجلس ان العقد قد نكث من طرف الاعداء ، وان الحرب واجبة لرفع هذه المظلمة . ونادى زيادة الله بالجهاد فى سبيل الله ؛ فلبى المسلمون النداء واجتمع الاسطول الاسلامى بمدينة سوسة ، مرسى القيروان ؛ وكان يجمع مائة مركب تحمل كل مركب منها نحو من مائة وعشرة من المقاتلين مع الزاد والعتاد والخيول ، فكان الجيش الفاتح مؤلفا من عشرة آلاف راجل وتسعمائة فارس وامر عليهم قاضى الجماعة اسد بن الفرات .

اسد بن الفرات - وانه لمن اكبر الكبراء واعظم العظماء فى تاريخ الشمال الافريقى ، لا تدانى منزلته العالوية فى العالم ، الا همته السماء وعلو كعبه فى الجهاد ، بين ميادين السيف والقلم .

وانه لمن واجبتنا المقدس ان نسطر صفحة حياته النقية الطافحة بجلال الاعمال بصفة موجزة (١) حتى نتخلص الى ذكر قيادته الجند واعماله فى صقلية .

اتجنى الاصل ، ولند بمدينة من ارض خراسان سنة ١٤٢ ، وقدم مع

(١) راجع عن ترجمته يانهاج : مقالا مبتعا للاستاذ العلامة الشيخ احمد المهدى التيفر نشرته مجلة الترياق التونسية فى المديدين السابع والثامن من سنتها الاولى .

والله وسنه لا يجاوز الاربعة اعوام صحبة الجند الاسلامي القادم مع الوالي محمد بن الاشعث لتمهيد الامر بافريقيا .

تلقى في مدينة القيروان مبادئ علومه مدة خمس سنوات ، وارتحل في العاشرة من عمره الى مدينة تونس فانقطع فيها للعلم نحواً من التسعة اعوام تعلم فيها القرآن وعلومه ، وروى فيها موطأ الامام مالك عن علامة افريقيا يومئذ وبجرها النظامي الشيخ علي بن زياد (١) .

وكان اسد رحمة الله يقول مفاخرها ومداعبها اقاربه : انا اسد والاسد خير الوحوش ، وابي الفرات والفرات خير الله ، وجدي سنان والسنان خير السلاح .

ولم يكفه ما روى به علته من العلم في مدينة تونس : فامتطي صهوة العزيمة والجلد ، وشد رحاله الى المشرق الذي كان يزعم ويؤمئذ بما فيه من مصابيح العلم وائمة الهدى .

ام بادي ذي بندقية المدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهنالك سمع عن مالك ابن انس رضي الله عنه الموطأ وتعمق فيه بعدما استوعبه اول مرة عن ابن زياد : ثم غادر المدينة مزوداً بعلم مالك الغزير ودعائه الصالح ووصيته يوم الوداع : اوصيك بتقوى الله تعالى ، والقرآن ، والنصيحة لهذه الامة ، وام العراق فلقي جماعة من اصحاب ابي حنيفة النعمان : اخص بالذكر منهم الامام ابا يوسف ومحمد بن الحسن فاخذ عنهما الشيء الكثير من علم ابي حنيفة وآرائه وفتاويه واخذ عنه ابو يوسف موطأ مالك وآراءه . ثم انتقل الى مصر وفيها جماعة كبرى من اصحاب مالك والناسجيين على منواله ، فصحب منهم الامام عبيد الرحمان بن القاسم صحبة طويلة وامعن في

(١) روى الموطأ عن الامام مالك رضي الله عنه بالمدينة : واخذته عنه الامام سحنون صاحب المدونة : عرضت عليه الدولة نزاراً تولى القضاء ، فرفض وابى تورعاً منه ، وجأ للاقطاع للعلم ، حتى توفي الله سنة ١٨٦ ، ودفن بتونس حيث لا يزال ضريحه الضخم تجاه ادارة المحافظة يزوره الناس احباً ، لذكراه واعترافاً بجلال اعماله .

سؤاله وعرض المسائل المختلفة عليه ، حتى انقطع اسد في السؤال ، اذ لم يبق له شيء يسأل عنه ، ودون عندئذ كتابه الشهير « الاسدية » .

وبعد عشرة اعوام مضت في جهاد عنيف واجهاد نفسى عن نظيره في سبيل العلم والمعرفة ، رجع الى وطنه الافريقى حاملا في صدره علما غزيرا ، وفي وظائفه كتابا عزيزا هو الاسدية ، وتصدى للعلم والنفع ، فاشتهر امره وذاع صيته .

وكان الامام سحنون يومئذ بالمشرق ينهل من معين ابن القاسم العذب وقد صحبه واطال صحبته وألف كتابه الأشهر « المدونة » ثم رجع به الى القيروان وانتصب للقراء والنفع والتدريس ؛ ولم تكن المدونة على وفاق تام مع الاسدية ، فهناك مسائل كانت محل خلاف واستشير الامام ابن القاسم في الامر فرجح كفة المدونة على كفة الاسدية ، وأمر اسدا بان يصحح كتابه على المدونة فترك اسد رحمه الله اسديته وفقه ماله ؛ وأقبل على مذهب أبى حنيفة النعمان يشرحه للناس ويعلمه للخاصة والعامة .

ثم ولى قضاء القيروان سنة ٢٠٤ هـ مشتركاً في ذلك مع القاضي أبى محرز الكنانى ؛ وكان بينهما شأن كبير وخلاف عظيم .

وعندما وقع الخوض في مسألة صقلية ومن بها من أسرى المسلمين ، كان من رأى القاضي أبى محرز الكنانى الثانى الى ان يتأكد الخبر ؛ ولو أنه كان عائشا في عصرنا الحديث لطلب « تشكيل لجنة بحث » . اما اسد فكان رأيه الأسد ، اذ قال علينا بسؤال الرسل ، فاننا بواسطة الرسل حالناهم ، وبواسطة الرسل نجعلهم ناكثين ورجح هذا رأى كما رأيت ، ونادى منادى الجهاد ، واجتمع الاسطول في سوسة .

عندئذ طلب القاضي اسد بن القرات من اميره زيادة الله ، الاذن له بالخروج صحبة الجند الاسلامى حتى ينال شرف الجهاد او شرف الاستشهاد ، فلمي زيادة الله طلب القاضي الذى كان يومئذ في العقد السابع من عمره ،

واولاه اماره الجيش الفاتح ؛ فقال اسد : واما يا مولاي ! اتعزئني عن القضاء لكي توليني الامارة ؟ فقال زيادة الله كلا ؛ بل لك اماره الجيش مع القضاء .
وامر زيادة الله ان يخرج الجند الاسلامي في موكب حافل ومهرجان مشهود فخرج لوداع المجاهدين كبار الامة وعيون القوم من العرب والبربر والاندلسيين ، والسادة الاشراف ؛ قال الشيخ ابوبكر بن محمد المالكي في كتابه « رياض النفوس » : فلما رأى (اسد بن القرات) جمع الناس بين يديه وخلفه وعن يمينه وعن شماله ، وقد صهلت الحیول وضربت الطبول ، ونشرت البنود قال : لا اله الا الله وحده لا شريك له . والله يا معشر الناس ما ولي لي اب ولا جد ولاية قط ، وما رأيت ما نرون الا بالاقلام ، فاجهدوا انفسكم واتعبوا ابدانكم في طلب العلم وتدوينه . وكاثروا عليه واصبروا على شدته فانكم تنالون به الدنيا والآخرة .

المحارك الاولى - اقلع الاسطول الاغلبى الاسلامي من مدينة سوسة : يوم الاحد ١٤ ربيع الانور سنة ٣١٢ (١١ جوان ٨٢٧) ووصل سواحل صقلية عند مدينة مازرة ، يوم الثلاثاء ١٧ ربيع الانور : قاطعا في ثلاثة ايام ، ثلاثمائة كيلو مترا تفضل بين سوسة ومازرة .

نزل المسلمون مدينة مازرة ، ولم يجدوا بها من يدافع عنها لاختلال امور الروم ، وزهد اهل البلاد في الدفاع عنها لقائده القاصيين ، فاتم المسلمون تفريغ الاسطول وانزلوا الى الارض ما اتوا به من معدات الفتح والكفاح .

عندئذ قدم القائد بسلاطة بجموع كثيفة من الروم ، تبلغ المائة الف مقاتل ، اي عشرة اضعاف الجند الاسلامي ؛ اما امير البحر الوفيسياس الحاني فقد تركه المسلمون وشأنه ولم يستعملوا جماعته وانصاره .

خرج المسلمون للقاء بلاطة ، وكان يعتزم الرمي بالمهاجمين الى البحر ،

تاريخ صقلية - ٥

والتقى الجمعان على مقربة من مازرة - قال ابن أبي الفضل وكان حاضرا
المعركة : ورايت اسد بن القرات وبينه اللواء وهو يزفرم : فحملوا عليه ،
وكانت فينا روعة ، فاقبل اسد على قراءة يس : فلما فرغ منها قال للناس :
هؤلاء عجم الساحل ٠٠٠ هؤلاء غبيدكم ٠٠٠ لا تهابوهم : وحمل بالسواء
وحمل الناس معه : فهزم الله جل وعلا بلاطة واصحابه ، فلما انصرف اسد
رايت والله الدم قد نال من قناة اللواء مع ذراعه حتى صار مع ابطه .

ومعنى قول اسد : هؤلاء عجم الساحل ، اى هؤلاء الذين هربوا امامكم
من السواحل الافريقية .

اثر هذا النصر العظيم ، فرت فلول الجيش الرومى نحو الجهة الشرقية
معتصمة بمدينة سرقوسة : ورأى اسد ان يستثمر على الفور انتصاره الكبير ،
فسار بجيشه يقتفى اثر المنهزمين ، ففتح كامل الجنوب الصقلى فى مدة
وجيزة حتى وقف تحت اسوار سرقوسة قاطعا مسافة مائتى كيلومتر
القاصلة بين مركز النزول مازرة والمدينة المحاصرة فى وقت وجيز .

كان امير البحر اوفيمياس قد ندم فعلته وخيانته ، اذ رأى ان المسلمين
يفتحون الجزيرة لحساب الاسلام لا لحساب رومى مهما كان شأنه ، فراسل
اهل سرقوسة يستحثهم على الصبر والثبات ريثما يقدم لنجدتهم ، فخرج
جماعة من البطارقة والرهبان يسألون الامان لاهل المدينة ويطاولون فى
المذاكرة ، وكان ذلك منهم خديعة حربية تمكنوا بواسطتها من كسب الوقت .
وزيادة تحصين المركز ، واخفاء ما به من كنوز ونقائس .

اراد المسلمون ان يقتحموا المدينة فاخفقوا ، واراد اهل المدينة ان يبعدوا
المسلمين عن اسوارها فاخفقوا كذلك . واصبحت الحرب حرب مراكز
لا حرب حركة .

وقع المسلمون فى مخصصة عند ذلك واصاب الجند جوع كبير حتى اكلوا
الحيول ، فخطبوا القايد ابن قادم فى الامر وسألوه التوسط لهم عند اسد
ليامرهم بالرحيل الى افريقيا : قال ابن القادم لاسد : ارجع بنا الى افريقيا

فإن حياة مسلم واحد أحب إلينا من جميع المشركين ، فقال اسد : ما كنت لأكسر غزوة على المسلمين ، وفي المسلمين خير كثير ؛ هنالك اخذ دعاة الهزيمة يعملون أعمالهم وينشرون دعايتهم المنكرة ، وبددت من ابن القادح الذي تزعمهم كلمة سيئة ، فقال اسد : على أقل من هذا قتل عثمان بن عفان ؛ ثم تناوله وضربه ثلاثة أو أربعة أسواط ، وكأنه قد ضرب فيه دعوة التردد والهزيمة ، ونصر فكرة المقاومة الثبات والصبر ، فتم له ما أراد ، وعادت العزيمة القوية إلى الانفس التي لعبت بها حينما ما دعوة النكوص على الاعقاب .

وإذا كان المسلمون قد احتلوا كامل الجنوب الصقلي ؛ فقد سهلوا على انفسهم امر تموين الجند ووصول النجدة اليه من الأرض الأفريقية ، ووصلت النجدة والاقوت والمؤن فعلا للمسلمين ؛ ووصلت للروم في سرقوسة مثل ذلك من بقية الحاميات الرومية ، واستمرت الحرب سجالا حول سرقوسة ، وقد حفر المسلمون حولها خندقا عظيما يمنع خروج حاميتها للمهاجمة .

كان اسد رحمه الله ورضي عنه يباشر امر الحصار بنفسه ، ويضيق على المدينة ، لكن ذلك الجهد الحربي الذي بذله منذ نزل مازرة نال من جسمه البالي فاصابه من جراء ذلك مرض اودى بحياته الجليلة ، ولبي داعي ربه في ربيع الثاني سنة ٢١٣ هـ بعد جهاد متواصل عتيق دام ١٣ شهرا ودفن رحمه الله بمقر استشهاده تحت اسوار سرقوسة ، ويقول بعض المؤرخين انه دفن بمدينة قصر يانة ، وذلك غلط لأن تلك المدينة لم تكن قد فتحت بعد ؛ وكذلك يقول بعضهم غلطا انه دفن في بالرمة التي لم تفتح إلا عدة سنوات بعد ذلك .

محمد بن أبي الجوارى

اجتمع المسلمون بعد انتقال اسد بن القرا تالي الرفيق الاعلى ؛ وولوا عليهم محمد بن أبي الجوارى . وكانت النفوس قد ضعفت والعزائم قد وهنت ، فأستقر رأى الأمير محمد بن أبي الجوارى على اخلاء الجزيرة ، والرجوع بالمسلمين إلى أفريقية .

غلطة الروم ، توطد الفتح - ركب المسلمون عندئذ مراكبهم منسحبين ؛ واقلعوا . وما كادوا يتوسطون عرض البحر حتى لقيهم اسطول الروم القادم من القسطنطينية نجدة لاهل سرقسية ؛ فسد على المسلمين طريق الرجوع الى افريقيا ولم يترك لهم الا احدى الطريقتين : اما قبول المعركة مع الاسطول الرومى ، وهو اوفر عددا واغوى عدة ، او الرجوع لصقلية ، والثبات بها والصبر على شدة الحرب الى ان ياتى الله بامره .

عزموا ، وهم على متن البحر على مواصلة الجهاد والرجوع الى البسر ، فرجعوا مستبسلين ، عازمين على الفوز او الاستشهاد ، ولكى يقطعوا كل امل لهم بالنكوص على الاعقاب والرجوع نحو افريقيا ، قاموا بعملهم الحازم الحاسم ، الا وهو احراق اسطولهم عن آخره مقتدين فى ذلك بما فعله من قبل طارق بن زياد عند فتح الاندلس ، حينما احرق المراكب وقال : ايها الناس البحر وراءكم والعدو امامكم ، وليس لكم والله الا الصبر او النصر ؛ وبهذا الحادث الرمى ، توطد امر المسلمين فى الجزيرة وعزموا على انجاز الفتح الى النهاية .

ابن قرغلوش الاندلسى - وكيف الصبر على الجوع وعلى قلة المدد وعلى ضعف العدد ، امام جموع الروم الغفيرة واقواها الوفيرة ؟ رأوا ان لا ملجأ من الله يومئذ الا اليه فصبروا وانتظروا ؛ وكان نصر الله قريبا .

فى تلك الاثناء والازمة مستحكمة الحلقات ، كما جاءت سفن المدد من افريقيا ارسى على السواحل الصقلية الجنوبية اسطول قرصان المجاهدين المسلمين بالاندلس ، يقوده اصبح بن وكيل المشتهر باسم « ابن قرغلوش » وكان الاسطول سائرا فى سبيل الغزو والمغامرة . فتجمع من العمارتين نحو الثلاثائة سفينة (١) .

تم الاتفاق بين مسلمي الجزيرة وقرصان الاندلس على ان ينزل الاندلسيون الجزيرة لنصرة جندها ، وفتح مدنها والقضاء على حكم المسيحية فيها ، وعلى ان تكون الامارة فيها عند انجاز ذلك لابن قرغلوش (٢) .

نزل الاندلسيون البن واشتد بهم ساعد اهل افريقيا ، وسار المسلمون

أقرباء العزائم في طريق الفتح والنصر ، فاحتلوا مدينة مينا بعد حصار ثلاثة أيام ؛ ثم ساروا نحو جرجنت ففتحوها قسرا وساروا بعدئذ نحو معقل « قصر يانة » الذي كان أكبر صياصي الروم بالبلاد .

كان أمير البحر الوفيمياس الحائن لا يزال يطمع في تولي الامر بعد أن يمهّد له المسلمون السبيل رغم مساعيهِ السالفة الذكر ؛ فعندما وقف المسلمون تجاه قصر يانة ، وكان أهلها أشداء متقانيين في الدفاع ، أظهروا الاستسلام والخضوع ، وأبدوا رغبتهم في تولية الوفيمياس أمرهم ، وما كان ذلك منهم الا مكيدة فتمكنوا من الحائن ودقوا عنقه ، وتحصنوا في مدينتهم إثر ذلك فلم تستطع جموع المسلمين اخضاعها .

الرابعة - في سنة ٢١٦ (٨٤١) أصاب المسلمين وباء شديد فتلك بهم فتكا ذريعا ، وكان القائد المجاهد ابن فرغلوش من جملة من استشهد بذلك ، ومات في تلك السنة نفسها الوالي محمد بن ابي الجوارى ، واضطرب امر المسلمين ، فتولى أمرهم مؤقنا عثمان بن قهرّب الى ان جاء من القيروان ابو فهر محمد بن عبد الله التميمي سنة ٢١٧ (١) فنفر ابن فهر عنها ولم تطل مدة ولايته ، ولم يستقم له امر ، ورجع اسطول الاندلس بمن بقي حيا من رجاله الى الاسبانيا .

زهير بن عوف

ارسل زيادة الله الاغلبى ، زهير بن عوف عاملا على الجزيرة ، على ان يستمر فيها الجهاد ويتم فتح البلاد ؛ وارسل معه جندا عظيما يبلغ عدده ٣٠ الفا ؛ (٢) فاشتد ساعد المسلمين هنالك ، واندفعوا يوالون الفتح ويسبيرون من نصر الى نصر .

(١) هذا ما يذكره ابن خلدون . وارى في العدد مبالغة لا ريب فيها .

(٢) هذا يعني - لو منحت الرواية - انفصالهم عن الدولة الاغلبية ؛ وهو لا يتفق مع وردد النجيدات الاقريقية . ولا مع بقية سائر الحوادث . فالرواية فيها نظر .

فتح بالرمة - ولقد كان ملاك عمل ابن عوف رحمه الله فتح بالرمة عاصمة الجزيرة ودرتها اللمعة : فلقد سار اليها على رأس الجند الاسلامي بعد ان توطد الفتح في الناحية الجنوبية كلها : وكان الروم ومن لف حولهم من انصار المسيحية قد تحصنوا في العاصمة واستعدوا لتلقى الصدمة الرهيبة واعدوا لها ما استطاعوا من قوة وميرة ، ومن عزيمة وجلد .

وقف المسلمون تحت الاسوار المنيعة ، وازسل ابن عوف الانذار الشرعى لرجال الحامية فرفضوا الانذار ، وتلاقت هنالك تحت جدران العاصمة الصقلية عزيمتان قدتا من زبر الحديد . عزيمة المسلمين التي استقرت على وجوب الفتح وذلك الاسوار ، وتحطيم كل مقاومة تقف في سبيل انجاز المهمة الكبرى : وعزيمة الروم التي توطدت على وجوب الدفاع عن العاصمة ، وفي الدفاع عنها دفاع عن كيان الجزيرة بأسره ! فاما الفوز ودحر المسلمين واما الانهيار مع انقراض المدينة .

نصب ابن عوف الحصار على بالرمة وضيق عليها الحناق من جميع اطرافها . ومهما ازداد شدة في تضيق الحصار الا وازداد المدافعون تصلبا في المقاومة واستماتة في الدفاع : وقد علم كل من الفريقين ان المعركة حاسمة ، وان نتيجتها ستكون اما فوز الاسلام بالجزيرة ، وتقلص ظل المسيحية فيها ، واما اندحار المسلمين ورجوعهم من حيث اتوا خائبين .

لكن الضائقة اشتدت بالمدافعين الى درجة لم يبق لهم معها احتمال الصبر ، وفقدوا كل أمل لهم في النصر ، ولم يبق امامهم الا احد الطريقتين : طريق الموت

(١) في السنة الموالية : ٢١٨ هجرية . توفى امير المؤمنين الخليفة العباسي المأمون ابن هارون الرشيد ، وقد كان عصره ازهر عصور المسلمين من حيث العلم والثقافة وقد امر باحضار كتب العلم والحكمة والهندسة وغيرها من بلاد الاغريق وكلفت بتعريبها جماعة من مهرة الترجمة ، وقد كان كثير التجميع لآل البيت حتى انه اوصى بولاية العهد لابي البرخا بن موسى الكاظم : وفي ايامه تجسست فتنة القول بخلق القرآن واشتدت محنتها : وقد كان مفرقا بالتجسس والاطلاع على كل الأحوال ، فعين ١٧٠٠ عجزو يحسن خلال الديار ويبلغته على مختلف الاسرار .

(٢) في هذا العدد مبالغة قاضية ، ولعلها من غلطات الرواين . ولربما كان الضحيج هو ثلاثة آلاف .

والاستشهاد كابطال قرطاجنة الذين سقطوا في ميدان الشرف مجندين تحت انقاض مدينتهم بين السنة المهيبة ، او طريق الاستسلام والانسحاب . ولقد كان هذا هو الذي استقر عليه الوالي الرومى ومن بقى معه من رجال المسيحية ، فطلب من ابن عوف الامان على ان يغادر الجزيرة بحرا بماله واهله ، ومن اراد اتباعه من وجوه قومه ، فامنه الامير المسلم واجابه لطلبه تقديرا منه للبطولة التى اظهرها اولئك انقوم فى الدفاع ؛ وابتحر الروم تاركين المدينة مفتوحة امام المسلمين فدخلوها فى رجب سنة ٢٢٠ (٨٣٥) ، ولم يجدوا بها حسب رواية ابن الاثير الا ثلاثة آلاف من السكان ، وقد كانوا قبل الحصار ٧ الفا .

اتخذ المسلمون يومئذ مدينة بالرمة عاصمة لملكهم ، كما كانت عاصمة الذين سبقوهم ؛ وكما اصبحت من بعد عاصمة الذين خلفوهم ؛ واندفعوا فى ميدان الاصلاح والعمران والترميم ، يقيمون انقاضها ويشيدون جدرانها ويوسعون دائرتها ، فما عثمت غير قليل حتى اصبحت تختال فى ثوب قشيب من المدينة والعمران ؛ وامتلأت قصورا ومساجد ودواوين وحمامات واسواقا وحدائق وبساتين ، وصارت جنة يانعة تمثل انوار الشرق الاسلامى ومدينته اللامعة الخلابه وعلومه وفنونه ومنشآته ، تجاه ظلمات القرون الوسطى فى العالم الغربى .

استمرار الفتح - احتلال صينا - انهاء حصار بالرمة ، نال المسلمون نصرا عظيما وطد قدمهم فى ناحية الشمال الصقلي ؛ وذلك باحتلال مدينة صينا ، سنة ٢١٩ (٨٣٤) فانحصر الروم والمسيحيون فى الناحية الشرقية من صقلية حوالى مدينة قطانيا ، واصبحوا لا يحتلون من الجزيرة الا مثلثا يمتد من الشرق نحو الجنوب الغربى من صينا الى قصر يانة ، ثم يرجع من قصر يانة نحو الجنوب الشرقى الى مدينة نوتو ؛ وعلى هذا الخط الحربى الذى كان يتضال شينا فشيئا ، كانت تتوالى اعمال الهجوم من ناحية المسلمين ، وكانت تتوالى اساليب الدفاع من ناحية المسيحيين .

هاجم المسلمون الخط من وسطه مرتين ، خلال سنتى ٢١٩ و ٢٢٠

محاولين احتلال معقل قصر يدانة المنيع ؛ انما هم لم يستطيعوا ان ينالوا منه
منالا ، فاكثفوا بغنائم غنموها ورجعوا الى معسكرهم .

كذلك حاولوا تمزيق الخط من اسفله ، فهاجموا مدينة سرقوسة بشدة ،
لكنها تصلبت في الدفاع ، واشتدت مقاومتها بصفة أجبرت المسلمين على
الرجوع الى مراكزهم . تكن هذه الحيلة التي نصرا مينا ، ذلك أن جند
الروم رأى أن يقطع عن المسلمين خط الرجعة ويصددهم عن الرجوع الى
مراكزهم ، فاعترض لهم في الطريق ، وانقلبت محاولته تلك وبالا عليه ؛
عليه ؛ إذ أن المسلمين ركنوا الى غابة كثيفة هناك حجتهم عن انظار المتتبعين ،
وكنوا هنالك الى حين ، ثم انقضوا فجأة على الجند الرومي فمزقوه شر مزق ،
وقتلوا البطريق قائده ، وغنموا زاده وعتاده ، ثم عادوا نحو سرقوسة فنصبوا
عليها الحصار وضيقوه .

كذلك سار القائد محمد بن عبد الله على رأس كتيبة ، فناجز مدينة طبرمين
القتال ولم يدخلها مكتفيا بالاستطلاع وبما ناله من غنائم واسلاب ، وأخيرا
احتل مدينة كوزو Gozzo سنة ٢٢١ .

ابن أبي محرز القاضي - في هذه السنة سنة ٢٢١ مات بمدينة القيروان
عالم من جملة العلماء وعلم من اعلام المسلمين ، هو ابن أبي محرز قاضي صقلية ؛
وقد ضربت بنزاهته وعدله وبشجوره وورعه الامثال ، من ذلك انه عندما بلغته
الوفاة ، اوصى اخاه عمر ابن أبي محرز ان يكتب خبر موته خوفا ان يكفنه
ويدفنه زيادة الله الاغلبى ، وينفق ذلك عليه من بيت مال المسلمين ، فيلقى
الله وعليه من مال المسلمين شيء ، وهكذا كان . فلما بلغ نيا ذلك الامير ،
ارسل بقتاه خلف ، ومعه مسك وطيب واكفان فوصل ساعة كان الشمس

(١) في هذه السنة اشيدت بالعراق بحنة القول بخلق القرآن على يد الخليفة المتصم بالله .
وكان قد تشبه بملوك الاعاجم ، وادخل الاتراك الدواوين واعتمد عليهم في ادارة الدولة ؛ وبلغ
غلبانه من الترك ١٨ الفا ، البسم اطواق الذهب والنديباج ، وبنى مدينة « سر من راي »
وانتقل اليها ، وقد حارب الروم واثخن فيهم ، وكان من شحايا القول بخلق القرآن ، الاسام
احمد بن حنبل ؛ الذي امتنع من الاعتراف بذلك المنكر ؛ فعقد له مجلس للمناظرة دام ثلاثة

خارجا نحو المقبرة ، فنثر خلف المسك على جدث القاضي ، ورجع بالاكفان ؛ وحضر الدفن الامير زيادة الله وعزى اخاه واهل العلم فيه ، وقال لمن حوله « لو اراد الله بكم يا اهل القيروان خيرا لما اخراج ابن ابي محرز من بين اظهركم » .

وفي نفس هذه السنة ٢٢١ (١) توفي زهير بن عوف امير صقلية وقد سجل اسمه على صفحات المجد بجلائل اعماله .

ابو الاغلب ابراهيم بن عبد الله بن الاغلب

ولى اماره صقلية عند موت زهير بن عوف ، وامر المسلمين في نمو ، وسلطانهم في تمكين وحول وقوة ؛ وكان الروم لا يرالون متحصنين في الخط الدفاعي الذي اسلفنا ذكره ؛ فكانت حمة الوالى الجديد متوجهة نحو ذلك المثلث يريد نفسه ، حتى يصفوا امر الجزيرة للمسلمين لا ينازعهم فيها منازع .

الحرب البحرية - رأى ابن الاغلب ان الروم يعتمدون على البحر اكبر الاعتماد ، والنجدات ترد اليهم تباعا على متن الامواج فايقن ان القضاء النهائي على المقاومة الرومية لا يقع الا بعد القضاء على مراكز تموينهم ، وقهر الاسطول الرومي والسفن التى تعمل على انجادهم .

لذلك كانت اعمال ابى الاغلب الاولى منحصرة ضمن المنطقة البحرية ، فسير سفائنه تجوب عرض البحار المحيطة بالجزيرة ؛ ولقى هنالك اسرابا من سفن الروم فنازلها وحطم الكثير منها واستولى على عدد كثير ضمه الى عمارته ؛ واصبح للاسطول الاسلامي الصقلي اثر هذه الوقائع سمعة ادخلت الرعب فى قلوب الاعداء .

ايام ؛ وضرب ضربا مبرحا الى ان اغمى عليه وهو صائم ، ومات رضى الله عنه شهيدا من جزاء ذلك . ثم استعمل المعتصم بالله عيسى بن القا من الاتراك لاجل المحافظة على العترة ، فقدت الدولة بذلك وحدتها ، ودخل عليها العامل الذي ادى فيما بعد لهلاكها ، اذا استقى بالكم فيها الاتراك ولم يتركوا للخليفة الا الاسم ؛ وانتشرت دولهم بعد ذلك فى كل بلاد العرب بآسيا ، كما سترقى فى تعليق آخر .

ولقد اغتنم ابو الاغلب فرصة تغلبه البحرى فانزل كتائب من الجند الاسلامى تحتل اغلب الجزائر الواقعة شمال صقلية وغربها ؛ وقد كانت مكانا من اللروم ومراكزهم لتموينهم .

وقائع قصر يانة - فى سنة ٢٢٢ (٨٣٦ م) ، فتح القائد الفضل بن يعقوب حصن مندار Tindars تكن المسلمين بالجزيرة ما كان ليصفو لهم الجو ، وعلى يمينهم معقل كمعقل قصر يانة ، يقضى مضاجعهم ويهدد امنهم بصفة مستمرة ؛ فكانت الجهود تبدل من جانب المسلمين باستمرار لمحاولة احتلال قصر يانة ، كلهم ذلك ما كلهم من جزيل التضحيات .

ولقد كان الروم وكانت الجموع المسيحية تعرف أهمية قصر يانة ، وتذكر قيمتها الحربية ؛ وهى اشبه ما يكون بخنجر ممتد نحو قلب المراكز الاسلامية ، وتذكر فوق ذلك قيمتها الادبية ؛ فهى تمثل رمز المقاومة المسيحية بهاتيك الدينار .

هانج المسلمون مرارا قصر يانة ؛ واخفقوا تحت جدرانها مرارا ؛ وما صدمهم الاخفاق عن موالات الهجوم ، ولم تكن عزيمة المسلمين هنالك عزيزة الروم ؛ فجمعا اشتد اولئك فى الهجوم العنيف اشند هؤلاء فى المقاومة الباسلة ، والتقت هنالك وجهها الى وجه بطولة المسلمين وبطولة الروم ؛ وسجل الفريقان على ميدان الفروسية والشهامة حقائق فخر لا تبليها الايام . ولقد احتل المسلمون قصر يانة احتلالا مؤقتا له قصة طريفة سنة ٢٢٣ ذلك ان ثمة من الجند الاسلامى كانت مرابطة تجاه المدينة لاهى تستطيع احتلالها ولا الروم يستطيعون ابعادها . وفى ليلة من الليالى كان احد المسلمين يقامر منفردا تحت جدران المدينة يطوف حولها واذا به يجد ثغرة وليس عليها حرس من الروم ، فانطلق يعدو الى حيث معسكر المسلمين واخبرهم بالامر فتناولوا سلاحهم وانطلقوا خلفه الى حيث تلك الثغرة فاجتازوا منها الى المدينة

(٩) فى منتصف هذه السنة توفى بالقيروان ملكها العظيم زيادة الله بن الاغلب الكبير بعدما

والروم في غفلة ، وما شعر هؤلاء الا واصوات التكبير والتهليل قد تصاعدت الى عنان السماء ، وقد ملك المسلمون المدينة فانسحب الروم الى بعض البروج وتحصنوا بها ، وامن المسلمون سكان المدينة على انفسهم واموالهم ؛ ثم انسحبوا منها بعد حين ، نظرا لقلة عددهم وكثرة الروم المحيطين بها ، ورجعوا الى مراكزهم الاولى وعاد الروم للتحصن بها من جديد .

المسلمون في ايطاليا الجنوبية - وفي سنة ٢٢٣ (١) حيث كانت تجري هذه الوقائع في داخل الارض الصقلية ؛ كانت انظار المسلمين تتجه الى ابعد من ذلك ، كانت تتجه صوب البلاد الطليانية محاولة فتحها ومهاجمة الفسرة الاربوية من الوسط ، فان ابا الاغلب ارسل باسطوله العتيد نحو بلاد قلورية يحمل جندا مدريا ، فهزم الاسطول ما ثقيه في طريقه من مراكب المسيحيين ونزل الجند الاسلامي في جنوب ايطاليا حيث سجل صفحة من غريب صفحات التاريخ لاسلامى بالارض الاربوية .

لقد كان المسلمون ينتهزون الفرص للوثوب على الارض الطليانية بصفة قوية تمكنهم من فتحها والاستقرار بها ؛ ونشر انوار المدنية الاسلامية على انقاض ظلمات القرون الوسطى .

وفي هاتيك الاثناء كانت مملكة نابولي الطليانية تجارب امارة بينفان Bénévent حارثها ؛ وكانت هذه الامارة قد تغلبت على جند نابولى ، فارسل ملكها رسلا الى بالرمة يستنجدون ابا الاغلب ضد خصمهم ، ورأى هذا ان الفرصة سانحة للتدخل في سياسة البلاد الطليانية فارسل فرقة من الجند الاسلامي اشتركت مع جند نابولى في محاربة امارة بينفان ؛ الى ان غلبت هذه الامارة ؛ ورضيحت لشروط الصلح ؛ واصبح المسلمون يومئذ حلفاء لمملكة نابولى ، ورأى رجال هذه الدولة ما تلمسهم من قيمة في ميدان العلم

ومند سلطان الدولة على اسس مبنية بالبريقا وصقلية ونظم دولته ناحس تنظيمها . . وكانت ايامه ازهر ايام الدولة الاغلبية .

والعمران ، علاوة عما كان لهم من قيمة في ميدان الحرب والطعان : فانفتحت في وجوه الرواد المسلمين ابواب المملكة ، وكانوا يحملون معهم رايات المدنية والعلوم والفنون ؛ وكان ذلك هو حجرة الاساس في تكوين عصر النهضة باروينا (La Renaissance).

ولقد كان المسلمون المغاربة قد نزلوا ارض قلورية بالجنوب الطلياني سنة ٢١٩ (٨٣٤) واستولوا على مدينة طارنطة Tarente واتخذوها مركزا لأعمالهم ، ثم ارسلوا غزواتهم البحرية حتى مصب نهر بو في شمال إيطاليا ، وانتظم ومثذ امرهم بالبلاد واتخذوا مدينة باري عاصمة لآماراتهم التابعة راسا لبلاط القيروان ، وجهزوا اسرابا برا وبحرا لفتح مدينة رومة فتمكنوا من ارباضها وبعض قلاعها ، لكنهم تخلوا عنها في آخر الامر لخلاف شجر بينهم وانسحبوا الى امارتهم .

امارة باري المستقلة

وفي سنة ٢٣٨ (٨٥٣) ، اثر هذا الاخفاق ، اعلن مفرج ابن سليمان عامل الاغالبية ، استقلاله بالجنوب الطلياني في مدينة « باري » وحارب الامارات الطليانية المحيطة بامارته فدحرها ووسع املاكه ، واتخذ من مملكة نابولي حليفا وفيما ، وكانت مراكبه قوية جريئة دحرت اسطول الروم القادم لاسترجاع البلاد واضطرت له للرجوع على اعقابيه ، ثم احتل مدينة اورترنت Otrente ومدينة كالياري Carigliari ووضع بهما جاليات اسلامية ؛ ونصب الحصار على مدينة قابو Capoue اما لم يتمكن من احتلالها وهكذا دانت لامارة مفرج بن سليمان حول مدينة باري كامل البلاد الطليانية الجنوبية (١) . فتح مسينا - كان الروم قد استرجعوا مسينا من يد المسلمين ، وكانت هذه المدينة همزة الوصل بين صقلية وايطاليا ، فتمكن الروم من البقاء بها معناه انقطاع الصلة بين شطري الواجهة الاسلامية ، لذلك سار

(١) انظر الفصل : استطراد عن اعمال المسلمين بجنوب إيطاليا ، فيما يلي .

القائد الفضل بن جعفر على رأس جند عنيذ ، فحاصر مسمينا وثبتت امامه ثباتا عجيبا ! وكان يقاتلها من جهة البحر ، فارسل فرقة من جنده هاجمتها على غفلة من ورائها من جهة الجبال ، فتمكن من احتلال معقلها ، فاستسلم مقاتلوها وطلبوا الامان فامنوا .

فتح لسي - سار الفضل بن جعفر اثر ذلك قاصدا مدينة لسي ، وكانت حصينة متينة التحصين انما كانت حاميتها قليلة العدد ؛ فعندما رأى اهلها قدوم الجند الاسلامي استعرجوا بطريق قصريانة طائفين منه النجدة فراسلهم يقول انه متجدهم بمدد وانهم متى رأوا نارا او قدت على الجبل المشرف على المدينة فعليهم ان يفتحوا بابها في وجه النجدة القادمة لنصرتهم .

هل وقع الرسول والرسالة في يد القائد الفضل بن جعفر ، ام كانت له عيون اخبرته بذلك النبا ؟ الامر المحقق هو انه علم جلية الخبر ، فاعد جنده ليلا واوقد على الجبل نارا ، ففتح اهل المعقل ابواب حصنهم وخرجوا للملاقات النجدة فما راعهم الا والجند الاسلامي يهاجمهم من كل جهة ويقتحم عليهم الابواب ويستولي على المدينة وعلى حصونها ؛ وكان ذلك سنة ٢٣٢ (٨٤٦ م) (١) .

واستمر الامير المعظم ابو الاغلب ابراهيم يدير امارته بهجة عالية ويؤتي اعماله بين قطبي السيف والقلم الى ان توفاه الله سنة ٢٣٦ ؛ وقد كان شهما كريما جوادا وهو ابن اخي الملك زيادة الله ؛ وقد قص علينا ابن الخطيب في كتابه اعمال الاعلام قصة ترمينا مثالا من جهوده وشهامته ، قال :

« يحكي من اخبار كرمه انه اشرف يوما من دار الامارة فرأى امرأة قد صيات فرخين ونظفتها وطبختهما طبخا محكما ؛ فلما انزلت القدر وقد ادركت

(١) انتهت بغداد فتنة القول بخلق القرآن ، وقد رأى الخليفة الواثق بالله في آخر ايامه ان هذه البدعة لم تلق اى نجاح وانها اوقعت العداوة والبغضاء بين المسلمين ؛ وقد انتهت الفتنة على يد الشيخ ابي عبد الرحمن الاسدي ؛ شيخ ابي داود والكساني ؛ اثر مجلس مناظرة شهير . وان الواثق قد بيض صفحة تاريخه بترك القول بالقرآن فقد سودها بوضعها في بغداد الى جانب الخليفة ؛ سلطانا من الترك اليسه بيده الناج وجميل له الحكم المطلق ؛ فنسب بذلك سلطة بني العباس ، بل نسب سلطان العرب الى قرون عديدة ، بصفة فعلية ، وكان الواثق اعلم

دعا بعض فتيانه واره الدار وقال اذهب فاجعل القدر فى قفّة وجنى بها ،
ففعل واكل منها • ثم امر بفسل القدر ففسلت ؛ وامر بكيس دنائير ففرغ فى
القدر حتى امتلأت • وقال للفلام امض بها فاجعلها فى يد المرأة ولا تقل لها
شيئا ففعل وارتدت المرأة ان تطبخ بها شيئا آخر فكشفتها فاذا هى مملوءة
دنائير •

العباس بن الفضل بن يعقوب بن فزارة

ويعرف بابن بربر

كان فى صقلية عين الاعيان ، وكانت له الصدارة والامارة والمقام الاول
اثناء ولاية الامير السالف الذكر ، اى الاغلب ابراهيم •

فما كاد هذا الراحل الكريم ينتقل الى جوار زبه ، حتى اجمع اهل صقلية
امرهم على توليته الامارة ؛ وبايعوه على السمع والطاعة ، وارسلوا وفدا منهم
الى القيروان يطلب الى اميرها محمد بن الاغلب المصادقة على ذلك الاختيار ،
ونال الوفد مرغوبه فرجع الى العباس بن الفضل بعهد الامير الاغلبى على ولاية
صقلية •

فتح قصر يانة = كانت هبة العباس متوجهة لانجاز الفتح ، واستخلاص
البقية النابقية من جزيرة صقلية بايدى الروم والمسيحيين ؛ وعيهات ان يتم
ذلك ما دام هؤلاء يعتززون بصياصيتهم فى قصر يانة ، ويتحدون من تلك الاعاى
سلطان المسلمين •

كانت قصر يانة ميدان حرب وجلاد منذ عشرات السنين ، وكان الله كتب
للمسلمين ان يفتحوها نهائيا كما فتحوها اول مرة بواسطة التسلل من نقرة

الخلفاء بالغناء ! وقد وضع نحو المائة صوت وله الف ابو الفرج الاصفهاني كتابه الشهير « الاغانى » ،
فهذا الانبىاس فى الترف والرفاعية وحياة النعيم فى القصور ، بين الجنود وكؤوس النبيذ
والآلات الطرب ، ووضوح الحسن ، كان من اعظم اسباب انهيار الدولة العربية ؛ وقيام الدولة
التركية على انقاضها ، فى كل ربوع الشرق •

الى داخلها ؛ واليك البيان :

قبضت سرية من سرايا المسلمين عددا من الاسرى ، ورأت ضرب اعناقهم ، فقال احدهم وقد تولاه الجبن واستولى على نفسه الصغار : استبقوني وان لاميركم عندي نصيحة تمكنكم من فتح المدينة ؛ فساروا به الى العباس فاستفسره عن جليلة الامر ، وكانت النتيجة ان الحائن اخذ الامان لنفسه وآله وذويه مقابل السير مع الجند الاسلامي ليريه طريقا سرياً يمكن منه ولوج المدينة دون انتباه الحراس .

بادر العباس بارسال كتيبة من المقاومة ، تحت امره عمه ، والعلج الحائن يدلهم على الطريق . حتى اوصلهم الى قناة يخرج منها ماء المدينة ، فاجتازوا تلك القناة حتى اصبحوا داخل المدينة ، ثم انتشروا الى الابواب فاعملوا السيوف في رقاب الحراس ؛ وكانت جموع الجند الاسلامي مستعدة للحملة من الخارج ، ففتحت الابواب ودخلها المسلمون ، وراى المدافعون عن المدينة ان المقاومة أصبحت لا تجدى نفعا فاستسلموا للاسر ، والقوا بالسلاح بين ايدي الغائبين ، وكان ذلك في منتصف شوال سنة ٢٤٤ (٨٥٨) ؛ وجاء العباس بنفسه الى قصر يانة فاسكن بها المسلمين وأمر ببناء مسجدها ، وحضر افتتاحه وأدى به فريضة الجيعة .

محاولة فتح رومة - راي العباس من توافر القوة بين يديه ، واجتماع الناس عليه أن القرصة قد سنحت لضرب المسيحية الضربة الحاسمة وانجاز العمل الذي فشل فيه المسلمون منذ سنة ، الا وهو فتح رومة .

ففي سنة ٢٤٩ : جهز العباس اسطولا ضخما يحمل جندا عتيذا وسنيرة لانجاز ذلك العمل فنزل الجند الاسلامي عند مصب نهر التيبر ؛ واحتل

وكان السائق اعلم الخلفاء بالفتاء ؛ وقد وضع نحو المائة صوب وله الف ابو الفرج الاصفهاني كتابه الشهير « الاغانى » . فهذا الانفاس في الترف والرفاهية وحياة التخم في القصور ، بين الجوارى وكؤوس التيبي وآلات الطرب . ووضع الانسان ، كان من اعظم اسباب انهيار الدولة العربية ؛ وقيام النول التركية على انقاضها ، في كل ربوع الشرق .

مدينة أوستى وأخذ يستعد للهجوم النهائي .

الا ان المسيحية التي شاهدت الخطر منذ سنة : وايقنت ان المسلمين سيعيدون الكرة لا محالة : كانت مستعدة لتلقى الصدمة وكان الاسطول المسيحي قويا عتيذا : فما كاد المسلمون يباشرون هجومهم حتى بدت في الافق طلائع اسطول العدو وعلمت قيادة المسلمين انها لا تستطيع ان تقهر الاسطول وترده على اعقابها : وانها لا تنجو من كارثة وبيلة الا بالانسحاب السريع ، فالقت امرها الى الجند الاسلامي بالرجوع الى مراكبه واستطاعت بهارة غربية النجاة من العدو المحدث بها اذ تسلمت من بين مراكبه فلم يستطع ان ينالها بسوء واخفقت الحملة على رومة مرة اخرى .

محاولة فتح كريت - سار الاسطول الاسلامي تحت امرة اخي العباس يؤم سواحل المتوسط الشرقي ، لبسط سلطانه على انقاض سلطان القسطنطينية وليفتك منها سيادة البحر .

حط الاسطول مراسيه حوالى جزيرة اقريطس وناوشها القتال ، فكانت قوية على الدفاع وكانت مستعدة لتلقى الصدمة : فاكثى الاسطول الاسلامي الصقل بضربات اصاب بها اسطول العدو ، ورجع لصقلية عائدا بغنائم واسلاب .

انهزام الروم في البحر - كان لالتصار المسلمين بقصر يانة واندفاعهم الجريئى فى غمار البحر المتوسط اثر عظيم فى نفوس الروم : وقد علمت القسطنطينية انها ان لم تقض على هذه الدولة الناشئة فى صقلية فان نفوذها سيتقلص نهائيا عن حوض البحر المتوسط الغربى : لذلك جهز الروم

(٩) نوع من السفن الثقيلة يدعى بالفرنسية Chaland وقد استعمل العرب هذه الكلمة ونجات يلقونها فى كتب التاريخ كابن خلدون وابن الاثير وغيرها .

اسطولا يجمع ثلاثمائة شلندي (١) يحمل نجات قوية ، وارسلت به مددا لمدينة سرقوسة ، ليحميها من غارات المسلمين ؛ وليمكن الروم من اعادة الكرة واسترجاع البلاد .

لكن سيادة البحر كانت قد انتقلت نهائيا من ايدي المسيحيين الى ايدي المسلمين ؛ وكان العباس ورجال البحر بالمرصاد ، فصد الاسطول الاسلامي لاسطول الروم وابدى كل من الفريقين اقصى ما لديه من مهارة المناورة ، وانتهت المعركة بنصر اسلامي مبين ؛ اذ استولى المسلمون على مائة من مراكب الاعداء ، ولاذ الباقيون بالفرار راجعين الى بلاد الروم . ويقول ابن الاثير ومن نقل عنه من المؤرخين ان ذلك النصر العظيم لم يكلف المسلمين من الخسارة الا ثلاثة رجال فقط اصيبوا بالنشاب ؛ على انني لاحظ ان في هذا الخبر مبالغة لا تخفى على بصير ، اذ لا يعقل ان معركة بحرية تسفر عن اسر مائة سفينة وانهازم مائتين آخرين لا يخسر المنتصرون فيها الا ثلاثة من الشهداء .

بعد هذا النصر العظيم عزم العباس فتح سرقوسة وتحطيم آخر امل للروم في البلاد ، فسار اليها على رأس الجند الاسلامي ؛ لكن المرض اعتراه وهو على مقربة من المدينة ؛ فاسلم روحه لبارئها في ذي الحجة من سنة ٢٤٧ (٨٦١ م) (١) وانطوت بموته صفحة من اجمل وازهر صفحات الجهاد في سبيل التوسع والنزول والمدنية ؛ ودفن بموقع استشهاده ، فنبش الروم قبره واخرجوا جثته واحرقوها بشغفيا وانتقاما .

عبد الله بن العباس بن الفضل

اجمع المسلمون امرهم يومئذ على تولية ابنه عبد الله ، كما اجتمعوا من

(١) في هذه السفة قتل في بغداد المتوكل على الله ؛ قتله قائد الترك (بنو) مع وزيره الفتح ابن خاقان ؛ (غير صاحب كتاب فلائذ العقيان) ؛ وقد اصبح الترك يومئذ استحباب القول المطلق في بغداد ، وتولى بعده المنتصر بالله ؛ فكان كما قيل فيه :

غنيمة في قصص بين يمين و (بنو)
يقول ما قتالا له كما تقول البقاء

قبل امرهم على تولية العباس مكان ابيه ؛ فاستلم عبد الله زمام الحكم من يد الامة وقد كان في حياة ابيه العظيم معوانا له في حروبه واداراته . واخذ يستعد لاختضاع سرقوسة وينازل قلاع الاعداء .

على ان الوفد الذي سار الى القيروان يطلب من اميرها المصادقة على تولية عبد الله الامارة مكان ابيه لم يلق بها النجاح الذي من قبل وفد الصقليين عندما طلب المصادقة على تنصيبه العباس بن الفضل

ذلك ان بلاط القيروان ادرك مقصد الصقليين ، وعلم انهم ارادوا هنالك الاستقلال بامرهم تحت اشارة عائلة ابن الفضل ، يتوارثونها خلفا عن سلف وبذلك تنقلص سلطة القيروان شيئا فشيئا ؛ فامتنع عن المصادقة ، واصدر امره لعبد الله بترك البولاية ، بعد ان شغل مركزها السامي خمسة اشهر ، سائرا فيها سيرة ابيه وجده ، مواليا للجهاد ، ساهرا على امور الرعية فصدع بالامر عن غير مضض ، واصبح اكبر انصار الوالي الجديد .

خفاجة بن سفيان

قدم الى صقلية في جمادى الاولى من سنة ٢٤٨ (٨٦٢ م) . وكان شهيدا على الهمة طويل الباع في السياسة وفي الحرب ؛ واتخذ لنفسه من ابنه محمد ، والولد نسخة من ابيه ، عضدا متينا يخضع به شوكة الاعداء ويدير بواسطته سياسة الملك .

ابتدأ اعماله الحربية في الناحية التي بقيت بيد المسيحيين في شرق الجزيرة ؛ باحتلال مدينة نوطس (نوتو) مضيقا بذلك الحصار على مدينة سرقوسة التي كانت رافعة علم المقاومة بتلك الانديار ، وكانت آمال الروم وآمال سائر المسيحيين في استرجاع الجزيرة الصقلية معلقة عليها .

المراة في السياسة - لم تقم المراة المسلمة بدور مباشر كبير في السياسة العامة ، وكانت قصارى جهودها من تلك الناحية هي بسط السلطان على قصور الامراء والوزراء والقواد ، والاستحواذ بتلك الصفة على النفوذ

المطلق وتوجيه السياسة العامة حسب ما يترأى لها من مصلحة خاصة او نفع عام ؛ على ان التاريخ ضيق بسر هاتيك الحوادث الا ما ذاع واشتهر منها .
لكن من نوادر المسلمين فى جزيرة صقلية ان امرأة مسلمة شاركت بصفة فعلية فى عمل سياسى كبير ، وارسلت فى سفارة ومهمة شاقة .

كان اهل طرميس يوالون القتال ضد المسلمين ، وكانت معاقلهم من امنع المعاقل واشدها مراسا . ولقد حاول المسلمون مرارا ان يدكروا اسس هاتيك الضياصى فما استطاعوا لذلك سبيلا . واخيرا اظهر المسيحيون هناك جنوحا للمسالمة والتسليم ، وارسلوا الى خفاجة يطلبون اليه ارسال وقد يفاوضهم ويضع معهم شروط الاستسلام فارسل اليهم امراته واحد ابناؤه . ولا ريب ان امرأة مثل هذه المرأة تسمير بمثل هذه المهمة فتخترق ضياصى الاعداء ومعاقلهم وتفاوضهم فى عقر دارهم تطلب اليهم الازعان والاستسلام لهى من مفاخر الجنس اللطيف وهى من كرائم السيدات المسلمات اللاتى يجب ان يحفظ التاريخ ذكرهن انعاطر الحسن . وهى مع ذلك عنوان ازدهار المدنية ، وبلوغها اوج القمة ، ودليل قاطع على ما احرزته السيدة المسلمة من قيمة عليا فى المجتمع الزاهر تحت الراية الاغلبية بافريقيا او بصقلية .

نجحت السفارة نجاحا كبيرا . وكان القوم قد تأثروا بذلك المعنى البديع اللطيف الذى احتوى عليه ارسال سيدة جبلت على الخير والاحسان والعطف ، فلبوا دعوته واذعنوا لامرها ، وسلموا مفاتيح المدينة لها فدخلها المسلمون صلحا .

لكن قضى الله ان تهلك المدينة على يد اشرارها . فنقضوا العهد بعد ميثاقه وثاروا بالمسلمين على حين غفلة فاخرجوهم غدرا واورسدا دونهم الابواب ونكلوا بمن بقى منهم داخل الجدران ثم اعتصموا بالقلع .

راى خفاجة يومئذ ان السكوت على مثل هذه الحديعة يعد ضعفا وهوانا . وانه ان ترك الامر بدون انتقام فهو يوشك ان يتخذ القوم نموذجا للانتقاض فى كل مكان ، فارسل ابنه المجاهد محمد ، على راس كتيبة من المسلمين

شديدة المراس ، فاحتل المدينة قسرا وسبى أهلها ؛ والفئنة لا تصيب الذين ظلموا خاصة .

مقاومة سرقوسة - كانت سرقوسة كما اسلفنا قوية منيعة ؛ وكانت محط آمال المسيحية بتلك الديار ؛ وكانت انقسطنطينية توالى انجادهما بالمدد رغم ما اصابها في ذلك الطريق من تكبات بحرية ؛ فاتجهت همه الامير خفاجة لقهر سرقوسة واتخاذ جذوة المقاومة فيها فرماها بغلظة كبده محمد ؛ على رأس جند قنوى ، واشتعلت بين الفريقين نار حرب عنيفة استبسل فيها المدافعون استبسالاً سيجل لهم صفحة من العزة والمجد .

وكانت الوقائع تترى عنيفة دامية ، منها وقعة الف فارس الشهيرة سنة ٢٥١ (٨٦٥ م) وتفصيلها ان الامير محمدا هاجم المدينة بعنف ، ثم اظهر الارتداد خدعة حربية ، وشراكا نصبه للمدافعين عنها فوقعوا فيه ، وخرجوا من معاقلهم يتتبعون الجند الاسلامي الذي اظهر الانهزام ؛ وكان الكمين الاسلامي يكتنف الطرق . فباشارة من القيادة انقض المسلمون من مكائهم على الاعداء المتتبعين فاطبقوا عليهم واسفرت المعركة عن قتل الف فارس من الروم .

وفي سنة ٢٥٤ (٨٦٨ م) ، سار محمد بقوة بخرا لئلا تزل سرقوسة . كما كانت قوته البرية تضيق عليها الحناق ، فالتقى في مياه المدينة بصارة كبيرة ارسل بها امبراطور الروم نجدة للمحصورين ، وكان الاسطول الاسلامي الصقلي قد تعود قهر اسطول الروم حيثما تقفه ، فاختلطت صواري المسلمين بصواري النصارى والتحمت نيران المعركة البحرية ، فاسفرت عن انهزام الروم ، وتركهم لاغلب سلاحهم ومتاعهم بايدي المسلمين ، وفُرت المراكب السليمة راجعة على اغقابها خاسرة .

وهكذا فت في عضد الدفاع السرقوسى بخرا كما فت في عضده برا ؛ واصبحت المدينة لا تستطيع الثبات في الميدان طويلا . لكنها صمدت بصفة بطولية على الدفاع الى آخر رمق ، ولم يكتب الله فتحها على يد خفاجة وابنه محمد .

حادثة طبرمين - كانت هذه المدينة من جملة قلاع النصارى التى صعب على المسلمين فتحها بالقوة ، فكانت المناوشات تتوالى حولها ، وكان دفاعها دفاع المستعيت .

جاء الامير محمد ، وصمم على فتحها ، فاصطنع رجلا من اهلها اعماه حب المال والجاه عن حب الوطن والتضحية فى سبيله ، فخان امته واصبح دليلا للمسلمين ، يسير بهم فى معابر سرية اوصلتهم الى داخل المدينة والتجست نيران المعركة هنالك .

راى المسلمون ان الامير محمدا لم يدخل المدينة ولم يكن الى جانبهم فاعتقدوا انه قد خيل بينه وبين الدخول وانهم اصبحوا مهددين بالحصر فانهزموا ورجعوا من حيث اتوا ، وكانت الفرقة التى يقودها الامير محمد بنفسه قادمة حينئذ لتجدة الذين دخلوا ، فلما راتهم خارجين اعتقدت انهم غلبوا على امرهم فتوقفت عن السير . واثنا ذلك الارتباك ، وقبل ان يعلم الفريقان المسلمان ان فى الامر غلطة يسيرة ، كان اهل المدينة قد تخلصوا من المسلمين فاوصلوا ابوابهم واعتصموا بأسوارهم ، وخابت المحاولة بعد نجاح فتح مالطة - كانت جزيرة مالطة معقلا من معقل الروم فى البحر المتوسط استولوا عليه سنة ٥٣٣ ، واصبحت حلقة وصل بين ممتلكاتهم فى الشرق ومطامعهم فى الغرب .

والجزيرة تمسح ٢٥٠ كيلومترا مربعا ، جيدة الهواء خضبة الارض طيبة المناخ واهلها من اصل سامى كنعانى لا ريب فيه ؛ لغتهم منذ القدم عربية محرفة وقد طبعهم الاحتلال القرطاجنى الطويل بطابع خاص دام معهم الى يومنا هذا .

(١) فى هذه السنة تولى الامير احمد بن طولون امر مصر ، وطولون كان ميلوكا تركشانيا اسرا ضمن معركة ، فاعجب به الخليفة المأمون ، وجعله من خاصته ورئيس حرسه ، وعندما ولى احمد امر مصر وكان اعلم الناس بضعف دولة بنى العباس : ورأى حالة مصر من جراء اضطراب الولاة ومواجهتهم ؛ اعلن استقلاله فى البلاد ومنع الخراج عن بنى العباس ؛ واستمرت دولته ٣٥ سنة الى ان اعاد العباسيون فتح مصر من جديد ؛ ومن مآثره مسجد ابن طولون العظيم .

فالامير خفاجة رأى انه لا يتمكن من ابعاد الروم نهائيا عن صقلية وفتح
أعاليهم منها وفهر سرقوسة الا باخضاع مالطة لسلطانه ، ومالك مالطة منذ
قديم الأزمان مهيمن على البحر المتوسط بأسره .

سار الامير حميد على رأس اسطول عتيق وجند عتيق ، فنزل مالطة ٢٥٦
(٨٦٩ م) (١) ، واتم استيلاءه عليها تلك السنة ، بعد ان دحر مقاومة
الاسطول الرومي ومقاومة الحامية اترومية ، ووجد المسلمون الافارقة والصقليون
انفسهم هنالك بين قوم كادوا يكونون من اهلهم وذويهم ! واستمر سلطان
المسلمين هنالك قابعا لأمانة صقلية ، مائتين وعشرين عاما (٨٧٠ - ١٠٩٠)
الى ان استخلصها منهم غزات النرمان عندما دحروا آخر مقاومة اسلامية في
جزيرة صقلية .

وفي السنة الموالية ، اي سنة ٢٥٧ ارسل الامبراطور الرومي اسطولا
ضخما يحاول به استرجاع مالطة ، وقد ادرك مدى الكارثة التي اصاب
الروم بفقدانها ، فجاء الاسطول الرومي يتباهى بقوة ومنعته ونصب حول
الجزيرة حصارا ، واخذ يستعد لانزال جنده يرفع فوقها اديمها علم
القسطنطينية .

حينئذ جمع الاسطول الاسلامي الصقلي رجاله وسفنه وسار نجدة الى
جزيرة مالطة ؛ ولقد علم الروم من قبل انهم مالمقوا اسطولا لمسلمي صقلية
الا وارتدوا امامه خاسرين ، وقد القي ذلك الاسطول الاسلامي الرعب في
قلوبهم واصبح منظره يكفي لهزم اعدائه قبل استعمال ناره واسلحته ؛
وهكذا كان . فانه لم يكد اسطول الروم يرى مراكب المسلمين قادمة نحوه ،
حتى نشر شراعاته واعمل مجاذيقه ، ولاذ بالفرار نحو الشرق . وصفا حكم
مالطة لامراء المسلمين .

محمد بن خفاجة

اثناء هذه المعارك وهذا الفوز المبين كان الامير خفاجة يسير مع جنده

واقبائه في طريق سرقوسة فاغتاله غدرا احد الجند . ولا ندرى ان كان ذلك نتيجة مؤامرة او عمل انتقام ، او دسيسة من الاعداء ، فقضى نجه رحمه الله بعد ولاية دامت سبعة اعوام كلها عمل وجهاد في سبيل الاسلام والمعرفة والمدنية .

اتفق المسلمون يومئذ واجمعوا امرهم على تولية ابنه الامير محمد مكانه ولقد كان القائم بأعباء الجهاد الى جانب ابيه . وسار وفد الى القيروان يطلب الى الملك الاغلبى محمد بن احمد المصادقة على تلك الولاية فلبى الطلب واصدر امره بإسناد امانة صقلية الى محمد بن خفاجة لانجاز ما كان قائما به من جلائل الاعمال .

وقد اولاه المسلمون امرهم في رجب سنة ٢٥٥ ووردت اليه الخلعة والعهد من القيروان يوم السبت لست بقين من رمضان من تلك السنة (٨٦٨) . وقد كان الامير رحمه الله يوالى استعداده ويجهز المسلمين للقضاء على ما بقي من صقلية بايدى الروم وخاصة مدينة سرقوسة التي كانت مطمح انظاره .

لكن مقتل الامير خفاجة كان قد احدث صدمعا عظيما في صفوف المسلمين ، ونشأت عنه ارتباكات عظيمة جعلت جهود الامير متوجهة لاقرار السلم وتمهيد الراحة بدل التوجه بكلية لانجاز الفتح . وما كادت تنقضي سنتان على ولايته حتى اغتاله نهارا ثلاثة من خدمه في رجب سنة ٢٥٧ . ولقد انفتحت بمقتل الشهيدين خفاجة وابنه محمد ابواب فتنة عمياء اصبحت في الجزيرة داء عياء كان اكبر اسباب انهيارها .

احمد بن عمر يحيى

وهو من رجالات العائيلة الاغلبية . اولاه الامير ابراهيم بن احمد بن الاغلب امر صقلية ، فكان اول همه اقرار الامن وارجاع الطمانينة الى النفوس وازالة ما احدثه مقتل الاميرين وابيه خفاجة من جزع ومن ارتباك ، ومن

تستتت شمل .

لا ريب ان الامير احمد قد لقي نجاحا كبيرا في مهمته تلك فلم يسجل التاريخ في ايامه ازتيكا او اضطرابا ؛ وعاد الى سياسة الغزو والفتح ، جامعا بذلك كلمة المسلمين حول زاية الله .

ذهب في صائفة تلك السنة غازيا نحو سرقوسة فالتحق في الروم ، انما لم يستطع فتح المدينة ، ولا نصب الحصار بصفة ضيقة حولها فاكتمى بها غنمه من اطرافها ورجع الى قصر حكمه في بالرمة .

ثم خرج بنفسه في غزوة على رأس المسلمين ، فلقى جندا من فرسان العدو عند مكان يدعوه ابن الخطيب « قلعة نصر » وكان اولئك الفرسان قد انقضوا في بعض الجهات على المسلمين وغمبوا منهم مغنم كثيرة ؛ فالتحم احمد ومن معه في القتال مع الجند المسيحي ، فنكل به تنكيلا ، وانتزع من بين ايديه جميع غنمه من المسلمين ورجع الى بالرمة بالاسلاب والغنائم والاسرى ورؤوس القتلى لتعرض على الملا .

ثم جاءه من القيروان ، امر ابراهيم بن احمد بن الاغلب بعزله عن الامارة فاعتزلها ؛ وكان بذلك ابتداء عهد اضطراب جديد لم يكن مصدره صقلية نفسها بل كان مصدره عاصمة دولة القيروان ؛ اذ كان البلاط الاغلبى يقاسى يومئذ أزمة عنيفة ، وقد تولى عرش الملك ابراهيم الآنف الذكر ، وهو جبار عنيد طاغية شديد كان مصابا بنوع من الهستيريا الدموية ، يعيش تحت رحمة مالىخوليا مستمرة ؛ وسياتيك فيما يل شىء من اعماله الغريبة ، فلا غرو ان تسربت الى المملكة قاصيها ودانيها عوامل الشقاق والافتراق ، واخذ الصيادون في المياه العكرة يعملون اعمالهم وينصبون حبالهم ، واصبحت امارة صقلية خلال تلك الايام النحسة كرة تتلقفها الابدى وتلاعب بها الغايات .

جعفر بن محمد بن بربر

ارسله ابراهيم بن الاغلب واليا مكان احمد بن عمرو ؛ واستقر به المقام

في بالرمة ، واخذ يعيد النظام لبلاد تسربت اليها الفوضى واخذت تعمل بها عوامل الانحلال ، من جراء الانقسامات ، واهياء الخلافات العنصرية والقبلية . في هاتيك الاثناء ، كان الارتباك كما استلفنا سائدا في بلاد القيروان ، وكان ابراهيم الطاغية يقاسى ازمة عنيفة في داخل نفسه وفي بلاطه وبين آله وذويه ، وكأنه قد آنس من عائلته ميلا للتخلص منه ، فالتقى القبض على عمه الاغلب بن محمد واخيه الاغلب ابن احمد وابن اخيه احمد بن ابي عبد الله ، ووجههم الى صقلية مبعدين فحبسوا في دار الامارة عند جعفر بن محمد . ولقد كان احمد بن ابي عبد الله اكثر الاغلبية المحبوسين مكرا وذهاء ، واقدمهم على الاندفاع في طريق المغامرة ، فصانع هو ومن معه من رجال العائلة غلمانا للامير جعفر ، واطمحوهم بالمال والجاه ان هم قتلوه ، فترصدوا له حتى اذا كان خارجا للصلاة وثبوا عليه واسقطوه تحت ضرباتهم الفتاكة : واستولى احمد بن ابي عبد الله على كرمى الحكم ، مضطعا للرجال ، متقلبا على الامر .

احمد بن ابي عبد الله الاغلبى

ويلقب في عائلته باسم « خرج الرعونة » ولقد كان مقدما ، وسجل اسمه في صفحات التاريخ الصقلى ، رغم سفالة الوسيلة التى توصل بها الى الحكم ، وكانت له في الجهاد وانجاز الفتح اعمال باهرة . فتح سرقوسة - اتم تجهيز الجند الاسلامى : وسار على رأسه نحو مدينة سرقوسة . وقد عقد العزم على افثكاكها كلفه ذلك ما كلفه ، وكانت سرقوسة بعد ان قاومت جيوش المسلمين نصف قرن ونيف ، قد ضعفت تحت الضربات الفتاكة التى كملت لها من لدن الامراء السالفين ، وعلى الاخص الامير خفاجة وابنه محمد ، وكان الروم قد وضعوا شرفهم العسكرى بين جدران تلك المدينة ، فكانوا يوالون ارسال النجيدات والممدد . وما باعوا بانكسار وانهزم لهم اسطول الا واعادوا التكرة وارسلوا اسطولا آخر مما يعيد

الى اذهانتنا جهود قوطاجنة الجبارة التي ضاعفت سدى في تلك الجزيرة .

سار أحمد بن الاغلب بقوته العتيدة فخيّم حول المدينة وحاصرها وضيق عليها الحناق . وعلم أهلها ان الساعة الاخيرة قد دنت . فقاموا للدفاع البائس المستعيت يتفانون في الذود عن مدينة كانت في انظارهم تمثل الوطن ، وتمثل الدين ، وتمثل الذكريات القديمة من عهد ارخميدس وما قبله ؛ وبالله ما اروع البطولة وما اجمل ذكراها ايا كان مصدرها وأني كان القائمون بها !

استمر الحصار تسعة اشهر من اوائل المحرم الحرام الى اواخر رمضان سنة ٢٦٤ (٨٧٧) (١) ، ثم دهمها بخيله ورجله ورفع المسلمون عثرتهم بندايم الحربي الذي يسمو بهم الى عالم الارواح في اللأ الأعلى : الله اكبر : والتحصنت نيران معركة ربما كانت اكبر معارك صقلية وأكثرها هولاً ؛ فما انتهت الا بعد ان دكت الأسوار ، وسقطت القلاع ، وجندل من الإبطال المدافعين ما يزيد عن الأربعة آلاف كميّت ، وركب الباقون البحر مغامرّين فسرّاراً من الاسر والذل ، ودخل المسلمون المدينة مهلبين مكبرين ؛ قال ابن الخطيب في اعمال الاعلام : « وأصاب فيها من الغنائم ما لا يوجد في مدينة من مدن الشرك » .

بهذا النظر الباهر ، لم يبق للمسيحيين بصقلية الا الناحية الشرقية ، في شريط من الارض يمتد من شمال طبرعين الى جنوب قطانية يحتمون فيه وراء جبال الاتنا (جبل النار) ويستمدون فيه الاعانة مما يرد عليهم بحراً من بلاد الروم .

(١) في هذه السنة ، استقر الاتراك في بلاد الصين ، وتدخلوا في شؤونها وتوطد سلطانهم في كثير من الجهات التي هي الى يومنا موطن المسلمين الصينيين وذلك ان قسامترا تينبا (هوان تشاو) أعلن الثورة ، وتكن من اغلب البلاد ، من بكين الى كطون ، فاستعان امبراطور الصين ، بخان الترك السبعينغ فانجده بقوة كبيرة ، مهدت أمر البلاد ، وحررت الثائر ؛ واستلم الخان التركي ، مكافأة له على اعانته للامبراطور ، مقاطعة شانسي . واخذ ابن عمه ، مقاطعة لوتان ونشأت هنالك امارات تركية ، طبعت البلاد بظاهرها الى يومنا هذا ؛ حيث المسلمون يمثلون الغلبة سكان البلاد ، وحيثهم بقايا الترك ، ومن اسلم تبعاً لهم من الصينيين .

وكانت هنالك مراكز للمقاومة المسيحية بالشمال الغربي من الجزيرة حول مدينتي طرابنة ومرسلا - وقد اهل المسلمون شأنها ، ولم يعيروها كبير اهمية ، وجهين اكثر عنايتهم للناحية الشرقية - فلما فتحوا سرقوسة وجهوا انظارهم نحو الناحية الغربية كما سينر بك فيما بعد -

اقام احمد بن الاغلب بسرقوسة شهرين ، ثم كتب اليه عمه الاغلب يشير عليه بتهديبها ، كما امر حسان بن انعمان من قبل بتهديب ما بقى من قرطاجنة ، حتى ينقطع آخر امل للروم بتلك الديار ولا يجدوا موقلا ياورهم ان حاولوا النزول للبر ؛ ثم رجع لبارمة لكن مقامه لم يطل هنالك اكثر من شهرين ، وما اغنى عنه انتصاره بسرقوسة شيئا ، فان اهل بارمة اعنى كبار النجوم واصحاب الحل والعقد بها راوا من اختلال الادارة على يد احمد وعمه الاغلب ومن معهما ما جعلهم يقبضون عليهما ، ويرسلون بهما مصفدين الى القيروان ، وماذا كان ينتظرهما هنالك على يد التمر المتعطش للدماء ابراهيم بن الاغلب ، غير السيف والنطع ؟

اضطراب الامر

اضطراب امر الولاية بصقلية اثر هذه الحوادث اضطرابا غربيا ، فكان ابراهيم بن الاغلب يولى ويعزل حسب اهوائه وشهواته ، او حسبما تمليه عليه مصلحة الدولة ، وكان اهل صقلية منذ مقتل خفاجة ، قد انفوا نوعا من القوضى ، واصبحوا يريدون التحكم فى الولاة ويريدون ان يسير اولئك الولاة حسب اهوائهم واغراضهم ؛ وكان الولاة لا يستطيعون فى الغالب التوفيق بين رغائب اهل صقلية ورغائب بلاط القيروان وتنفيذ آرائهم الخاصة ، فانبعض منهم كان ينور به الصقليون فيرجعون الى القيروان ؛ والبعض الآخر كان يعزل ابراهيم ويرسل غيره مكانه ؛ والحق ان بنيان الدولة الاغلبية كان قريبا من الانهيار ، وكانت سياسة ابراهيم الثانى قد اصابته الدولة فى مقاتلتها ، فاستمر امرها يسير الى الضعف والانحلال حتى الموت رغم ما كان يبدو عليها بين حين وآخر

من وثبات في سبيل الحياة هي اشبه شيء برجفة المحتضر .

الحسن بن رباح

من اجدد هؤلاء الولاة بالذكر ، الحسين بن رباح ، فانه تمكن من جمع الجند وتوحيد الكلمة الى حين ، ونازل مدينة طبرمين ، رائيا بذلك القضاء على الناحية الشرقية الرومية ، فائنخ في اهل المدينة وقتل البطريق الرومي الذي كان يحكمها ويقود حاميتها .

تكبلة بخرية - ولقد سرى داء الانحلال في الجسم الاسلامي بصقلية ، فضعفت النفوس ، وكادت تخبو جمرة الايمان ، وفقد رجال البحر قوتهم الروحية التي كانت اساس انتصارهم وبعث الرعب في قلوب اعدائهم ؛ وكانت نتيجة ذلك ان منى الاسطول الاسلامي بصقلية بتكبلة كانت وحيدة في بابها .

ذلك ان الحسين بن رباح سير اسطوله غازيا سنة ٢٦٦ ، فلقى اسطولا للروم مؤلفا من ١٤٠ سفينة ، والتحم القتال شديدا بين الطائفتين ، فغلب هذه المرة اسطول الروم ؛ وترك المسلمون سفنهم ومتاعهم غنيمة للعدو ، ورجعوا عن طريق البر منهزمين الى صقلية .

الحسين بن العباس

جاء واليا سنة ٢٦٧ ؛ ورجع للقبروان معزولا سنة ٢٦٨ ؛ اراد التضييق على الروم المحصورين في قطانية وطبرمين ؛ ولم يتجح في ذلك كثيرا ، اذ ان الروم اغتتموا فرصة الانحلال الذي ظهرت آثاره جلية في الادارة الاسلامية فاصبحوا يخرجون من بين جدران قلاعهم سرايا تضيق على المسلمين كثيرا ؛ وتغنم منهم المتاع والاسلاب والاسرى .

لكن همة الحسين بن العباس كانت متوجهة الى تهديد الامن واصلاح الحالة العامة ، وقد نجح في ذلك خلال السنة التي بقى فيها على رأس الادارة

الاسلامية نجاحا كبيرا .

ابو الحسن محمد بن الفضل

ولى الامر سنة ٢٦٨ ، وكان الامن قد استتب والراحة قد تنهدت بفضل جهود الحسين ابن العباس : فاخذ الوالى الجديد يستعد لدحر قوى الروم التى كانت تعيش فى الارض فسادا عندما آنست من المسلمين ضعفا وافتراق كلمة . اتجه على راس القوة الاسلامية ، يريد جموع الروم فى معقلهم الجديد (قلعة الملك) وكان ذلك المعقل هو الذى يقض مضاجع المسلمين ، ويشحن فيهم حيناً بعد حين ، فالتقى الجمعان على مقربة من المعقل . وكانت طمانينة الايمان قد رجعت الى نفوس المؤمنين ، فثبتوا امام الاعداء واجتهد فراسهم الى ان انتهت المعركة بنصر عظيم ، وخسر الروم ما يزيد عن الثلاثة آلاف من القتلى انتشرت اجسادهم فوق ميدان القتال ثم سار المسلمون نحو (قلعة الملك) فاحتلوها وثبتوا بها الاقدام ، وتركوا بها حامية قوية ، ثم رجعوا لبالرمة تخفق على رؤوسهم اعلام النصر .

ثم فى سنة ٢٦٩ سار على راس الجند الاسلامي يريد تحطيم مراكز الروم فى الناحية الشرقية ، فالتقى بجند العدو وناوشه القتال ، واخترق فى بعض الاوقات صفوفه حتى وصل تحت جدران قطانية ؛ لكن المدينة استعصت عليه ، وكذلك كان امر رمطة فلم ينل منها متالا ، واكتفى بما استحوذ عليه من غنائم واسلاب ، ورجع لبالرمة فى ذى الحجة من تلك السنة . وقضى بقية ايامه ساهرا على امور البلاد مديرا سياسة الملك ، ممعنا فى اعمال العمران والرقى المادى الى ان عزل عن الولاية سنة ٢٧١ فى ربيع الاول . وكان عزله نكبة على صقلية .

سواده بن محمد بن خفاجة

هو حفيد خفاجة بن سفيان والى صقلية الطيب الذكر ، وقد ارسل به

ابراهيم ابن الاغلب واليا في منتصف شوال سنة ٢٧١ بعد ما عزل عنها علي بن ابي الفوارس الذي لم تطل ايامه اكثر من سنة اشهر ، لم يذكر التاريخ عنها خيرا ولا شرا .

عودة الروم - اهم حدث سجله التاريخ في هذه الايام ، هو عودة الروم بقوة للميدان ، والتحام المعركة الحامية بينهم وبين المسلمين ، كان الروم قد راوا من اختلال الادارة في بعض الاحيان ومن تفرق كلمة المسلمين الناشئين عن اضطراب في سياسة البلاط الاغلبى نحو صقلية وتزايد الولاة وعزلهم حسب الاهواء والمصالح والاعراض ، راوا في ذلك ما جعلهم يعتقدون ان الفرصة قد سنحت لاعادة الكرة واستخلاص الجزيرة من يد المسلمين .

ابتدأت هذه الحملة الرومية الجديدة ، بعقد هدنة مع المسلمين كانت فيما اعتقد خدعة خربية ماهرة : وكان المسلمون قد ارتكبوا غلطة فادحة بقبولها ؛ وقد غرهم ان الروم اطلقوا سراح ثلاثمائة اسير من المسلمين في سبيل ذلك الصلح المؤقت ؛ وما كان ذلك الا استعدادا منهم لآخر عظيم ؛ فما كانت تنتهي الثلاثة اشهر ، حتى كانوا قد رتبوا امرهم بعد اختلال ، وحصنوا مراكزهم بعد ضعف ، وجاءهم المدد العظيم من القسطنطينية تحت امرة البطريق مجفور (Nice|ors) فانزل جنده البر ، دون ان يلقى اعتراضا من اسطول المسلمين ؛ وتقدم في جموع وفيرة العدد كاملة العدة ، فاستخلص من المسلمين مدينة سيرينة Santa Severina ومدينة منشية Amanée واشتد الخوف يومئذ على صقلية ، اذ كانت بنفسها وببجرد قواها لا تستطيع ان تصمد لزحف الروم اذا ما توالى فجدهم وباشروا اعمالهم بتلك الصفة . رأى اهل صقلية ان سوادة بن محمد تيس بالرجل الذي يصلح لادارة الملك والحرب في مثل هاتيك الاوقات العصيبة ، فاعلنوا خلع طاعته وارسلوا به صحبة اخيه واهله الى القيروان سنة ٢٧٣ .

والذي تجب ملاحظته هنا هو ان اهل صقلية كانوا اذا راوا خلع امير انتقادا لمصلحة عامة او اندفاعا مع غرض ، قبضوا عليه وارجعوه صحبة اهله

الى القيروان ليصنع به الملك ما شاء وليحاسبه على اعماله : فكانت هذه الطريقة تدل على مبلغ ما كان لهم من مهارة وحسن تدبير ، رغم القلاقل ورغم الاضطراب ، وما سلكه دم احد الولاة الا نادرا وعلى يد اوغاد من النصباء .

ابو مالك احمد بن عمر حبشي

هو من احفاد ابراهيم ابن الاغلب الكبير ، مؤسس العائلة : وكان عمدة في البلاط الاغلبى : ارسل به الملك ابراهيم الثانى عاملا على صقلية ، كانه قد اعتمد على جاهه وفضله ومكانته ، ليروجع الى القوس ثقتها ، وليثبت لاهل صقلية مدى اهتمام القيروان بها ، فكانت هذه الولاية اشبه بسفارة منها بامارة .

وتقد نجحت المهمة نجاحا كبيرا ، فهذهات النائرة واطمأنت الافكار : وعاد الامن الى نصابه وانتظر الناس الفرج القريب ، فى صورة مدد جسيم يقد من القيروان ويعين المسلمين على قهر شوكة الروم الذين كانوا يستعدون لامر عظيم .

وكان اهل صقلية قد طلبوا الى الملك ابراهيم ان يولى عليهم ابنه ابا العباس عبد الله لما يعرفون من مهارته فى السياسة وفى الحرب ، وكما املوا على يديه من انتقاذ الجزيرة تجاه الخطر الرومى ، وقد اعتقدوا ان الواند لا يعزل ولده فى مدة وجيزة ، ولا يبخل عليه بنجدة او مدد ، فستقر بذلك امور الادارة ويستقيم بذلك امر الجهاد ، وهكذا كان .

ابو العباس عبد الله بن ابراهيم بن الاغلب

ممثّل الدولة ونائب الملك

ولقد كانت امارة ابن العباس عبد الله امارة عامة تشرف على امور البلاد ، وتراقب سير الولاة : لاننا ان تصفحنا كل كتب التاريخ التى اوردت لنا

الاحاديث عن صقلية ، وخاصة ابن الخطيب في اعمال الاعلام ، وابن الاثير .
 وغيرهما رأينا ان الولاية كانت اثناء تلك المدة مداولة بين ابي العباس محمد
 بن الفضل وقد كان عزل سنة (٢٧١) (١) والحسن بن احمد بن نافذ ، فكان
 الامير ابو العباس عبد الله يمثل يومئذ ما يمكن ان نسميه باصطلاح اليوم :
 نائب الملك او المندوب السامي . فالاعمال التي سترها مينة اثناء ولاية
 هذين اتعاملين كانت تقع مباشرة تحت اشراف الامير ابي العباس عبد الله .
الانتصار البحري - ابتداء هذا العصر الجديد يظهر آثاره ، وقد كانت
 الحاجة ماسة لافهار القوة امام الروم والقيام بعمل يوقف تيار هجومهم المخيف ،
 من جهة : وامام المتزعمين ودعاة الشعب من جهة اخرى . فاول شيء اتجهت
 اليه همة نائب الملك هو اعادة النظر في امر الاسطول وتجهيزه من جديد
 بصفة تجعله قادرا على مقاومة العدو وكسر شوكلته : فبذل في سبيل ذلك
 هنة عاتية ، واطهر مراسا شديدا فبذلت النتائج الحسنة بعد حين .

ذلك ان الروم ارادوا أن يستثمروا فوزهم السالف فارسلوا نجدة ذات
 قوة وباس شديد : وكانوا يريدون بها القضاء نهائيا على ملك المسلمين بصقلية .
 لكن المسلمين كانوا هذه المرة على غير ما كانوا عليه في المرة السالفة :
 كانوا مستعدين يقظين منتبهين : فما كادت بوادر الاسطول الرومي تظهر ،
 وما كادت عملية انزال الجنود الى البر تبتلى ، حتى التحمت فوق اديم الارض
 وفوق عباب البحر معركة هائلة عنيفة ، لم يكن الروم ينتظرونها : وكانت
 تلك المعركة بالنسبة للمسلمين معركة فاصلة بين طريق الموت والحياة ،

(٢١) من اغرب ما وقع لبني العباس اثناء ضعفهم واختلالهم ان الزوج العبيد هاجنوا مدينة
 البصرة واجتلوها ، ثم تيقنوا على اعمالها ، فامعنوا في المرق والتهب والسلب وانتهاك الحرمات
 وسفك الدماء : وقتلهم العباسيون والحمد للركن مدة الى ان تمكنوا من القضاء عليهم في هذه
 السنة (٢٧٠) وقتل رئيسهم يهودا : وقد كان يدعى انه نبي مرسل ، وكان له منبر يصعد عليه
 ويمعن في سب عثمان وعلي وعاوية وطلحة والزبير : فلما قتل وانتهى امر الزوج ، ذنبوا
 ببداهة وطاقوا برأس يهودا على رمح . وسبب هذه الفتنة هو يؤس العبيد الزنج وكثرة عددهم
 في المزارع وحرمانهم ، فدعاهم للانتقام من يخفي المظالم السياسية تحت ستار الدين .

وكانوا يعلمون علم اليقين ان خسروها فسلام على صقلية ، وسلام على ملك وعمران وحضارة زاهية بها .

دامت المعركة أيلما ، وثبت المسلمون ثباتا مكنهم آخر الامر من الغلبة والفوز . وكانت كازنة الروم حائلة فظيعة ، اذ تركوا على اديم الارض ما يزيد عن السبعة آلاف قتيل ؛ وعندما راوا مدى الكارثة ، ولاذوا بالفرار الى ما بقي باسطا جناحي شراعاته من مراكزهم ، غرق منهم اثناء تلك العملية نحو الخمسة آلاف ؛ فرجعت بقايا الاسطول من حيث اتت ، واضطر الباقون من الروم والمسيحيين لاختلاء مراكزهم المتقدمة وما استولوا عليه من قلاع ومراكز المسلمين اثناء السنوات السالفة . وفرح المسلمون يومئذ بنصر الله . وقد وقع ذلك سنة ٢٧٥ (١) (٨٨٩ م) .

قلورية - كان الروم قد تحصنوا في ارض قلورية التي يفصلها عن صقلية مجاز مسينا . وكانوا يريدون بذلك ان يحولوا دون انتشار المسلمين في الجنوب الطلياني وان يقطعوا الصلة بين مسلمي صقلية ومسلمي ايطاليا ؛ وعلى الاخص كانوا يريدون ان يجعلوا من قلورية مركزا لمهاجمة صقلية ولامداد حاميات طبرمين ورمطة وغيرها .

فالمسلمون اغتنموا فرصة انتصارهم العظيم على اسطول الروم وعلى جندهم ، واغتنموا فرصة الفرز الذي ساد اوساط المنهزمين ، فجمعوا الاسطول والجند وهاجموا قلورية من وراء المجاز ، فاقبضوا بها اقدامهم ودحروا من تعرض لهم هنالك من الروم وجموع المسيحيين .

قدم صقلية هاتيك الاثناء محمد ابن الفضل واليا للمرة الثانية في الثاني من صفر سنة ٢٧٩ .

(١) في هذه السنة اكمل الامير اسماعيل زعيم بني سامان الفرس استقلال بلاد ما وراء النهر عن الدولة العباسية ، اذ ابتدا امره بالتمركز في بخارى واستمرقند ثم اعلن انضمام بلاد خراسان لمملكته ؛ واستمرت الدولة السامانية حاكمية تلك الناحية طيلة القرن العاشر الميلادي (٩٠٠ - ١٠٠٠)

وكانت الاعمال مستمرة على التوالي في شبه جزيرة قلورية الى أن أذعن الروم هنالك لعقد هدنة مدتها اربعون شهرا يحتفظ اثنائها كل من الفريقين بمراكزه على ان يطلق الروم سبيل ألف من اسرى المسلمين ، وان يرسل المسلمون بضع رجال بين عرب وبربر بصفة رهائن يقع استبدالهم كل ثلاثة اشهر .

فتنة عمياء - ولي الامارة بعد ابن الفضل سنة ٢٨٤ : الحسن ابن احمد ابن نافذ ، تحت اشراف نائب الملك المذكور جنسهما اسلفنا : وكانت هنالك نار تحت الرماد ، وكانت هنالك فتنة نائمة ، فتنة العصبية الجاهلية ونار التعرة العنصرية : فلأمر ما نسي المسلمون الاخوة الاسلامية : ونسوا عدوا يترقب بهم الدوائر دوائر السوء من ناحية الشرق ومن ناحية الغرب ومن وراء العدو : وقد تولى كبر هذه الفتنة جماعة من العرب وجماعة من البربر ، فكانت فتنة لم تصب الذين ظلموا خاصة ، وظهر سفهاء القوم من العنصرين حمية جاهلية ، فانغمس المسلمون في حماة حرب اهلية قاسية ، لم يستطع العقلاء اخماد نارها ، فعم الفساد وساد الاضطراب : وهذا هو نفس الداء الذي اصاب بلاد الأندلس ، ففضى عليها مع مرور الزمن ، كما فضى على صفية . ارسل ابراهيم ابن الاغلب جندا الى ولده ونائبه ابي العباس ، وجمع اليه كما يقول ابن الخطيب ، جباد الرجال واشداهم فتزل الجند ارض صقلية في جمادى الاخيرة من سنة ٢٨٤ ، وكان قد ارسل اليهم انذارا مؤداه : انه يؤمن الناس على انفسهم واموالهم وذويهم ان هم جنحوا الى السلم وتركوا امر الفتنة ما عدا الذين تولوا كبر الحرب الاهلية ، وهم الحسن بن يزيد وولدها وعبد الله الحضرمي .

حارب رجال السلطة الثائرين والمسدين وتغلبوا عليهم وشتتوا شملهم ووضعوا يد العدل فوق اعناق المجرمين ، فاما الحسن بن يزيد فقد شرب سماء ، وكانت بيته لا بيد عمرو : واما الباقيون فقد نفذ فيهم امر الله وقطعت رقابهم وساروا من العار الى النار : ودخل الجند الحكومي مدينة بالرمة بعد اخماد الفتنة في

العاشر من رمضان سنة ٢٨٧ ، وامن الناس واستتب الهدوء من جديد ،
الى حين .

ولقد اراد الروم اغتنام تلك الفرصة ، فجمعوا اسطولهم وقدموا نحو
الجزيرة ، لكن الفتنة الداخلية لم تمنع السهر الخارجى ، اذ صعدت فرق من
اسطول المسلمين لمراكب الروم فدحرتهم ! وغنمت منهم ثلاثين سفينة .

ابراهيم بن الاغلب

قال ابن الخطيب فى اعلام الاعلام :

وفى سنة ٨٩٠ عظم المراز والوسواس على الامير ابراهيم بن احمد وتخلي
لابنه الوالى بصقلية على الامر ، واستفز الناس ودعاهم الى الجهاد ، وفرق
الاموال وكان وصوله الى بالرم من صقلية ليلتين من رجب من السنة
فرحل الخ ..

نعم - لقد عظم به المراز والوسواس ، او بالاحرى عظمت به النوبات
الجنونية الهستيرية التى تسلطت عليه طيلة ايام ملكه ! فرأى ان يخوض فى
بحر من دماء الجهاد ، بعد ان خاض فى بحر من دماء امته وعائلته ورجال دولته ؛
فاظهر الزهد فى الدنيا والاقبال على الآخرة واستدعى من صقلية نائبه بها ،
ابنه ابا العباس عبد الله فتنازل له عن عرش انقيروان الذى خضبت اركانه
بدماء الابرياء ، والذى اخذت ترعزعه عواصف الدعوة الفاطمية ؛ ثم سار
ابراهيم ليقتل بقية ايامه مجاهدا فى صقلية وايطاليا ، عسى الله يغفر له
ما تقدم من ذنبه ؛ فدخل سوسة فى ثوب مرقع علامة الزهاد ؛ وسار منها على
رأس جند قوى ، فنزل بالرمة وبأشر هجومه العنيف .

(١) اعتقد ان الروم البيزنطيين لم يكونوا وجددهم خلال هذه الحروب الطويلة . بل كانت
معهم ولا ريب جماعات من الصقليين الذين آثروا الدفاع عن المسيحية ، معتمدين على الروم .
وفى مقابل ذلك كانت جماعات من الصقليين والمولدين قد انضوت تحت لواء الاسلام وبقي جمع
كبير على تصرايته تحت حماية الاسلام المائلة الرخيمة . كما سنرى

احتلال طبرمين - كانت طبرمين يومئذ امنع مراكز الروم (١) واعز قلاعهم بعد سقوط سرقوسة ؛ وكان الروم يسالون ارسال المدد لها دون انقطاع عساها تكون يوما ما مبعث الموجة المقدسة التي ترجع صقلية تحت حكم الصليب القسطنطيني الرومي .

هاجم ابراهيم المدينة المحصنة بخيله ورجله ، والتحم مع رجال الروم في معركة هائلة ، دارت رحاها بشدة لا عهد للفريقين بها من قبل ، ورأى المسلمون شدة النصارى في الدفاع عن مدينتهم ، فاخذت ريح الفشل تهب بين صفوفهم ، لكن ابراهيم تغلب على الموقف بحزم نادر ، فجمع جموع المسلمين وقرا القارئ بين يديه قوله تعالى : « هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قطعنا لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم ؛ يصهر به ما في بطونهم والجلود ؛ ولهم مقامع من حديد ، كلما ارادوا ان يخرجوا منها من غم اعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق . ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الانهار ، يحلون فيها من اساور من ذهب ولؤلؤا ؛ ولباسهم فيها حرير ، وهادوا الى الطيب من القول وهادوا الى صراط الحميد » فعادت الثقة الى نفوس المؤمنين وهبت عليهم رياح الجنة فانقضوا على اعدائهم كالصواعق النارية ، وانهزم الروم امامهم فاخذوا يتبعونهم بين وهاد الاودية واعالي الجبال ، فقتلوا اكثر المدافعين وتفرق الباقون شذر مذر ، واصبحت مدينة طبرمين مفتحة الابواب دون مدافع ، فدخلها ابراهيم مع جماعة المسلمين ، وغنم جميع ما كان الروم قد اعدوه بها من كنوز وسلاح وعدد للقتال .

ولقد كان لفتح المسلمين لهذا المعقل المتيع اسوأ وقع في العالم المسيحي ، اهتزت له البلاد الرومية باسرها ، واعلن الامبراطور في القسطنطينية الحداد سبعة ايام لم يضع فيها على رأسه تاج الملك .

فتح رمطة - لم يترك ابراهيم للروم وقتا يرجعون فيه من ذهولهم اثر كنية طبرمين ، فساروا يقصد مدينة رمطة ، وهي معقل آخر للروم

شرقى الجزيرة ، يقع جنوبى طبرمين ؛ ويتكون منه ومن قطانية آخر ما بقى للروم فى تلك الانحاء .

هاجم المسلمون رومة ، والروم لا يزالون يأملون من ضربة طبرمين ، فلم يستطيعوا بهذه المدينة ثباتا وانهارت سريعا ، فدخلها ابراهيم ومن معه وغنموا كل ما فيها من مال ومتاع .

فى إيطاليا - لم يبق يومئذ بصقلية ما يشبع نهم الامير ابراهيم ، فجمع جموعه القوية ، وركب البحر مجتازا الى ارض قلورية ، وكان يقصد يومئذ الصعود منها الى الارض الطليانية ، ومنازلة نابولى ؛ فاخترق بجموعه شبه الجزيرة القلورية ؛ ووصل فى شمالها الى الحد الذى يفصل بينها وبين ممتلكات نابولى ؛ وكانت هناك قلعة كسنتة Cosenza المنيعه فخيم حولها ونصب عليها الحصار ؛ وامعن فى التضييق عليها .

اشتد به المرض يومئذ ، فاسلم روحه لحالها ؛ يوم السبت ١٨ من ذى القعدة سنة ٢٨٩ (اكتوبر ٩٠٢) .

لم يعلم اهل كسنتة بموت الامير ؛ فارسلوا وقد ضاق عليهم الخناق يطلبون الامان والتسليم ، فامنوا ؛ وقبل استسلامهم ، وثقلت جثة الامير ابراهيم الى بائرمة فدفن هناك وبنى على قبره قصر .

سيرة ابراهيم بن الاغلب - ولى ابراهيم ملك القيروان ، وهو لا يبلغ من العمر الا ١٤ عاما ؛ وما تم مجاهدا فى إيطاليا وسنه ٤٢ سنة ، فكانت مدة ولايته ٢٨ سنة ، ارتكب اثنائها من القذائع والاثام ما قضى به على الملك الاغلبى ، وكان اعظم منهج لتسييل فى وجه الدعوة الفاطمية الناشئة .

ارى ، وقد اذفت الساعة التى ستنهار فيها الدولة الاغلبية ، ويتغير وجه الخريطة انسياسية فى الشمال الافريقى وفى صقلية ؛ ان اتقل لك صفحة عن سيرة هذا الملك الطاغية الجبار حتى يتبين لك كيف يحو الظلم آثار الدول ، وكيف تعمى القلوب التى فى الصدور ، فتسير مع اغراضها وشهواتها غير حاسبة حسابا لما يحدث بها من اخطار .

قال ابن الاثير عن هذا الامير ، ولعله يصفه بذلك عندما ابتدا ممارسة الحكم غلاما او عندما تاب توبة الافلاس قبيل موته : وكان عاقلا حسن السيرة محبا للخير والاحسان ، تصدق بجميع ما يملك ووقف املكه جميعها وكانت له فطنة عظيمة باظهار العملات .

هذه الصورة غالطة لا تمثل لك شيئا عن ابراهيم الجبار الذي كان السبب الاصل في انهيار الملك الاغلبى : اما ما اتفق عليه المؤرخون في شأنه فقد لحصه تلخيصا بليغا المؤرخ التونسي الكبير احمد بن ابي الضياف : مستمدا معلوماته من اعمال الاعلام لابن الخطيب ومن غيره : واليك ما يقوله ابن ابي الضياف :

« وكان ابراهيم هذا قد ابتدا امره بحسن السيرة وسلوك ما يحمد اثره ، ثم انقلب الى ضد ما كان عليه وانسلخ من الحلال الحميدة شأن الدول قبيل الانقراض ، فسادت ظنونه وتغيرت اخلاقه وفسد فكره واسرف في القتل : وفي سنة ٢٦٨ فتنك باهل الزاب فقتلهم وقتل اطفالهم والحاقهم في الحضر : وفي سنة ٢٧٧ قتل حاجبه نصر بن الصمامة بعد ان ضربه خمسمائة سوط فما تحرك ولا نطق بكلمة ثم امر بضرب عنقه ، فقال الحاجب لمن حوله : لا تظنوا اني افزع من الموت ووعدهم انه سيفتح كفه ويضمها ثلاث مرات بعد ضرب عنقه : ففعل - الخ

« وفيها قتل من اهل افريقيا عددا مستكثرا منهم القاضي عبد الله بن احمد بن طالب بن سفيان عزله وحبسه ثم سببه : ومنهم امحاق بن عمران المحتسب قتله وصلية : ومنهم حاجبه فتح ضرب بالسياط حتى مات : ومنهم فتياته من انصقائية ، وسبب ذلك انه كان له اذن صاغية لاقوال المنجمين والمتخرصين على الغيب ، وكانوا يقولون له انه يقتله رجل ناقص وانه يمكن ان يكون فتى ، فكان اذا راى احدا من فتياته فيه نشاط وحدة يتقلد سيفا قال هذا صاحبي فيقتله ، ولما قتل منهم جماعة خافهم وافضى به ذلك لقتل جميعهم ، واستخدم عوضهم فتيان السودان . ثم عرض له منهم ما عرض

للفتيان الصغالية فقتلهم اجمعين ! وقتل ابنه المكنى بابي الاغلب وضربت عنقه بين يديه وسبب ذلك انه نسي اليه ان محمد المنجم قال لابنه انه يلى الملك . ثم امر باحضار المنجم فقتله وقتل اخوته وكانوا ثمانية ، ومن جناته انه افتقد مندبلا كان يمسح به فمه ، وقد سقط من يد بعض جواريه فالفاه خادم له فقتل بسببه ثلاثمائة خادم ! ومنها انه كان يقتل بناته ، فكثرت امه اذا ولدت له بنت من احدى جواريه اخفيها وربتها حتى اجتمع عندها منهن ستة عشر جويرية فقالت له يوما وقد رأت منه رقة : يا سيدي قد ربيت لك وصائف قال نعم ! قالت اتراهن فقال نعم ! فزينتهن وادخلتهن اليه فاستحسنهن ! فقالت له هذه بنتك من فلانة وهذه بنتك من فلانة حتى اتت على آخرهن ، فلما خرج قال لخادم له اسود كان سيقا يقال له ميمون : امض وجئني الآن برؤوسهن فتوقف استعظاما لذلك : فقال له امض ويلك والا قدمتك قبلهن ، ولما دخل على امه كبر ذلك عليها فقالت له راجعه ! فقال لها لا سبيل لذلك ، ووقفن على ما يراد بهن فصحن بالبكاء وقلن للسياف يا سيدي وما الذي اذنبنا اما ترحمنا فلم يفن ذلك شيئا ، فقطع رؤوسهن ، ينظر بعضهن الى بعض وجاء اليه بها معلقة بشعورهن ، فوضعها بين يديه (١) .

قال لسان الدين ابن الخطيب في كتابه اعمال الاعلام عندما ذكر هذه القصة الفظيعة ما نصه : قلت اللهم لا ترحمه ، وضاعف عليه سخطك وعذابك الذي لا يتعقبه رضاك ولا تمنحه رحمتك ، اهـ . وكان من كتابه الاديب البارع انعام احمد القديدي ، فقربه وجعل اليه اموره كلها ، ثم سخط عليه فسجنه فخطبه من محبسه برسالة بديعة تليق القلوب القاسية (هنا ذكر ابن ابي الضياف

(١) من المحتمل ان تكون العناية العبيدية الفاطمية قد بالغت في وصف فظائع ابن الاغلب ، واعتمدت على الاصل فانفت لها اساطير لتسود نهايا صفحته ، ولتتمكن من القضاء المبرم على دولته ، والا ، فالمقل لا يكاد يصدق ان ملكا مهما كان هستريا ، يستطيع ان يصل الى هذه الدرجة من الموبقات والآثام . كما لا يتصور الانسان خفوع الشعب المسلم واستكانته ، وسكونه ولسانه ورجاله ، امام هذا الطغيان الاجرامي المتنافي لكل احكام وتعاليم الاسلام .

نصها ، وهي طويلة ، لا موجب لذكرها ، وإن كانت من آيات الفن ، اختتمها بقوله :

هبنى أسأت فاين العفو والكرم قد قادني نحوك الأذعان والندم
ياخير من مدت الايدي اليه اما ترثي لمن قد بكاه عندك القلم
بالفت في السخط فاصنع مقتدر ان الملوك اذا ما استرحموا رحموا
فوقع بهجه وطفيانه تحتها • ان الملوك اذا ما استرحموا قتلوا • ووضعه في تابوت حتى مات جوعا وعطشا •

« وبقي ابراهيم في تونس يبدد شيعته وانصاره بالقتل ، ونار الداعي الى الدولة العلوية العبيدية تاكل اطراف مملكته • وكان قد اتخذ جنود بلزمة (١) ، واصطفى من ابطالهم سبعمائة رجل ، واعتضد بهم في حراسته ، ثم بعث اليهم ابنه في جند وقتلهم بتمامهم • وكان ذلك اقوى الاسباب في انقراض دولة بني الاغلب ، وذلك ان اهل بلزمة من العرب من ابناء المغرب ، والجنود الداخلين الى افريقيا عند افتتاحها ، واكثرهم من قيس : وكانوا شجى في خلق كتامة من البربر القائمين بالدعوة العبيدية ، فلما قتلوا استطالت كتامة ووجدت السبيل الى حل عرى دولة بني الاغلب : ومن اتبع هواه ، اعطى عدوه مناه ، وسوء الراي اشد المحاربين •

« وثار على ابراهيم اهل تونس والجزائر والاربع وباجة وقمودة ، وقدموا على انفسهم رجلا من الجنود : فانتقل ابراهيم الى رقادة وحصنها : والجرأة على سفك الدم ، انذار بسؤال الملك « انتهى ما نقلناه عن ابن ابي الضياف رحمه الله •

الدعوة الشيعية - في هاتيك الاثناء ، والدولة الاغلبية تسبح في بحر من الدماء البريئة ، قدم من المشرق ، داعي الشيعة الاسماعيلية ابو عبد الله الحسين بن احمد ونزل بفرجيوة من ارض كتامة : واخذ ينتشر الدعوة للمهدي

(١) قرية على ٢٧ كيلو مترا في الشمال الغربي من مدينة باتنة بالاوراس .

المنتظر من ابناء فاطمة البتول ، ويبشر الناس بقرب ظهور المهدي الذي يملأ الأرض عدلاً بعد ما ملئت جوراً ؛ فالتفت حوله كتامة المتعطشة للحكم الناقمة على الدول انهزمة التي كانت تققسم يومئذ أرض الشمال الإفريقي : دولة الأغالبة في الشرق ودولة الرستميين في الوسط ودولة بني إدريس في الغرب ، واخذ يدعو جهاراً لعبيد الله المهدي ؛ ويجمع الناس حول مذهب الشيعة الاسماعيلية العلوية ؛ فلقبت هذه الدعوة نجاحاً يفوق حد التصور ، كان البلاد كانت تنتظر الحاكم الحقيقي ، المنقذ ، الذي يوحد صفوفها ، ويجمع كلمتها ، ويرفع فوقها لواء العدل والحكم النزيه ؛ وخاصة ان الدعوة لآل علي وابنائه فاطمة كانت تصادف هوى في النفوس ، وكان الناس يأملون على يد احقاد محمد صلى الله عليه وسلم اصلاح الحال ورفع المظالم واعلاء كلمة الله .

قال المؤرخ الكبير احمد بن ابي الضياف في شأن الشيعة الفاطمية :

ولا يظن في القوم انهم من الغلاة المدحوض غلوهم عند ائمة الشيعة ، كما لا يظن بهم انهم ممن يكفر الصحابة رضي الله عنهم ؛ وقصارى امرهم تفضيل علي على الشيخين مع اعتقادهم صحة امامتهما عند جدهم سيدنا علي ؛ حيث قبل جارية من سبي عمر وهي الحنفية واولدها ابنه محمد ، ويستندون في هذا التفصيل الى احاديث لم يوافقهم على المراد بها اكثر اهل العلم ، ولهم نزعات يستندون فيها الى ما يؤثر على بعض اهل البيت وانكار العلماء عليهم من حيث البدعة ؛ واهل افريقيا يدينون بحب علي وآله يستوى في ذلك عالمهم وجاهلهم ، جبلة في طباعهم حتى ان نسوانهم عند طلق الولادة ينادون : يا محمد يا علي .

الى ان يقول : وقوة المحبة لآل البيت مع الاعتراف بالفضل والمحبة لغيرهم ليس من الرفض في شيء ، والله يقول : « قل لا اسألكم عليه اجرا الا المودة في القربى » ولا يخلو مسلم من هذا الحب ، ورحم الله انشأه اذ يقول :

ان كان رفضاً حب آل محمد فليشهد الثقلان اني رافضى ،

كان عبيد الله المهدي قد وقع بين يدي الاغالبة فسجن ، وكان عبد الله بن الحسن الصنعاني يجمع الجموع ويجيش الجيوش ويستولى على اطراف البلاد

معتمدا على سواعد كتامة وحراهم الشديدة ، فدانت له البلاد دون مقاومة تذكر ، حتى وقف وراءه مئات من الالوف ، يستعد للوثبة النهائية ، وتحطيم دولة الاغالبية التي حطمها ابراهيم الآفب الذكر قبل ان يحطمها اعداؤه .

انهيار الدولة الاغلبية - خلف ابراهيم السفاح ابنه الذي كان كما اسلفنا يمثل في صقلية . فكان شهما على الهمة سديد النظر اراد اصلاح الحالة ورتق ما امعن ابوه في فتقه . ولقد كان يتجح وكادت الحالة تستقيم ، لولا ان القضاء قد حم ، وآذنت ساعة الزوال على يد شقى ، كتب الله عليه ان يكون هو النقطة السوداء التي تختم صفحة ناصعة ؛ ذلك هو زيادة الله الحقيير .

تولى ابو العباس عبد الله ملك القيروان ، فارسل بابنه هذا زيادة الله ليمثله في صقلية ، وليقوم على امر الجهاد والادارة فيها ؛ فما كانت ايامه هنالك سوى الاضطراب والحراب ، وقد وصلت دعوة الشيعة هاتيك الاصقاع ، واشرايت لها الكثير من النفوس ، واخذ الناس يتفرقون شيما كل حزب بما لديهم فرحون . اما زيادة الله الحبيث ، فقد كان قابل كسل ذلك بمجالس لهو وخلاعة وشراب ، كان يعقدها بقصره في الرمة ، الى ان بلغ الارتباك درجة اضطرت ملك القيروان لاستقدام ابنه المفسد من صقلية ، فالتقى به مسجوناً مقيدا داخل داره .

اخذ هذا الشقى يستميل خدام ابيه اليه ، فتواطأ مع غلامين منها ، ترصدا لابيه حتى نام ، وهما على حراسته ، فاجتزأ رأسه ، وذهبا به داميا فرميا به بين يدي الابن النذل ، وفكا قيوده . فنادى بنفسه ملكا واخذ البيعة العامة في شعبان سنة ٢٩٠ وبادر بالفلامين قاتلي ابيه فسل بهما وقتلها شر قتلة دفعا لتهمة التواطىء معهما على ذلك .

وقد رأى ان الحرق الفاطمى قد اتسع على الراقع ، وعلم ان لا قبل له بدفع تلك الكارثة الا باعتماد الخليفة العباسى المكتفى بالله عليه يرسل له جندا يعينه على دحر قوى الصنعائى المخيمة على اطراف المملكة . فارسل للخليفة هدية فيها نفائس كثيرة منها عشرة آلاف دينار زنة الواحد منها

عشرة مشاقيل وقد كتب على وجهيها :

يا سائرا نحو الخليفة قل له ان قد كفاك الله امرك كله
بزيادة الله بن عبد الله سيد ف الله من دون الخليفة سله
ما ينيرى لك بالشقاق مناق الا استباح حريمه واذله
من لا يرى لك طاعة فانه قد اعماه عن سبل الهوى واضله

ولو انه جهز بذلك الذهب الغزير جندا ، واصطنع به رجالا ، لكان ذلك اجدى للملكه وانفع لأن انتصابه مدافعا عن خلافة العباسيين دون دعوة الفاطميين لم تجده نفعاً ، فان عبد الله الصنعاني قد وثبت واثبتته النهائية فكانت معركة الاربرص الهائلة التي تفرق فيها جيش الاغالبة بعد ان مات اكثرهم وذلك سنة ٢٩٠هـ فجمع زيادة الله ، او نقصان الله ما استطاع جميعه من مال ومتاع ، وشد رجاله الى المشرق تاركا ملك الاغلب يبيكى من بناء ، فاقام بمصر ينتظر مدد الخليفة وينتظر تنفيذ عامل عصر اوامر الخليفة ولم تكن حالة مصر يومئذ ازهى ولا ازهر من حالة افريقيا ، فبعد ايام قضاه زيادة الله في القدس الشريف يلهو ويلعب ويعبت ويضطرب قبض الله روحه الشيقة بالرمة سنة ٣٠٣ (١) .

وهكذا انتهت دولة بني الاغلب العظيمة التي كانت من اقرب ممالك العرب والمسلمين ، واكثرها مدنية ونظاما ، واحسنها جهادا ، وامعها عمرا (١) .

قال فيكتور بيكي في كتابه الآنف الذكر : مدنيت الشمال الافريقي
« لولا ان الاغالبة جمعوا الى جانب خلافتهم العسكرية الانهماك في الملذات

(١) كانت الحرب حامية الوميس في بلاد الاندلس بين الملك اردونيو ، الذي جمع شتات البلاد المسيحية هناك وتصدى لحرب المسلمين ، وبين الخليفة عبد الرحمن الثالث : فاندحر عبد الرحمن اول الامر ثم اعيد الكرّة فانتصر واحتل طليطلة ثم اكسبر ثانيا سنة ٣٠٩هـ وعقد مدينة لبلانة اعوام : فلما اتقوا اجلها وكان قد جمع جندا عتيدا هاجم المملكة الاسبانية فشتت شملها ودحر جندها واستولى على بلادها واندفع وراء جبال البيرينات في فرنسا .

والشهوات لاستطاعوا ان يمدوا في اجل تفوق العنصر العربي بهذه الديار :
لكنهم سقطوا تحت عنف الضربات البربرية الواردة من ناحية المغرب ،
وكان يسقوط الاغالبية يسقوط النفوذ العربي ، وانهار السنة تحت موجة
الشيعة الظافرة .»

العبيديون بالقيروان - دخل ابو عبد الله الصنعاني مدينة القيروان
ظافرا منصورا ، وكان عبيد الله سجيناً مع ابنه ابي القاسم في مدينة
سجلماسة عند اميرها . فخرج علماء القيروان واهل العقد والحل فيها للقاء
الصنعاني وهنؤوه بالنصر والفوز وسالوه لمن يخطبون في صلاة الجمعة فلم
يعين لهم احداً لانه لم يكن يعلم مال عبيد الله انما امرهم بالدعاء لمن نصر
الدين . واعلن ابو عبد الله الامان العام للناس في اموالهم واعراضهم
وحرياتهم ، انما صادر اموال زيادة الله الاغلبى الهارب ، وحفظ سلاحه
وجواريه . ثم نقش على النقود من وجهها الايمن : بلغت حجة الله . ومن
وجهها الآخر : تفرق اعداء الله ونقش على الاسلحة : عدة في سبيل الله .
ووسم الخليل : الملك لله .

ثم استخلف اخاه على القيروان ونهض في وثبة جريئة الى سجلماسة
بالمغرب الأقصى ، فاخرج من السجن الشريف عبيد الله ، وجاء به مبعثلاً
مكرماً وهو يمشى بين يديه حتى ادخله القيروان ، ثم سار به الى قرية رقادة
التي كانت يومئذ (فرساي) تونس وفيها قصر الملك الاغلبى الذي كان آية
من ايات الفن والجمال . وهناك في ربيع سنة ٢٩٧ بايعه العلماء والفقهاء
وخاصة الناس وعامتهم ، وكان عبيد الله بن محمد الحبيب بن جعفر المصدق
يبلغ من العمر ٣٧ سنة ، مهيب الطلعة عالماً شجاعاً كانه خلق ليكون رأس
دولة وزعيم ملك ، وكل فيسّر لما خلق له .

(٩) والحقيقة ان جرائم ابراهيم ، وخفيّة زيادة الله ، كانت قد حكمت على هذه الدولة بالتلف
والانهيار ، نتيجة تفرق العصية وسخط الراي العام . فلو لم تقض عليها الحركة الشيعية ،
لنقضت عليها لا محالة حركة اخرى ، من الداخل او من الخارج .

تأسيس المهديّة - لم يظب المقام لعبيد الله المهدي بقصر رقادة . ووجد ان القيروان البعيدة عن البحر لا تصحح عاصمة لدولة وضعت بالمغرب اقدامها الثابتة ، ورمت الى المشرق بانظارها الطامعة . وقد رأّت من اختلال امر الدولة العباسية ومن وهن امرائها بنصر الذين يطيعونها اسما ويستبدون بالامر فعلا ، ما جعلها تستعد وتمعن في الاستعداد للوثوب على تلك الاصفاع محاولة جمع كلمة العالم الاسلامي من جديد تحت لواء الدعوة لآل البيت من بني فاطمة ! كما حاول من قبل تلك المحاولة الذين تولوا كبير تحطيم الدولة الاموية ، لجمع الامة تحت لواء الدعوة لآل البيت من بني العباس .

طاف المهدي بنفسه على رأس حاشية مختارة ، كل السواحل الشرقية التونسية من قرطاجنة الى الجنوب ، فاختار الموقع البديع في الساحل الذي امر بان تبني فيه المدينة الجديدة التي تحمل الى الابد اسمه « المهديّة » فابتدأ البنّاؤون في العمل سنة ٣٠٠ (١) وانتهوا منه سنة ٣٠٨ ، فانتقل اليها برجاله وامواله وجنوده وسكنها معه اصحاب الدولة واعيان القوم ، فاصبحت مدينة من ازهى وازهر مدن المسلمين .

محمد السرقوسي

بعد هذه البسطة الرجيزة عن انهيار الدولة الاغلبية وقيام الدولة الفاطمية ، وسنرى آثار هذا الانقلاب العظيم في جزيرة صقلية : نعود الآن لحوادث الجزيرة اثناء هذا العهد المضطرب .

(١) في هذه السنة تولى الخلافة ببلاد الاندلس عبد الرحمن الناصر ، وهو اول من لقب بالخطبة هناك ، والندفع في ميدان الانشاء والتكوين : فاختار مدينة « الزهراء » البديعة واتخذها دار ملكه : وانشأ في قرطبة وغيرها عددا جسيما من الابنية والقصور والبساتين ودور الصناعة : واصبحت في ايامه قرطبة كمية العالم يقصدها طلاب العلم من كل صقع .

بعد موت ابراهيم بن الاغلب المجنون ، محاصرا مدينة كسنثه ، استولى
 ابنه ومثله بصقلية ، ابو العباس ملك القيروان ، فارسل ابنه زيادة الله
 ممثلا له بالجزيرة فخلا الى اللهو والطرب والشراب حتى استقدمه ابوه وجبسه
 وكان من امره ما رأيت في الصفحات السالفة اذ قتل اياه وانتصب في القيروان
 ملكا ، كتب الله عليه ان يسجل التاريخ له انهيار دولة بني الاغلب على يديه .
 كان محمد السرقوسي ابرز ولاة هذا العهد المضطرب ، وقد حاول ،
 ونجح في بعض الاحيان ، تسكين الثائرة وتهذبة الخواطر وجمع الكلمة ريثما
 تسفر حالة افريقيا عن امر ! وتوفاه الله اليه سنة ٢٩٠ .

علي بن محمد بن ابي الفوارس واحمد بن ابي الحسين بن رباح

اول الناس في صقلية امرهم علي بن محمد ودانوا بطاعته ، ورجوا ان
 يتمكن من انجاز عمل محمد السرقوسي في تهذيب الامن وجمع الكلمة ،
 وراسلوا امير القيروان زيادة الله في ذلك ، فامتنع عن المصادقة ، وارسل من
 قبله واليا على صقلية الامير احمد بن ابي الحسين ، فما قبله اهل الجزيرة
 الا على مضض ، وان كان قد عمل اثناء ولايته على حفظ الجزيرة وصيانتها ضد
 كل اعتداء من الخارج وضد محاولات الفوضى من الداخل .

عندما بلغ اهل صقلية نبأ انهيار دولة بني الاغلب وقرار زيادة الله آخر
 ملوكها ! ناروا بالامير احمد بن ابي الحسين فحبسوه واعادوا للولاية على بن
 محمد وذلك يوم ١٠ رجب ٢٩٦ (٩٠٨) وراسلوا ابا عبد الله الصنعاني داعية
 المهدي يطلبون اليه المصادقة على الوالي الجديد ويعلمون الانضمام للدعوة
 الفاطمية والقيام بامرها ، فصادق ابو عبد الله على ذلك وراسل الامير الجديد
 يقره على عمله ويوصيه بالتقوى والجهاد والثبات في سبيل الله . لكن ايام هذا
 الوالي لم تدم طويلا ، اذ ان النعبيدين ما صادقوا على توليته الا بصفة مؤقتة
 ريثما يستتب لهم الامر وتدين لهم سائر البلاد بالطاعة والانقياد ، فعندما تم

لهم ذلك استقدموا احمد بن ابي الحسين وامروه بان يستقر في رفاة ولا يبرحها ، وارسلوا من قبلهم اول ولاتهم نحو الجزيرة وهو الحسن بن احمد . فتكون ايام الحكم الاغلبى بجزيرة اعتناقها دعوة القواطم سنة ٢٩٦ : ٨٤ سنة ، مضت كلها في جهاد شريف ، ونضال عنيف ، وتمهدت فيها سبيل الامن ، واستقرت الراحة في المدن والقرى ، ولم يكن الاضطراب الذي ساد آخر الايام مانعا للناس عامتهم وخاصتهم من انجاز اعمالهم العمرانية التمدينية ، فكان الخلاف حول الحكم والولاية يكاد يكون خاصا ببعض الطبقات : اما بقية الناس فكانت دائية على اشغالها ، قصاراها من امور الدولة انها تجد دائما القاضي النزبه الذي يفض ما يقع بين الناس من مشاكل ، وتدفع زكواتها بنظام لمثل السلطة مهما كان اسم متولي الامر ، اما الخلافات العنصرية والقبلية ، التي اشتعلت نيرانها موقدة سنة ٢٨٤ ، فقد نامت الى حين ، وبقي دعائها وزعماء فتنها يتربصون القرص ، الى ان تمكن الفاطميون من نصب سلطانهم ، فالتهب النيران ، وسفكت الدماء ، ووقعت فتنة صقلية الكبرى ، مما جعل استاذنا الكبير الشيخ عبد العزيز الثعالبي رحمه الله يقول في تذييله لكتاب « غزوات العرب في البحر المتوسط » للامير شكيب ارسلان :
ما نصه :

« واستمر نجم الاسلام صاعدا في اوروبا بعد هذه الواقعة العظيمة (الانتصار البحري سنة ٢٧٥) وامراء الاغالبية لا ينفكون عن تعزيز المسلمين في ولاياتهم الاروبية ومراقبة حركات الصليبيين مراقبة عنيفة تحبط كل مسعى في الانتكاث ، حتى دان من في حوزتهم من النصارى للاسلام ، وتذوقوا حلاوة تحريره اياهم من ظلم الامراء الاقطاعيين وطغيان الكنيسة الكاثوليكية ، واستمر ذلك الى ان ظهرت النبعة الآثمة نبعة الدعوة العبيدية في قبيلة كتامة البربرية من المغرب الاوسط ، وقدر لها ان تحتاج الدولة الاغلبية فتعطل الفتوح في اوروبا ، وانقلبت جيوش افريقيا مغيرة على العالم الاسلامي لتقويض دولة بعد اخرى ، وهدم الخلافة العباسية القائمة في المشرق ، وبسبب ذلك

تحوّلت السياسة الإسلامية تجاه أوروبا من الهجوم والتوّنّب ، الى الدفاع والتسليم .

ولم يجرّ احد على الاسلام ما جناه عليه هؤلاء العبيديون او الفاطميون ،
الخ . منا نياتيك تفصيله بعد حين .

القسم الخامس

الحكم الاسلامى ايام الدولة الفاطمية

عصر الولاة والارهاب

الحسن بن احمد بن ابي خنزير

لا بد ان احدث انهيار الدولة الاغلبية ، وقيام الدولة الفاطمية ، اثرا عظيما في البلاد الصقلية . على ان اواخر ايام الاغالية لم تكن في صقلية ايام راحة وهدوء واطمئنان ، فكانت حوادث افريقيا ضغتنا على ابالة ، وكانت السنوات الاولى من انتصاب الحكم الفاطمى بالجزيرة ، ايام اضطراب سوداء ومذابح شنيعة ، ان اسفرت عن شيء فمن خلاف جسيم وشقاق ذريع بين الجموع العربية التى كانت قوام دولة الاغالية ، وبين الجموع البربرية التى ترى انها صاحبة الدولة ايام الفاطميين ، فقصت الجزيرة من جراء ذلك عصرا من اسوأ عصورها .

الا ان ذلك لم يدم طويلا ، وعاد الاستقرار بعد حين ، على يد بعض كرام الولاة فى اول الامر ، وعلى يد عائلة بنى الحسن اخيرا .

عندما توطدت اقدام عبيد الله المهدي سنة ٢٩٧ فى ملك افريقيا ، ارسل من قبله واليا على صقلية ، الحسن بن احمد بن ابي خنزير ، من زعماء كتامة البربر الذين ايدوا الشيعة الفاطمية ونصروها فدخل بالرمة دخول الفاتح المنتصر ، ولم يسر هنالك سيرة امير مسلم ، بل سار هنالك سيرة امير عنصري بربرى ، فكانت اعماله كلها متجهة نحو بربرة البلاد ، وتوطيد دعائم النعرة العنصرية البربرية ، فسكت العرب اول الامر عن مضض ، وقد شعروا انهم قد خسروا بانهيار الدولة الاغلبية تفوقهم ونفوذهم

وشعر المسلمون الصادقون ، وكثير عددهم ، بان هذه النعرة الجديدة سوف تكون نواة الحراب والدمار ، اذ تحل الدسائس العنصرية والتحلافات المذهبية محل الاخوة الاسلامية السالفة .

تاريخ صقلية - ٩

ولم يكتف الحسن بن احمد بمحاولة تغليب المنصر البربري على العنصر العربي بل زاد الطين بلة بمحاولة الناس عامة على اعتناق المذهب الشيعي بدل الاكتفاء منهم بالطاعة السياسية تاركا لهم حرية الدين .
وما كانت هذه الاعمال لتنتهي الا بالانتفاض وازاحة الدماء .

ثار العرب وثار معهم اهل السنة عامة فخلعوا طاعة الحسن بن ابي خنزير ، لكنهم لم يستطيعوا اعلان ما تكنه نفوسهم اذ ذاك ، ولم يجدوا القوة الكافية والزعامة الحقيقية للتخلص من السلطة الفاطمية . فراسلوا المهدي معتذرين عن ثورتهم بسوء سيرة الوالي وفساد اعماله ، وأقر رايه ، وما تسبب فيه من فتن هو جاء بين المسلمين .

علي بن عمر البلوي

تقبل المهدي على كره منه اعتذار مسلمي ضقلية ، فاعلن عزل الحسن ، واولى مكانه علي بن عمر ، سنة ٢٩٩ ، وكان شيخا هزما ، لين العريكة ، كريم الاخلاق اراد ان ياخذ الناس بالحسنى ، وان يقابل الفتن باسداء النصائح وكانت القبائل البربرية التي قدمت البلاد والتي استقرت فيها من قبل ، قد التفت حول الحسن وعلي ابني الوالي المعزول الحسن بن ابي خنزير ، فاصبح لهذين الولدين النفوذ المطلق والسلطة الحقيقية ، وسارا تحت سلطة الوالي الواحية ، على تنفيذ خطط ابيهما ، من حيث التفرقة العنصرية الآثمة ، ومن حيث فرض المذهب الشيعي على البلاد .

هنالك لم يجد العرب واهل السنة عامة من بربر ومولدين مخرجاً لهم من تلك المحنة ، الا اعلان الثورة ، والانتفاض على سلطة الفاطميين .

احمد ابن زيادة الله بن قرهب

جمعوا امرهم يومئذ وقاموا بحركة منظمة ، وعلموا انهم ما داموا على ولاء المهدي فالحالة لن يتطرق اليها ادنى تغير . ففي السنة الموالية لولاية علي بن عمر سنة ٣٠٠ رفعوا لواء العصيان وقبضوا على الوالي علي بن عمر وعلي

ولدى بن ابي خنزير واركبوهما البحر الى افريقيا ، وبايعوا بالولاية احمد
ابن زيادة الله بن قرحب وهو من قرابة الاغالبة .

الخلافة العباسية - كار احمد بن قرحب كارها للولاية ، حتى انه عندما
رأى الناس اجمعوا على تقديمه لها فر من وجههم ، وأوى الى غار يحجبه عنهم ،
فامعنوا في طلبه واخرجوه من مخبئه واقسموا له ليكون في طاعته وليموت
دونه ، فقبل الامر اذ لم ير محيصا عن ذلك ، انما اشترط عليهم ان لا يتولى
الامر الا معتمدا على الخلافة العباسية ، نابذا لدعوة الشيعة وما فيها من تعصب
مذهبي وعنصري ، وهكذا كان . فتولى الامارة معتزا باهل السنة من عرب
وبربر ومولودين . وارسل الخليفة المقتدر بالله في بغداد يعلن القيسام
بدعوته ويضع امارته تحت سلطته ، وجاءته رسل الخليفة تحمل الولاية
السوداء والخلع السود شعار الخلافة العباسية . ثم وقف ابن قرحب وقفه
الامير الحازم والزعيم القوي الشكيمة الجسور في الحق ، فضبط الامور
واستقامت له الاعمال ، وسكنت الفتن الظاهرة الا ما كان كامنا منها تحت
الرماد .

رجوع الفاطميين واندحارهم - ما كان عبيد الله المهدي وما كانت قبائل
كتابة ومن لف لفها لترضى بخروج صقلية عن الامر ، واصباحها مركزا
للدعاية العباسية العربية السنية ، وادركوا ما في ذلك من خطر جسيم على
الدولة الناشئة فوقفوا للامر موقفًا حازما ، ورأوا وجوب المبادرة باطفاء هذه
الجدوة قبل ان يستفحل امرها .

جهز المهدي اسطولهم وعمره برجاله الاشداء ، ووضع على رأسهم ابن ابي
خنزير بعد ان اعلن من جديد ولايته على صقلية ، فسار الاسطول والقي مراسيه
في مدينة رمطة ، انما رجال ابن قرحب لم يكونوا غافلين . فتلقوا ذلك
الاسطول بما جمعوه لمثل ذلك اليوم من قوة ، والتقى الجمعان سنة ٣٠١ ،
وفاز اهل صقلية فوزا مبينا فاحرقوا اسطول المهدي واسروا ستمائة من
رجالهم وقبضوا على الحسن بن ابي خنزير نفسه ، وكان قد آلم من قبل نفوسهم
وترك في قلوبهم ضغينة لا تنسى ، افقتله ابن قرحب تشفيا وانتقاما .

نذالة وسقوط - جهز المهدي حملة جديدة سنة ٣٠٣ ، سيرها على صقلية .
محاولة استرجاعها ، فبانت بفشل ذريع .

لكن المهدي ان لم ينصره اسطوله على صقلية ، فقد نصره فيها دعاة الهزيمة
او رجال الكتيبة الخامسة حسب التعبير الحديث .

فقد قاموا بومئذ بدعاية واسعة النطاق ، تمكنوا من اقناع خاصة الناس
وغامتهم بها اذ قالوا : ان المهدي لن يصبر عن اندحاره المتوالي في صقلية ،
وانه لا ريب راجع علينا باسطوله وخيله ورجله مما لا قبل لنا به . فالرأي
الاسد هو اعلان التوبة والندم والرجوع لحكمه ، وخلق طاعة بني العباس
الذين لم نر منهم الا شعارهم الاسود ، ولا يستطيعون امدادنا بشيء .
(وهذا في الحقيقة امر لا مراء فيه)

وصل الامر لعلم ابن قريهب فجمعهم وذكرهم بما قطعوه له من عهود
ومواثيق ، فما اغنى ذلك عنه شيئا وتصلبوا في مرادهم ، فاستسلم امام
ارادتهم واخذ يجمع امواله ومتاعه وجهز مركبا يحمله مع ذويه الى بلاد الاندلس
فارا بنفسه .

قال رجال الكتيبة الخامسة : الأليق بكم هو ارسال ابن قريهب قريبي للمهدي
وتزلفا . عله يراها لكم يدا ويعقو عما اسلفتموه من خلع طاعته ، فوجدوا من
الدهماء اذنا صاغية ، وخالف بعض رجال الشهامة هذا الرأي الآفن ، فقامت
من اجل ذلك فتنة بين الفريقين تغلبت فيها النذالة على الرحلة ، فالقى القبض
على ابن قريهب وارسل به هو وولده وقاضيه الى المهدي ، وطلبوا مقابل ذلك
ان يرسل لهم المهدي واليا من قبله ، وقاضيا يحكم باسمه ، وهم يقومون في
بلادهم باعمال الضبط والجهاد ، اى انهم طلبوا نظام « الدومينيون » او
الحكم الذاتي حسب الطريقة المعروفة الآن .

في المحرم سنة ٣٠٤ (٩١٦) وصل ابن قريهب الى مدينة سوسة ووقف
امام المهدي هو وولده وقاضيه ، وكان يعلم ما ينتظره في مثل ذلك الموقف ،
فاستجوبه المهدي ووبخه على مخالفة الدولة ونقض عهدها ، واقدمه على قتل
الحسن ابن ابي خنزير فدافع ابن قريهب عن نفسه دفاع الضعيف وقال مما

قاله : لقد اولاني الناس امرهم وانا كاره . ثم عزّلوني وانا كاره .

راى المهدي يومئذ ان الحلم ربما اعتبر ضعفا ، وان زجر صقلية قد اصبحت محتما بعدما ظهر منها . فامر با بن قريش وولده وقاضيه ان يضربوا ضربا مبرحا ، ثم قطعت ايديهم وارجلهم على قبر الحسن بن ابي خنيزر ثم صلبوا ، وكانت هذه المعاملة الفظيعة التي فشا ذكرها في طول البلاد وعرضها ، انذارا رهيبا لكل من تحدّثه نفسه بالخروج عن الطاعة ، والانتفاض .

ابو سعيد الضيف موسى بن احمد

اما اهل صقلية فقد ارسل اليهم المهدي اجابة غريبة لطلبهم : رجلا من زبانية البشر هو ابو سعيد الضيف موسى ، على راس اسطول قوى وجيش عتيد ، فنزل ارض صقلية فاتحاً غازياً كانه في بلاد غير اسلامية ، وراى اصحاب فتنه ابن قريش ان النذالة لم تغن عنهم شيئا فجمعوا امرهم في بلرمة وتحصنوا بها ، وامتنعوا عن ابي سعيد ، فجاءها ووقفت على جدرانها وقفة الجبار العنيد ، وحاضرها اشيرا الى ان نفذ منها السزاد والصبر ، فافتتحها واطلق يد جنده من قبائل كنانة فانتهكت الحرمات ، واستباححت المحرمات ، وهدمت الديار ، وخربت المعالم ، واخذ ابو سعيد خيل القوم وسلاحهم والرفيع من متاعهم ، ثم ضرب عليهم مغرما ثقيلا فادحا ، ولم يكفه كل ذلك من اعمال الزجر والتنكيل ، فاخذ وجوه القوم واعيان البلاد ، وبعث بهم اسرى الى افريقيا ، واراد الله لهم الهلاك فغرقت مراكبهم في البحر قبل وصولها .

ساد على الجزيرة يومئذ سكون هو سكون الموت ، وخضع الجميع للسلطة الفاطمية خضوع من لم يبق في فمه لسان ، ولا في يمينه سنان ، وسكن رجال كنانة قرى وقصور المغلوبين واصبحوا اصحاب الحول والطول في البلاد ، واستمر ذلك الى اذا انتهت اعمال الزجر والتنكيل ، وعمرت المدائن والشعور برجال الدولة الجديدة ،

فقفل الضيف (وى ضيف هو !) راجعا الى القيروان بعد انجاز مهمته ،

وقد دامت تكتبة صقلية الدهناء ، كما رأيت ، نحواً من عشرة اعوام ، ففى
الفترة الاولى .

سالم بن راشد

ارسل به المهدي واليا سنة ٣٠٥ فكانت نيته متوجهة لاستئناف الجهاد
وانجاز ما شرع به اسلافه من ولاية بنى الاغلب من فتح جنوب ايطاليا .

الفتح فى جنوب ايطاليا - كان اسطول المسلمين قد اشتد باسه وقويت
شوكته يومئذ ، وكان يقوده امير البحر ابو جعفر احمد بن عبيد ، فافتتح فى
قلورية مدينة وارى Orià بعد معركة هائلة اسفرت عن مصرع ستة آلاف من
الشمارى واخرج من المدينة عشرة آلاف سبية ، واسر فيها بطريقا ، صالحه
عن نفسه وعن مدينة بخمسة آلاف مثقال من الذهب ، ثم جاء قائد الاسطول
يسلم للمهدي تلك الغنائم الباهرة ، فقال بعض رجال الحاشية : تالله ان الذى
يؤدى هذا ليو الامين ! فجاب المهدي : والله ما اعطاني من الجمل الا اذنيه !

ومن هنا تدرك ان عبيد الله المهدي كان كثير الشكوك وكان لا يستثيق احدا
ثم فى سنة ٣١٣ ، وثب سالم بن راشد على مدينة طارنته الكبيرة الشهيرة
فتلقاه أهلها بدفاع حاز واستماتوا دون مدينتهم ، وكانت ملحمة هائلة اسفرت
عن انكسارهم واحتل المسلمون المدينة وثبتوا فيها .

فى سنة ٣١٥ ، استولى الاسطول على قلعة الخشب واستحوذ على ما كان
فيه من خيرات وارزاق ، وسار يؤم مدينة سالرنة الشهيرة Salerne
التي اصبحت من بعد ، بفضل علماء المسلمين اكبر كليات العالم القديم ، وكان
الغريد امير سالرنة يعلم ضعفه امام المسلمين ، ويدرك انه لا قبل له بمقاومة
اسطولهم الذى ملا البحر رغبا فاستنجد للدفاع عن مدينته برجال النرمان
الذين اخذ نجدهم يتألق فى البحر يومئذ .

صفحة بيضاء - القاضي ميمون - خلال هذه الايام السوداء الكدرة ،
وفى وسط هذه القنن الدغماء ، برى لزاما ان تسجل صفحة طاهرة من اجل
وازع صفحات القضاء الاسلامى هى صفحة القاضي ابى عمر وميمون .

لثرى منها ان الاضطراب ان كان شاملا كل نواحي السياسة والادارة ، وان
البلاء ان كان مخيما على الناس من كل جهاتهم ، فهناك ناحية بقيت فى معزل
عن الفتن ، وهناك سلطة لم تمتد لها يد الطغيان بسوء ، الا وهى ناحية
القضاء الاسلامى الذى بقى نزيها طامسرا قويا ، يلتجئ اليه الناس فيجدون
فيه الملجأ الامين ، ويحتكمون اليه فلا يجدون فى انفسهم حرجا مما قضى
ويسلمون تسليما .

نروى عن رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وافريقيا ، انه فى سنة
٣١٦ (١) ، ايام ولاية سالم بن راشد الشديدة القاسية ، توفى بمدينة سوسة
القاضى ابو عمر وميمون بن عمر ، وكان رجلا صالحا ذا دين وفضل سمع عن
سجنون ، وكان معدودا فى اصحابه ، ولى مظالم القيروان ثم ولى قضاء صقلية ،
فلما ولى قضاءها اجتاز بسوسة ، فقال : يا اهل سوسة ، هذا كسانى وهذه
فروتي وهذا خرج فيه كتيبى ، وهذه السوداء تخدمنى ومعها جبة وكساء فيهذا
دخلت عليكم فانتظروا باى شىء راجع .

قال ابو الربيع : فاخبرنى سعيد بن عثمان من اهل صقلية ، انه لما وصل
اليها قلنا له : هذه دار القضاء تنزل فيها ؟ ونزل فى ديرة لطيفة ، وكانت
السوداء تغزل وتبيع غزلها وتنفق عليه من فضل ذلك ، فاذا ضرب احد
الباب خرجت اليه ، وقالت الساعة يخرج عليكم القاضى الى ان اعتسل ،
فاقام ثلاثة ايام لم يخرج ، ففرع النسي الباب فخرجت لهم السوداء وقالت
ادخلوا فعودوا القاضى فانه مريض ، فدخلنا عليه فاصبنا وسادتين محشوتين
تبنا عند راسه وحضيرة يردى تحته ، فلما رآنا بكى ، وقال والله اننسى
اجتهدت ما استطعت ، ثم خرج من صقلية وهو مريض وقال لاهليها : خلف
الله لكم بعدى بخير . فقالوا صحبك الله بالعافية ، فوصل الى سوسة فقال
يا اهل سوسة : كما دخلنا عليكم رجعنا اليكم ، هذه كسانى وجبتى وخرجى
فيه كتيبى وهذه السوداء تخدمنى .

(١) فى كتاب السير للذهبي انه مات سنة ٣٢٠ . بعد ان عمر مائة عام .

قال محمد بن الحارث بن اسد الحشبي في طبقات علماء افريقيا : ادرسته مقعدا شيخا كبيرا ، وكان له دين ومكان على سنه ، عهدي به سنة ٣٠٣ ، وانا اقرا عليه موطأ مالك فقرأت عليه فيه كلاما لعمر بن الخطاب فجعل يبكي خسية وتواضعا ، فأتى لقى ذلك المجلس بين يديه حتى دخل عليه داخل ، فقال : فتحت صقلية - فجعل يتأسف - »

والمقصود هنا بفتح صقلية ، هو دخولها تحت طاعة الدولة الفاطمية .
مبدأ ظهور الترمان - رأينا في مقدمة هذا الكتاب التاريخية من هم الترمان وكيف انتشروا في شرق اوروبا وفي غربها ، ونفتح هنا باب البحث عن تدخلهم في امر صقلية ، ذلك التدخل الذي ابتداء امره عند انهيار الدولة الاغلبية وانتهى بزوال السلطة الاسلامية عن الجزيرة .

في سنة ٣٠٠ ، وفي الايام الاولى من ولاية ابن قهرم ، كان جماعة من الترمان يرجعون لوطنهم نرمنديا من زيارة القدس الشريف ، واذ كانوا على مقربة من صقلية استنجد بهم البعض من النصارى هنالك ضد المسلمين ، وقاتلوا في حرب معهم ، فاجدوهم ونصروهم على عدوهم .
 واذ رأى نصارى صقلية ان امبراطور الروم قد تفاقل عنهم ، وان نجداته المتوالية لم تكن بذات اثر فعال ، طلبوا الى رجال الترمان البقاء عندهم ، والأتيان بقومهم اليهم ، حتى ينتصر المسيحيون هنالك نصرا نهائيا على المسلمين .

(٩) بمناسبة ذكرنا للقضاء والقضاء الاسلامي نذكر طريقة القضاء في ذلك العصر ببلاد المسيحية : كانت العدالة تعتمد في الاغلب يومئذ على احبى طريقتين : الاولى هي المروفة باسم حكم الله ، وذلك بان يحمل المتهم بين يديه قطعة من الحديد المحمر بالنار ويسير بها بعض خطوات ثم يلقي بها الى الارض : فان خلقت النار آثارها بيديه بعد ثلاثة ايام كان مجرما واستوجب القصاص وصارم العقاب : وان خلت يده من آثار النار بعد ثلاثة ايام اعتبر بريئا واطلق سبيله .

اما الطريقة الثانية فهي المبارزة العدية : وذلك بان يلتقي المدعى والمدعى عليه ، وفي يد كل منهما سيف ويتبارزان . فالغالب في المعركة هو صاحب الحق والمغلوب هو الظالم المعتدى : وان كان المدعى او كلاهما غير قادر على استعمال السلاح فله ان يكلف وكلاء للدفاع عنه بواسطة السيف .

اعتذر يومئذ رجال النرمان عن البقاء ، انما وعدوا بارسال جماعة اخرى من قومهم ، اشد مراسا منهم واقدر على النضال والقتال ، ثم رجعوا الى بلادهم يحملون اليها ما انتجته المدينة الاسلامية في صقلية ، من نفائس المنسوجات الحريرية ، ومن سكر وبرتقال وثمار شهية كانت مجهولة كلها يومئذ في اوروبا ، ورغبوا شبانهم في ارتياد تلك الناحية طلبا للثروة ، تحست ستار الدفاع عن المسيحية ، والجهاد ضد المسلمين ، فكان يرتقال صقلية مذكيا لنهم النرمان ، كما كان تين قرطاجنة من قبل مذكيا لنهم الرومان عندما اخرج قاطون من كمه حبات من التين وخاطب المجلس قائلا : ان ارضا تنبت مثل هذه الثمرات يجب ان تكون لنا .

من ذلك الحين اخذ قرصان النرمان يجوبون تلك البحار ويترصدون القرص التي تمكنهم من تفويض سلطان المسلمين .

استمرار الفتح في جنوب ايطاليا - وفي سنة ٩١٧ كانت عمارة اسلامية مؤلفة من اربع سفن ترتاد البحر فلقيت اسطولا طليانيا مؤلفا من سبع سفن ، فداهم الاسطول الاسلامي اسطول الطليان ودخره وكانت نتيجة هذا الانتصار البحري ان استولى المسلمون على مدينة طرمولي Termoli ومن اغرب غزوات هذا العهد غزوة القائد يعقوب ابن اسحاق ، فقد سار على رأس اسطول ضخم من اساطيل المسلمين ، قاصدا شمال ايطاليا ، فاصطف امام مدينة جنوة Gene درة ايطاليا اللامعة ومرساها الذي سارت بذكره الركبان ،

ونازلها فانس منها ضعفا ، فانزل جنده وبحارته وصادمها صدمة عنيفة مكنته من اكتافها ، فاحتلها ونصب فوق جدرانها راية المسلمين الطافرة الى حين .

الثورة - لم تكن هذه الحروب الخارجية ، وما كلل الظفر به هامتها من فخار ، لتشفل سالم بن راشد عن الحذر والانتباه ، خشية انتقاض اهل صقلية الذين القوا الثورة ، وسكنت قلوبهم الاحقاد والضمان ، اثر اعمال الزجر والتكيل التي قام بها سلفه والتي تجعلهم يندفعون في ذلك السبيل لادنى مناسبة .

ولو ان سالما والذين ارسلوا به واليا من قبلهم ، راوا ان يسلكوا يومئذ

سياسة اللين والمجاملة ، وجبر القلوب المنكسرة ، واسدال ستار النسيان عن الماضي القريب لكان ذلك اوفق لهم واهدى سبيلا .

لكنهم راوا عن قصر نظر ، وسيرا من اهواء النفس واندفاعا مع تعسرة عنصرية مقبوتة زادها الانتصار بطرا ، ان يمعنوا في سياسة العنف والشدّة وان يرهقوا الناس الى اقصى درجة الارهاق ، قتل لروح التمرد فيهم وقضاء على ما في نفوسهم من طموح .

وما رأينا في التاريخ ان سياسة مثل هذه السياسة انتجت غير الثورة والدماء والخراب والدمار ، وما انتج الضغط كما يقولون الا الانفجار . فان كانت بالرمة وضاحتها قد نالها من اعمال الزجر والتنكيل ما اخمد انفاسها الى حين ، فان جهات اخرى من البلاد كانت لا تزال محافظة على قوتها الروحية تآبى الضيم ، وتستنكف عن الخضوع للظلمة الجبارين ، فانتضت ناحية جرجنتى انتقاضا جعل سالم بن راشد يعجز عن اخماده ، فارسل الى المهديّة يستنجد الامير ابا القاسم بن عبيد الله المهدي ويهول له امر الثورة ، ويزين له طريقة اخمادها بين الحديد والنار ، واسقاط كل راس تحاول الارتفاع فاقننح الخليفة الفاطمي وارسل على صقلية جندا جديدا ، سنة ٣٢٥ (١)

خليل ابن اسحاق

ولم يكن الجند الذي ارسله الخليفة على صقلية هو وسيلة الزجر والتنكيل بل كانت الوسيلة الحقيقية للبطش والارهاب ، متمصصة شخصى الوالى الجديد الجبار العنيد خليل بن اسحاق الطاغية ، او حجاج المغرب وصقلية ، انما

(١) فى سنة ٣٢٣ هـ ، تولى حكم مصر من قبل بنى العباس محمد بن طنج الفريغانى التركى الملقب بالاشيد ؛ فاعلن استقلاله كما فعل من قبل ابن طولون وتولاها آله من بعده ، ثم تولاها بعدهم الاسود كافور الاشيدى ؛ الذى خلفه ابنه الطيب المنبى ؛ بما قاله فيه من غدايح رفعته الى السماك الاعزل ، ومن مهاجى تزلت به اسفل الحضيض ؛ وانتهى امر هذه الدولة التى ملها الناس على يد جوهر الصقل قائد الفاطميين الذى احتل مصر ، واختط مدينة القاهرة التى أصبحت عاصمة الدولة الفاطمية ، وانشأ الجامع الازهر (٣٩٠ هـ - ٩٧٠ م) .

ليس له من الحجاج بن يوسف الاجراته على سفك الدماء والبطش على
السواء بالمجرمين والابرياء وليس له عملة وذكاؤه وقضاوته .

ان كان سالم بن راشد شديدا في سياسته ، فانه لم يكن يصل بتلك
الشدة الى درجة القضاة ، ولم يكن يريد سفك الدماء الادماء الذين يعتقد فيهم
النزوع للفتنة او يرى في القضاء عليهم قضاء على الثورة والعصيان ، فما كادت
تستقر اقدام النخبة التي تسمى خليل بن اسحاق في ارض صقلية ، حتى
ادرك سالم بن راشد فداحة الخطب وامتداد الكارثة التي كان بنفسه سببا
لها ، فاعلن مع جماعة كبيرة من القوم انه لا يشارك الوالي الجديد في اعماله
وانتحي جانبها معلنا بنفسه الثورة التي كان استمد الخليفة لاطفاء ثيرانها ،
وكان يريد ان يرسل له الخليفة حندا ، لا ان يرسل مع الجند واليا جديدا .
ابتدأ خليل ابن اسحاق امره باختطاف قرية في ضواحي بالرمة ، حصنها
وشاد فيها القصور وديار الجند واسماها « الخالصة » واتخذها مسكنا له
ولخاصته وجوه جنده تحميمهم عند الحاجة من ثورة السكان . واخذ لعنه الله
وسود اسمه في التاريخ الى الابد يعن في الظلم . ويبلغ في الجور والافحاش
درجة لم يسمع مثلبا من قبل ولا من بعد ، ولم تكن نتيجة لهذه القضاة ازهاق
النفوس ولا موت الناس جوعا فحسب ، بل انها جعلت بعض الناس ، وقد
راوا مدى الكارثة التي اصابوا بها في اموالهم واعراضهم ونفوسهم يفرون من
صقلية ومن جنوب ايطاليا ، ويدخلون ارض النصرانية ، ويعتقون هناك
الديانة المسيحية ولو بصفة ضورية .

ولقد قضى هذا الفاجر اربعة اعوام في صقلية يقتل وينهب ، وينتهك
الحرمات ويجوع ويظلم ، وكان اثناء ذلك يوالى حصار جرجنتي التي استعصت
عليه ، اذ علم اهلها هالهم ان هم استسلموا ، ودام الحصار اربعة اعوام كاملة
الى ان ضاق عليها الخناق فاحتلها ونكل بها تنكيلا لا يوصف ، ثم اراد العودة
الى افريقيا وقد اعتقد انه انجز مهمته للعينة فحمل معه جماعة كبيرة من وجوه
الجزيرة وكبرائها وعلمائها ، زعم انه يريد ان يقدمهم للخليفة بالمهدية ، وامر
في عرض البحر فثقلت المراكب التي كانت تحملهم ، وهناك بين امواج البحر

المتوسط الذي جاهدوا وجاهد اجدادهم في سبيل سيادته ، قضوا نجيبهم
شهداء الجور والفظاعة والنقمة العنصرية

ولقد حضر هذا اللعين خليل بن اسحاق مجلس الخليفة في المهديّة ، فكان
يقاخر الناس بشروبه وآثامه وفضائمه ، ومما قاله تقربا الى الخليفة كانه
فعل ذلك في سبيل دعوته وتوطيد سلطانه : « اننى قتلت فى امارتى الف
نسمة » - فاجابه احد علماء الدولة الشيعية ، ابو عبد الله المؤدّب « لك
يا ابا العباس فى قتل نفس واحدة ما يكفيك ! »

الروم والترمّان - فى هاتيك الاثناء ، والمسلمون يقاسون محنة لم يسبق لها
مثيل ، وسيوف بعضهم تحز فى رقاب البعض الآخر ، كان المسيحيون عامة
ينظرون هذه الحوادث الرهيبة بعين الجذل والسرور والامل ، فكان الروم
يعدون العدة لمهاجمة الجزيرة بقوة ، وارجاعها لسلطان القسطنطينية ، وكان
المدد من ناحيتهم يترى للنصارى الذين بقيت لهم فى صقلية بقية ، وكان
رجال الترمّان من جهة اخرى ، يفدون زرافات فى مراكبهم الخفيفة فينقضون
على المسلمين فى جهة بعد جهة ، يفنون منهم السبايا والاسلاب ، ويعودون
لبلادهم .

واخيرا ما كادت تنتهى ايام خليل بن اسحاق الرهيبة ، حتى تركت فى
صقلية جرثومة الداء الذى سيقضى عليها بعد حين : ذلك ان جماعة قوية من
الترمّان نزلوا سنة (٣٢٧) ناحية من صقلية ، وتحصنوا فيها ، وجعلوها
مركزا منيعا لا يقومون به من قرصنة فى البحر ، ومن غزوات وانتهاب فى
البر ، وهكذا بينما كان المسلمون يقاتل بعضهم بعضا ، كان النصارى
يقاتلونهم جميعا ومن كل جهة .

ولقد كان الترمّان فى اول عهدهم بالغزو فى صقلية كما قال عنهم العلامة
غوستاف لوبون : يشتغلون بنهب الطليان واليونان والعرب على السواء بهمة
ونشاط دونهما همتهن ونشاطهن فى الدفاع عن الدين (المسيحي) .

عطاق الازدی

لكن ازمة صقلية كانت قد انتهت الى حين ، وادرك المنصور بالله اسماعيل ابن القاسم بن عبيد الله خليفة المهدي او تلك السياسة التي سلكها اسلافه لم تات الا بعكس النتيجة المطلوبة ، وان قطرا اسلاميا هو طليعة المسلمين نحو الارض الاروبية يوشك ان يسقط برمته تحت قبضة النصارى ، بسبب تلك الشدة وذلك الارهاب ، فاقتبل وفد صقلية ، واستجاب لما عرضه عليه ، وعندما نبأ ثورة بالرم على عطايف الازدي ، بادر بتعيين فاضل من فضلاء الامة ووجهها من وجوه الدولة ، هو الحسن بن علي بن ابي الحسين الكلبي واليا على صقلية وممثلا الدولة فيها ، على ان يسلك هنالك سياسة جمع الشمل ، واتفق الكلمة ، والاستعداد لمقارعة النصارى الذين كانت دعوة الحرب الصليبية ضد الاسلام والمسلمين تلهب قلوبهم وتتقد في افئدتهم نارا .

وصل الحسن صقلية مفتتحا بها عصرا جديدا كان عصر ازدهار وجهاد ونمو ، سنة ٣٢٦ (٩٤٧) وانتهى بذلك عصر الشرور والآثام والمصائب والفتن والتنكيل والارهاب ، التي دامت مدته نحو من ٥٠ سنة ، تتخللها لا محالة فترات راحة نسبية ، وكانت هذه الفترة النعسة في تاريخ صقلية من اكبر اسباب انهيار ملك المسلمين فيها ، وتغلب النصارى فيما بعد عليها ، وذلك لان المسلمين قد استنزفوا كل قواهم في تلك الثورات المتوالية ، ولان اعمال الزجر والتنكيل قد ذهبت باحسن القوم وازدادت اكثرهم قوة واشدهم نفوذا ، ولان الخلاف اللعين بين المسلمين : بين سنة وشيعة ، وبين عرب وبربر ، قد توطن في النفوس وتوطد بكيفية لم تستطع صقلية التخلص منها فيما بعد الا بصفة سطحية ، ولان المسلمين خلال تلك السنين النعسة قد تركوا امر النصارى وامر الجهاد ، فتمكن هؤلاء . تمكنا جعلهم يعيدون الكرة على المسلمين ، فان با الروم بالانحذار فقد نال النرمان آخر الامر كل الفوز والانتصار .

القسم السادس

الحكم الاسلامي ايام الدولة الفاطمية

عصر الاستقلال الذاتي السعيد

الحسين بن علي بن ابي الحسين

جاء الحسن واليا من قبل المنصور ، يخال بين بردتي فضل وشمم ، وكان معه اسطول يحمل جندا ومتاعا ، فنزل مدينة مازرة ، سنة ٢٣٥ فلم يلقه احد هنالك ، ولما جن الليل ، جاءت جماعة من كتامة ومن وجوه الجند الافريقى المتقدمة ضد عطف وضد الحكم الفاطمى ، وضد سياسة الشدة والارهاب ، واوصوه بالجذر الشديد ، ايقاروا لصدوره ، وحثا له على الاستمرار فى سياسة البطش والارهاب

لكن الحسن كان غير الرجال السابقين . وقد جاء صقلية بحمل فكرة صالحة ويعتزم سلوك سياسة رشيدة ، ضاربا صفحا عن كل ما تقدم من أمر الفتن والاضطراب .

سار فى جنده وموكبه ودخل بالرمة العاصمة ولم يكن آل الطبرى قد اتصلوا برسائل من وفدهم بالمهدية لكنهم لم يجسروا على مقابلة الحسن وراوا التريث والتهمل الى أن يظهر امره وتتجلى سياسته .

العدل أساس الملك - رأى آل الطبرى يومئذ الالتجاء الى مكيدة تمكنهم من سبر غور الوالى وتجعل لهم الحجة فى اعلان الانتفاض عليه واثارة العامة والدهماء ضده فاتفق السيد اسماعيل آل الطبرى مع أحد غلمانه واستدرج الى داره احد عبيد الحسن ومهد له سبيل الاختلاء بجوهرية من جواريه ثم اخذت اصوات الصراخ والاستفانة ترتفع من كل اطراف قصر آل الطبرى ،

واسماعيل يزجربان عبدا للوالى انتهك حرمة منزله ، واعتدى على حرمة ، فاجتمع الناس وقبضوا على العبد وساروا به الى قصر الولاية امام الحسن بن على ، وكان اسماعيل يعتقد ان الامير لا يتنازل لسماع شكائسه ، او الاقتصاص من عبده ، وبذلك يتمكن من اثارة العامة ضده ، لكن الامير الحسن اوقف عبده موقف الاتهام على مرأى ومسمع من الناس ، واعترف العبد بما اتهموه به فاصدر الامير امره باعدامه ردعا لامثاله ممن تسول لهم انفسهم الاعتداء على الحرمات ، فاكبر الناس منه ذلك الانصاف ، ومالت قلوبهم اليه ، وانقلبت مكيدة ابن الطبرى ضد مدبرها .

ثم ان الخليفة المنصور قبض على من عنده من آل الطبرى بافريقيا واصدر امره للحسن بان يقبض على بقاياهم فى صقلية ، ويرسل بهم اليه ، ففعل بعد ان استدعاهم لوليمة يستانه نازعا سلاحهم ، مفرقا عنهم انصارهم ، وارسل بهم الى افريقيا حيث اسكنهم المنصور بعض الجهات وابعدهم نهائيا من مركز الفتنة .

المودة للجهاد وفتح طبرمين - اطمأنت النفوس للحسن ، والتفتت اذ راوا فيه مثال العدل والنزاهة والخلق الكريم وراوا فيه طي صفحة الماضي المؤلم ، ماضى ولاة الجور والتنكيل والانتقام ، وفتح صفحة جديدة تربط حاضر صقلية ومستقبلها بناضيها الجليل .

راى الروم ذلك ، وايقنوا ان المسلمين اذا ما جمعوا امرهم ، ووجدوا كلمتهم فلا نتيجة لذلك الا عودتهم الطافرة لميدان الجهاد . فبادر المسيحيون بدفع اموال الجزية المتخلفة لديهم عن ثلاثة اعوام ، وقد تقاعسوا عن دفعها عندما رأوا ما حل بالمسلمين من خلاف وشقاق وفتنة دهماء .

فى سنة ٢٥١ هاجم المسلمون قلعة طبرمين التى كانت تحمل امال الروم القسطنطينيين فى شرق الجزيرة ، وكانت مستنعة على المسلمين بما امدها به الروم ، وكان المسلمون يومئذ تحت قيادة الامير احمد بن الامير الحسن وقد اشركه ابوه معه فى الحكم واعده ليخلفه من بعده ، ودام حصار طبرمين سبعة

تاريخ صقلية - ١٠

اشهر ثم اقتحمها المسلمون بين اصوات التهليل والتكبير ، بعد ان قطعوا عنها الماء وافتتحوها ، واطلق عليها القائد احمد اسم « المعزية » نسبة للخليفة المعز الفاطمي .

ثم توجه المسلمون تحت قيادة القائد الكبير الحسن بن عمار ، ينصبون الحصار على مدينة رمطة Rametta جنوب طبرمين محطمين بذلك آمال النصرانية في شرق الجزيرة ، وكان الروم قد حصنوا المدينة تحصينا منيعا فاشتد المسلمون في حصارها ونصب الحسن بن عمار حولها المجانيق والغرادات فالحق بالمدافعين عنها اضرارا جسيمة الى ان اقتحمها عنوة وافتتحها يوم الخميس آخر رجب سنة ٣٥٢ (٩٦٣)

مسجد ريو = كانت جزيرة ريو ، من جزر النصرانية يختلف اليها المسلمون ويستقرون فيها لأمور تجارتهم الواسعة او يقيمون فيها أثناء سفارهم فارسل الأمير الحسن بن علي بنائيه ورجال الفن واخط في تلك الجزيرة مسجدا فخما في احد اركانها ماذنة عالية ، وتماقد مع النصراني على احترام الحرية الدينية ، وتهدوا له انهم لن يمنعوا المسلمين من غشيان المسجد وتوعدهم الأمير بانهم ان حالوا دون المسلمين ومسجدهم فانه يقابل العمل بمثله ، ويعول بين المسيحيين وكنائسهم في صقلية وافريقيا ، واشترط عليهم ان المسجد حرم يحتمى من التجا اليه مثل سائر معاهد الدين في ذلك العصر ، واحترم النصراني العهد .

محاولات الروم في جنوب ايطاليا = في هاتيك الاثناء والمسلمون يستعدون للقضاء نهائيا على آخر آمال الروم بتلك الديار ، ويستعدون للقضاء على الخطر النرمانى الناشئ . كان بلاط الروم في القسطنطينية يشعر بمقدار الكارثة التي اصابته ، ويستعد لا سترجاع مكائنه الحربية وسمعته السياسية وقيمته الدينية المسيحية ، فجهز الامبراطور اسطولا عتيدا حمله جندا غفيرا وسلاحا وفيرا وارسل به نحو الجنوب الطليانى يحاول استخلاصه من ايدي المسلمين علم الحسن بن علي بالامر ، فارسل الى المهدي يستنجد بها ، فجاء الاسطول الفاطمي يحمل سبعة آلاف فارس وثلاثة آلاف وخمسمائة راجل ، واستعد

الفريقان للنزال والكفاح وكان ذلك سنة ٣٣٦ (٩٤٨) فالتقى الجمعان بسرا ويحرا ، واندحر الروم فرجعوا على أعقابهم خاسنين . وشيد الحسن بن علي مسجدا بمدينة رجيو (Réggio) في قلورية توطيدا لحكم المسلمين وتثبيتا له ، واجبر الروم المقيمين بمدينة اوترنتة على دفع الجزية .

بعد سبعة اعوام من ذلك ٣٤٣ ، اعاد الروم الكرة على المسلمين فسي الجنوب الطلياني ، وجاء بطريقهم ارجيوس على رأس عمارة بحرية قوية فنصب الحصار على مدينة نابولي ، وكانت عاصمة امارة مسيحية مستقلة ، وحليفة وفية لمسلم صقلية ، وكان الروم حاولوا يومئذ الانتقام منها من أجل ذلك .

سار المسلمون تحت قيادة الأمير عمار بن علي اخي الأمير الحسن وقد كان يتولى امر المسلمين في اوروبا ، فجمعوا جهودهم الى جهوداهل نابولي ، وتمكنوا من دحر اسطول الروم ، وردوا المهاجمين على أعقابهم مرة اخرى .

لكن الروم نزلوا الارض في بلاد قلورية ، محاولين قطع الصلة بين صقلية والبلاد الاوروبية ، فتمكنوا من بعض الجهات ، واحتلوا مدينة رجيو وهدموا مسجد الحسن بها ايثانا بزوال سلطة المسلمين ، وغلوا في التعصب المسيحي جميع الأمير الحسن قوته ، سار الى قلورية يضم جهودا لجهود اخيه عمار ، فالتقى المسلمون بالروم في وقائع عديدة ، واعادوا احتلال رجيو ، ثم التقوا باسطول الروم امام مرسى او ترنتة فحطموه ودحروا بقاياهم ، واضطر الروم للانسحاب وطلب المهادنة وذلك سنة ٣٤٨ (٩٦٠)

الانتصار الاكبر في معركة المجاز - كان الفريقان يعلمان ان القتال بينهما لم ينته بعد وكانا يستعدان للملحمة الكبرى الحاسمة ويعدان لها العدة ، ويعلمان ان نتيجتها ستكون اما خسارة صقلية وجنوب ايطاليا نهائيا وانقطاع امل الروم بصفة باتة هنالك ، او تقلص ظل المسلمين وانهيار سلطانهم نهائيا في البلاد الاوروبية وجزيرة صقلية .

ولم يضيع الروم وقتهم سدى . فقد جهز الامبراطور اسطولا لم يجهز مثله من قبل قوة ومتمعة وعددا ، وشحنه بأربعين الفا من اشداء المقاتلين ، تحت

امرة ابن اخيه ما نويل واميير البحر نيسستاس ، ونزل الروم ارض صقلية في ناحية المضيق الذي يفصل بينها وبين ايطاليا ويسميه العرب المجاز ، وكان الجند الرومي مؤلفا من جماعات الاغريق والمجوس والارمن والروس ، ففى قوة لم تطا ارض الجزيرة مثلها من قبل .

وضع المسلمون قوتهم وكانت قليلة العدد بالنسبة لقوة الروم تحسنت امرة القائد الحسن بن عمار ، فسار على راس المجاهدين المسلمين يقف في طريق الجند الرومي ويحول بينه وبين الوصول الى رمطة .

استعد الحسن للمعركة فوضع جندا في مضيق بنقش ، وجندا آخر في مضيق دمتش ، وهما طريقان جبليان وعران ، وعلم قائد الروم ما نويل بذلك فارسل فرقتين من الجند قويتين لتفتح كل واحدة منهما مضيقا وتتزع من ايدي المسلمين طريق ورود النجدة والمدد .

التقى الجمعان ، وزحف المسيحيون في ستة مواكب فاحاطوا بالمسلمين من كل ناحية نظرا لكثرة عدد الروم وقلة عدد المسلمين ، فجاهد المسلمون جهاد المستحيت وتغلب عليهم الروم فتقهقروا حتى وصلوا خيامهم ، وايقن الروم انهم فازوا وغلبوا واستولوا على معسكر المسلمين .

لكن هنالك قوة يصعب التغلب عليها ويستحيل قهرها الا وهى قوة الروح ، قوة الايمان ، قوة العزيمة ، تلك قوة تستطيع ان تغلب وان تتغلب ، وتستطيع ان تفرض ارادتها وتنتصر اذا ما خارت قوى المادة وضعفت .

راى المسلمون انفسهم نقطة ضعيفة وسط لجة من قوى الروم ، وعلموا انهم خسروا المعركة فصقلية كلها قد ضاعت ، ومسلموها اصبحوا عبيدا ، ومساجدها صارت محطمة ، وعمرانها امسى خرابا ، ثم علموا ان النصر لمن صبر الساعة الاخيرة ، فتشجعوا بعد وهن ، وتغلبوا على ما اصابهم من ضعف وروعة ، وجمع الحسن ابن عمار رحمه الله جماعة صادقة من المسلمين وقال : اللهم ان بنى آدم قد اسلموني ، فلا تسلمني ! وحمل معهم الابطال على جماعة الروم ، وتبعه رجال المسلمين من كل صوب ، وراى ما نويل ان رجال الروم قد اصابتهم الدهشة من هذه الصدمة التى لم تكن منتظرة ، فصاح بهم :

اين افتخاركم بين يدي الامبراطور ! واين ما ضمنتم له في هذه الشردمة القليلة ؟ واشتدت المعركة وسالت الدماء ، وتناثرت الاشلاء وتساقطت الجثث وتغلب المسلمون القليلون على الروم الكثيرين ، اخيرا ، واقتحم احد مجاهدي المسلمين صفوف الروم فوصل الى القائد مانويل وارداه قتيلا

واذ كان النصارى يقاسون كربا ثقيلا والمسلمون يمعنون فيهم قتلا واسرا ، تارت زوبعة شديدة ورعد وبرق ، فاشتد الرعب والفزع بالروم واصبحوا لا يفكرون الا في النجاة بالنفس ، وصدق الله تعالى قوله : (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين)

انهزم الروم لا يلوون على شيء ، فقالوا في انهزامهم الى جهة ظنوها سهلة وطينة توصلهم الى ساحل البحر فاذا هي جهة وعرة صعبة المسالك ، ادت بهم الى جرف عظيم ، فسقط الكثير منهم فيه ، وامسوا هنالك يقتل بعضهم بعضا والمسلمون ينهالون عليهم ضربا بالسهام والسيوف ، فما انقضى اليوم حتى ترك الروم نحو العشرة آلاف قتيل على اديم الارض ، وانهزمت بقاياهم شريدة حتى وصلت الاسطول فتجعت بنفسها فيه ، وباه المسلمون بنصر عظيم في معركة من اروع واشد واغرب معارك القرون الوسطى ، وكان ذلك يوم عرفة من سنة ٣٥٤ (٢٤ اكتوبر ٩٦٥) وجاء المسلمون بالبشرى الى بالرمة ، والامير احمد ابن الحسن يسوق الغنائم والاسلاب والاسرى ، وخرج الامير الحسن بن علي للقاء ابنه مهنا المسلمين بانتصارهم وفوزهم ، واصابته حمى من شدة تأثره وسروره في ذلك اليوم العظيم ، فمات رحمه الله من اثر ذلك بعد ولاية دامت نحو العشرين عاما ، كانت غرة في جبين الدهر ، وآية من آيات المسلمين ، اظهروا فيها ما يستطيعون القيام به من جلائل الاعمال في الحروب والسياسة والعمران ، ان هم وحدوا جهودهم ، وجمعوا كلمتهم ، ووجهوا همهم للقيام بالرسالة الكبرى التي اختارهم الله لا داتها في تلك العصور الوحشية ، لاجراج الناس من الظلمات الى النور .

احمد بن الحسن بن علي

اجتمع الناس امرهم على توليته بعد ابيه ، وقد كان كما علمنا مشاركا له



« قلعة فيسي » شوش من القرية الصغرى الجبلية



كنيسة سان جيوفاني من النار المسلمين بضواحي بالرمه



القصر الملكي ببصرة من الخارج



القصر الملكي ببصرة من الداخل



التعمر الملكي بدارية من الداخل فسيخسه في غرفة رجاء الثاني



كاتدرائية بالرمية . بني السلون فسجها الشرقي والأوسط



شمعدان من صنع عربي بكنيسة بالرمة



دير القديس يوحنا



كنيسة القديس يوحنا



كاتدرائية سيغالو



قصر القبة من آثار المسلمين بضواحي بالرمة



دير المورخيل



كاندراية الموزيال



منظران الكاتدرائية مونريال





القبّة الحجراء



العين الجارية بالقاعة الكبرى بقصر العزيز



كنيسة القديس ستيفانو



« رداء حيريري » رسم فيه نمر يفتخرس جلأ ، وحوله سكةاية كوفية ، تشير الى انه
صنيع سنة ٥٣٨ هجرية للملك زجبار الثاني ، وكان مملوك التركمان وابطولة الامان بعدهم
يزعمون انه في حفلة الترويع وهو مخفوقا يتخلف مذبذبة نورنبرغ وصنعه على خط صنيع
« العجار التوسي »



بالا البحر الأبيض المتوسط
كما وصفه القبط في القرنين
العاشر والحادي عشر
م. ش. في كتابه الجغرافيا
التي كتبت في القرنين
العاشر والحادي عشر
م. ش.

البحر الأبيض المتوسط

البحر الأحمر

البحر الهندي

البحر العربي

البحر الفارسي

البحر الكاسبي

في الحكم والتدبير والجروب طيلة حياته .

الاجهاز على الروم - لم يضع الوقت سدى ، ولم يرد ترك الروم يجمعون من جديد فلولهم لاعادة الكرة بعد نكبتهم الكبرى ، فبادر بمهاجمتهم بخيله ورجله ، وفاجأهم في المعقل التي التجأوا اليها ، فاسترجع رمطة واسر من كان بها من بقاياهم ، ثم اجتاز البحر مسرعا الى قلورية ، فاحرق في رجبو اسطول الامبراطور واسر امير البحر ينساتاس ، وارسل به مع عدد جسيم من عظماء الروم الماسورين الى بلاط الخليفة في المهديّة ، ويقول بعض المؤرخين ان من جملة الغنائم التي وجه بها الى المهديّة سيف هندي بديع الصنع ان من جملة الغنائم التي وجه بها الى المهوية سيف هندي بديع الصنع منقوش عليه : « سيف هندي ، وزنه مائة وسبعون مثقالا طالما ضرب به بين يدي رسول الله » .

الصلح : اذعن الروم للامر المقضى ، وعلموا انهم لن ينالوا من مسلمي صقلية مثالا ، وان آمالهم خابت هنالك بصفة نهائية ، فعزموا منذ تلك الساعة على عدم التدخل مطلقا في امور الجزيرة ، وارسلوا وفدا من القسطنطينية حل بمدينة المهديّة وتقدم امام الخليفة المعز ، يطلب الصلح ويعلن جهارا عزمهم على عدم العودة ، ويقدم للخليفة ورجال بلاطه واعيان دولته هدايا نفيسة ، وتعاهد الجانبان على ان لا يعود الروم مطلقا لساحل صقلية ، ومقابل ذلك يخلي المسلمون طبرمين ورمطة لكي يسكنها المسيحيون من نصارى الجزيرة .

كانت هذه غلطة سياسية كبرى ارتكبها المعز ورجال شوراه ، لانها مكنت النصارى من شرق الجزيرة بعدما اخرجتهم منه شدة شكينة المسلمين ، ولان تلك البقاع أصبحت فيما بعد ، كما سيمر بك ، مركزا جهاد المسيحية ضد الاسلام بهاتيك الديار ، على يد النيران . والحال ان نصارى الجزيرة كانوا على احسن حال مع المسلمين .

اصدر الخليفة امره المطاع للامير احمد بن الحسن ، باخلاء مدينتي رمطة وطبرمين تنقيذا للمعاهدة ، فاغتم المسلمون من ذلك وتالموا الا عظيما واذعن الامير احمد للامر ، الا انه عمده قبل ذلك لتخفيف وقع تلك الغلطة فارسل اخاه

ابا القاسم صحبة عمه جعفر على رأس جماعة من المسلمين ، فأخرجوا من
المدنيتين كل السكان واعلموا فيها المعاول والفؤوس فلم يتركوا فيها حجرا على
حجر واحرقوا بالنار هاتيك الانقاض فلم يتركوا للمسيحيين ، تنفيذ المعاهدة
الا زكاما من خراب ورماد ،

ختان اطفال الجزيرة : ساد الجزيرة عهد فرح وسروروا من اثر ذلك النصر
ختان اطفال الجزيرة : ساد الجزيرة عهد فرح وسروروا من اثر ذلك النصر
العظيم واقبل الناس على اعمالهم العمرانية وانتشأهم يصلحون ما اقسدته
ايدي الفتن السالفة ، وما اوقفهم سير الجروب والملاحم عن انجازة .

ومن اغرب ما حدث هاتيك الايام قبيل وقعة المجاز ، ما يدل على مبلغ ما
تمتعت به الجزيرة من سكون وامن وعافية اثر ولاية الحسن بن علي المباركة
الطويلة وابنه وشريكه في الحكم احمد بن الحسن ، ورد الامر من الخليفة
المعز في المهدي بالاحتفال في جميع جهات الجزيرة بختان جميع اولاد المسلمين
الذين هم في سن الختان ، وذلك في نفس اليوم الذي يحتفل فيه المعز في
المهدي بتطهير اولاده .

احصى الامير احمد الاطفال الذين يجب ختانهم تنفيذا لرغبة الخليفة فكانوا
خمسة عشر الفا ، وابتدأ الامير بتطهير اولاده واخوته في مستهل شهر
المولد النبوي من سنة ٣٥٦ . ثم ختن اولاد الخاصة والعامة ، ووزعت الصلاة
على جموع المختنين هدية من الخليفة الذي ارسل لصقلية بتلك المناسبة ،
لتوزع على الاطفال ، مائة الف درهم وخمسين حملا من الهدايا .

ابو القاسم على

في سنة ٣٥٨ (٩٦٨ م) استقدم الخليفة المعز للمهدي امير صقلية احمد
بن الحسن واولاد قيادة اساطيل الدولة لما اظهره من معرفة بفنون قتالها
ومهارة في قيادتها ، فارتحل الامير احمد من صقلية آخذ معه عائلته وامواله
ومتاعه ، وترك الامر فيها لاختيه ابي القاسم علي بن الحسن .
وكان هذا الامير رحمه الله من خيرة امراء الجزيرة من بني الحسن ، عادلا

رحيما ، شديدا في الحق ، مواسيا للفقراء والبياتسين ، قال ابن خلدون :
وكان عادلا حسن السيرة وقال عنه ابن الاثير وكان عظيم الصدقة ولم يخلف
دينارا ولا درهما ولا عقارا فانه كان قد وقف جميع املاكه على الفقراء وارباب
البر واستمرت ولايته السعيدة ١٣ سنة .

تدخل الترمان : في هاتيك الاثناء ، والمسلمون في صقلية يجمعون
شتاتهم ويرايون صدعهم ، وقد امنوا رجوع الروم محاربين بعد ان دحروهم
مرات عديدة خلال عشرات السنين ، كان رجال الترمان قد وطلدوا عزمهم على
الاستقرار بهاتيك النواحي . ووجدوا فيها المرتع الخصيب ، وعلموا انهم
لا محالة متمكنون منها ، بعد جهود ومضى وقت . ابتدا الترمان اعمالهم
بنواحي ايطاليا فاحتلوا مدن ابر نديزي وطارنطة التي كانت مركزا لا مارة
اسلامية مستقلة . ثم استولوا على جزيرة كرسكا واتخذوا منها مركزا
لاعمالهم ضد المسلمين ، وما كان الترمان يحاربون المسلمين وحدهم
بل كانوا يحاربون الجميع على السواء ويريدون ان يبتنوا لانفسهم هناك
ملكا على حساب المسلمين والباباوية والامارات الطليانية ، وعلى حساب
المسيحيين الذين جاءوا يزعمون انقاذهم من براثن المسلمين ، ثم هاجموا
مدينة رومة نفسها ، في حديث ذي شجون .

رسالة البابا للامبراطور : ارسل البابا ليون التاسع رسالة صور فيها
حقيقة الامة الترمانية الى امبراطور القسطنطينية ، يستنجد به هؤلاء
الاقوام الوحوش ، وما يقوله في رسالته تلك :

« لقد انفطر قلبي اسى مما قصه على مندوبو ولدي ارجيروس ، فيما
يتعلق بفوضى الامة الترمانية ، وخبثها ، وسقوطها ، وازدراؤها بالدين زراية
بزت زراية الذين لا يؤمنون ، لذلك قد عقدت العزم على تخليص ايطاليا من
جيروت هؤلاء الاجانب الذين اندفعوا على البلاد متكالبين لا يحترمون شيئا ،
ويذبحون المسيحيين بعد اذا قتلهم انواعا من العذاب الاليم ، ثم انهم ليستلهم
اي عاطفة انسانية ، فهم لا يميزون بين كبير ولا صغير ، ولا بين رجل وامرأة
وانهم لينتهبون الكنائس المقدسة ثم يحطمونها ويوقدون فيها النيران . »

ولطالما مات عليهم وشنعت باعمالهم وانذرتهم وحذرتهم عقاب الله ونعمته لكن
صدق الحكيم الذي قال : ان من تخلى عنه الله بقى سرمداً في الشقاء ، ولن
يرجع الكلام العقل الى المجانين » الخ -

لم يتلق البابا جواباً من الامبراطور الذي ترك نهائياً امر صقلية وايطاليا .
فاستنجد بالالمانيين ، الا ان اسقفهم اشار عليه بعدم محاربة رجال ينتسبون
الى المسيح ، فما وسع البابا الا جمع جند باسمه وتحت رايته وحارب النرمانيين
فانخذلت جموعه ، وانكسر ووقع بنفسه اسيراً بين ايديهم ، فتذلل لهم
واستغفر ، ورفع عنهم حكمه الذي اصدره بكفرهم ، وباركهم في جهادهم ،
لكنهم رغم كل ذلك ابقوه اسيراً عندهم عاماً كاملاً الى ان افتدى نفسه منهم
بدفع جعل ذريع -

قال قوسطاف لوبور في تاريخه الشهير « مدنيات الغرب » عن هذه الفترة
من فظائع النرمان ومقابلة رجال الكنيسة لهم بالمثل ما نصه :

« واستمر النرمان على اعمالهم : اذا ما تمكنوا من كنيسة انتهبوها ثم ذبحوا
كل رهبانها ليامتوا عقوبة شكواهم . وكان الرهبان يقابلون اعمال النرمان
بمثلها اذا ما تمكنوا منهم ، واليك وثيقة عثر عليها ميسيو ايريمودرى ، في
خزائن ديرجيل كاسان وهي تعطيك صورة صادقة لمعاداة ذلك الزمن :

« ذات يوم جاء الكونت رودولف ومعه خمسة عشر من رجال النرمان
لكنيسة جبل كاسين ، فتركوا عند بابها اسلحتهم وخيولهم حسب العادة
المألوفة ودخلوا لاداء الصلاة . لكنهم لم يحسنوا اختيار الوقت اذ بينما كانوا
جائين على الركب امام مذبح القديس يوفوا اوصد رهبان الكنيسة ابوابها ،
واستحوذوا على اسلحة المصلين وخيولهم ، ثم دقوا اجراس الفزع والاستغاثة
فاجتمع عليهم الناس من اجوار الكنيسة ، وهاجموا النرمانيين الذين لم تكن
لهم بين ايديهم الا المسابح . ثم انهم حاولوا عبثاً تكبير المهاجمين بحرمة
الكنائس ، وحاولوا كذلك عبثاً اقناعهم بالمرحجات من الايمان انهم ما جاءوا
الا قصد التبتل والعبادة ومصالحة رجال الكنيسة فان رجال الدين كانوا
قد وجدوا الفرصة المناسبة فاعتنقوها وقتلوا الخمسة عشر رجلاً عن اخرهم ،

ولم ينج الا الكونت ودولف وحده ، اذ قد خماه راعب الدير ، وما اطلق سراحه الا بعد ان ارجع للرهبان كامل اموال وذخائر الدير التي كان قد اتّهبها هو ورجاله من قبل .

نتيجة التدخل الترماني : من نكد الدنيا على مسلمى صقلية ، انهم ما يجمعون امرهم حول استقلال داخلي واسع النطاق ، ويتولى امر الدولة فيهم رجال كرام من آل الحسن بن علي ، يتوازنون الامارة ويصونون مركزها ولو الى حين من مطاعم الطامعين وعبث العائشين . وما كاد ينتهي تهديد السروم وتحقق نهائيا حملاتهم القوية العنيفة المتوالية ، منذ قرن ونصف القرن ، ما كاد يتم كل ذلك بعد طول الجهاد وشديد البلاحتى كان المسلمون يواجهون خطرا اكبر من هاتيك الاخطار السالفة ، ويقابلون عدوا اشد عنفا واقرى ساعدا وافظع اعمالا من اعداء الخارج والداخل مجتمعين ، ذلك هو الخطر الترماني الذي ما زال بتلك الجزيرة حتى انك قواها واسقطها مجدلة تحت مخالبه المفترسة .

فكانت كل ايام الدولة الحسنية بصقلية ، قد انقضت الى جانب اعمال باهرة فى ميدان العمران بالداخل فى حرب مستمرة عنيفة متوالية مع رجال الترمان المغيرين . وقبل ان ندرس تفاصيل هذه الحروب والمعامع فى الصفحات التالية نرى ان نسجل حكما اصدره على هذه الفترة المؤلمة وعلى اعمال الترمان فيها المؤرخ الاكبر الدكتور قوستاف لويون حيث قال :

« أخذ هؤلاء المدافعون عن الدين المسيحي ، يتفانون فى اعمال السلب والنهب سعيا وراء الثروة ، اكثر من تفانيهم فى الدفاع عن الدين . وكانوا ينتهبون اوراق اليونانيين والطلبيين المسلمين بقسوة وشراسة متساوية فبقيت صقلية وبلاد ايطاليا المجاورة لها مدة خمسين عاما اى مدة الفتح ، تعتبر فى نظر هؤلاء المدافعين عن الدين المسيحي ، بلادا وهبها الله لهم كى يكتسبوا فيها الثروة والغنى بكامل السهولة والبساطة .

« وما كان لاعمال هؤلاء المدافعين عن المسيحية من نتيجة ، الاخراب الجزيرة بصفة سرية . حتى ادرك اهلها (المسيحيون) ان صداقة فرسان الترمان

لهم كانت اثقل وطأة عليهم من عداوة المسلمين .

الفاطيون بمصر : لم تكن الدولة الفاطمية التي درجت بين احضان كنامة بارض المغرب لتكتفى بما نالته من عزة وسلطان فى بلاد الشمال الافريقى ، حتى حدود برقة ، بل كانت ترمى بانظارها الطامعة صوب بلاد الشرق ، تريد ان تقيم على انقاض الخلافة العباسية الواهية ، وعلى انقاض الدويلات الاسلامية التي صيرت الشرق الاسلامى رقعة شطرنج بالنسة ، دولة شيعية علوية تضم تحت لوائها ما فرق امره بنو العباس بضعفهم وتخاذلهم وتغلب الموالى والدخلاء على دولتهم .

كيف كانت حالة العالم الاسلامى والعربى يومئذ ، والحرب الصليبية الاولى تنقد فى صقلية وايطاليا ليرانها ، والحرب الصليبية الثانية التي يدعوها المؤرخون غلطا الاولى تختصر فى افكار رجال التعصب المسيحى ؟

كانت بغداد واكثر بلاد العراق وفارس تحت حكم دولة بنى بويه التركمانين الذين لم يتركوا للخلافة الضعيفة الواهية الا الاسم وجلال اللقب ، وكانست مصر واكثر بلاد الشام فى يد بنى الاخشيد ، والموصل وديار بكر ، فى يد بنى حمدان ، وخراسان وبلاد التركمان وراء النهر فى يد بنى سامان ، وطبرستان وجرجان فى يد ملوك الترك الديلم ، والبحرين واليمامة والكثير من جزيرة العرب فى يد القرامطة . اما المغرب الاروبى الاسلامى ، فقد كان زاهرا يانعا فى الاندلس تحت سلطان الامويين ، يواجه الحملات المسيحية فى ذلك العهد بجهوده الخاصة (I) رأى المعز لدين الله الفاطمى ان ساعة الضربة الحازمة قد آتت ، فارسل رأى المعز لدين الله الفاطمى ان ساعة الضربة الحازمة قد آتت ، فارسل قائده جوهر الصقلى او الصقلى على رأس جند عتيد من المغاربة ، وقد كان اهل مصر راسلوا المعز ورغبوه فى فتحها ونصب سلطانه عليها ، تخلصا من مظالم بنى الاخشيد ، والاضطرابات المتوالية ، فحط جوهر اثقاله تجاه مدينة

(١) كان يتولى الخلافة يومئذ بالاندلس الحاكم بن عبد الرحمن الناصر ، وبلغت الحضارة فى عصره شأوا بعيدا ، وقد كان مغرما بجمع الكتب فارسل النساخين لكل بلاد كى ينقلوا له كل المؤلفات الجديدة فتوفر له عدد فى مكتبته مثله لم يتوفر لملك من قبل وجعلها مكتبة عامة فى قصر مروان ، ولها خدعة وقيمين ، وام قرطبة جمع كثير من الادباء والعلماء ورجال الفن من سائر الاصقاع ، وبلغت عندئذ مدينة الاندلس الاسلامية اوج عزها ومنتهى ازدهارها .

الفسطاط ففتح له اهلها الابواب ودخل مصر دون قتال ولا عناء ، وذلك في رمضان سنة ٣٥٨ (٩٦٩م) ، فخطب في مسجد عمر بن العاص للخليفة المعز ، ودانت له كل الناس ، ثم ارسل القائد البربري جعفر ابن فلاح الكتامي ، فاجتاز الى ارض الشام ، ومعه جند كبير فافتتحها ، وخطب فيها للمعز ، واصبحت الدولة الفاطمية تمتد من ساحل المحيط الاطلسي الى ضفاف الفرات ، دون مشقة او عناء . لقد هنالك نوع من الفراغ يجب ان يعمر ، فعمسره الفاطميون .

ثم اختط جوهر الصقلي مدينة القاهرة المعزية ، (وانما دعاها القاهرة لانه وضع اسمها عند توسط كوكب المريخ المعروف عند العرب بالكوكب القاهر) فابتنى فيها الدور والقصور ، واسس الجامع الازهر الشريف سنة ٣٥٩ ، واتمه ٣٦١ ثم سار المعز ومعه حاشيته ورجال دولته ، والقناطير المنظرة من امواله ، فدخل مدينة القاهرة في رمضان سنة ٣٦١ ، واتخذها مقرا لخلافه الفاطميين العبيديين ، حيث مكث هنالك الى ان انقضت ايامها سنة ٥٦٧ (١١٧١) ، بموت العاضد لدين الله وقيام الدولة الايوبية على يد بطل الاسلام الخالد الذكر صلاح الدين الايوبي الكردي .

كان انتقال مركز الدولة من المهدية الى القاهرة ، حدثا من اكبر الاحداث في تاريخ صقلية الاسلامية حيث ان الخليفة قد عين لولاية المغرب احد رجاله المعدادين هو الامير يوسف بولقيين بن زيري بن مناد ، رأس قبائل صنهاجة البربرية العظيمة ، ولم يجعل له سلطة فعلية على صقلية ، فبقيت الجزيرة تابعة رسميا لمركز الخلافة بالقاهرة البعيدة الناطرة لآفاق اخرى ، انما كانت مستقلة بصفة فعلية تحت امرة الملوك من بني الحسن ابن علي ، وكان ذلك من جملة اسباب تدهور الحكم الاسلامي في صقلية ، بعد حين . اذ كانت دولة صنهاجة لا تعنى الا بتوطيد ملكها وتوسيع عمرانها وتدعيم مدنياتها التي بلغت اوج منعتها وعلاها ايام المعز ابن باديس . وكانت دولة الفاطميين في القاهرة تنظر الى الشرق ولا تكاد تنظر الى الغرب ، وبذلك خلا الجو لوحوش النرمان يفترسون كما شاموا مسلمي الجزيرة ، حتى اذا ارادت دولة صنهاجة

امدادهم وانقاذهم كان الخطب قد اتسع على الراعي ، وتدهورت الدولتان معا ، دولة صقلية على يد النرمان ودولة صنهاجة على يد الاعراب من بني هلال وسليم .

ولنرجع الآن - بعد هذين التمهيدين - لدولة ابي القاسم على ، المعروف بالشهيد ، ولنسجل في هذه الصفحات اعمالها :

استمرار الفتح : في سنة ٣٦٥ (٩٧٩) سار الامير ومعه جماعة من العلماء وكبار القوم على رأس قوة عتيدة لمنازلة مدينة مسينا التي كان العدو قد اتخذها مركزا لاعماله ضد المسلمين ، فنصب الحصار على تلك المدينة الى ان ضاق اهلها ذرعا فخرجوا يسألونه الامان ، ويعلمون الطاعة ، فاجابهم بالصلح رحمة بهم وتقاضى منهم مال الجزية .

ثم سار يوالى فتح ما استولى عليه الفرنج من ارض الجزيرة وقلورية فافتتح مدينة اغانة Santa Agata . ونظم جميع ما اعده المسيحيون فيها .

ثم امر سنة ٣٦٦ بتجديد بناء مدينة رمطة ، وقد كان حطها الامير احمد بن الحسين ، كيلا تكون مركزا للمسيحية ، وفي تلك السنة سار على راس المسلمين الى مدينة طارنطة في جنوب ايطاليا ، وقد اتخذها النرمان مركزا لاعمالهم وقرصنتهم فتحصن المسيحيون بها ، واستعدوا للنزال ، وهاجمهم المسلمون بقوة وعنف فاقتحموا الاسوار وكسروا الابواب ، وفتحوها عنوة المسلمون بقوة وعنف فاقتحموا الاسوار وكسروا الابواب ، وافتحوها عنوة واقتدارا ، واصدر الامير امره بذكر جدرانها ، واعفاء مراسمها كيلا تكون داعيا لرجوع العدو مرة اخرى ومركزا لاعماله ضد المسلمين .

انتصار قلورية واستشهاد الامير : بينما كان زعيم النرمان برودويل يستعد لمقارعة المسلمين ويحتل بعض المواقع على السواحل الصقلية ، نزل الامبراطور الالماني اوطون الثاني يوطد ملكه بالبلاد الطليانية ، فيحتل روما ويصعد لمقارعة المسلمين ، ولقد خشي الروم زوال سلطانهم وانتهاء نفوذهم على يد الالمان فاستصرخوا المسلمين بصقلية ، فذهب الامير ابو القاسم للقاء جموع الالمان والنرمان واراد المباداة باحتلال كسننته مركز المسيحيين

المتبع ، وكان هؤلاء قد استعدوا للقائه في بلاد قلورية ، فدارت المعركة العنيفة الهائلة في موقع غير ملائم للمسلمين بمضيق بين جبلين يمكن للنصارى ان يحرقوا فيه بالمسلمين من كل ناحية ، فرأى ابو القاسم وجوب الانسحاب فورا ليتلقى صدمة النصارى في منبسط من الارض يمكنه فيه ان يدير حركاته بكل حرية .

لكن النصارى لم يتركوا للمسلمين فسحة من الوقت لانجاز تلك العملية وتتبعوهم بشدة وعنف فكاد الانسحاب الجزئي ينقلب انهزاما كليا واستمر ذلك التتبع مدى خمسة عشر يوما حتى وصل المسلمون الى مكان فسيح عند ساحل البحر وتكاثرت عليهم جند الفرنج ، واحاطوا بهم من كل ناحية ثم اقتحمت طائفة منهم قلب المعسكر الاسلامي حتى بلغت مكانا اتخذ الامير ابو القاسم مقرا لقيادته وقد كان راكبا جواده وحوله خاصة رجاله ، فاقترسل الجميع هنالك ، وضرب احد جنود الامان الامير ابا القاسم ضربة هائلة من سيفه شقت هامته وخر رجمه الله صريعا شهيدا على شاطئ البحر ، واستمرت المعركة عنيفة هوجاء ، ولم يعلم المسلمون ولم يعلم النصارى ما حل بالملك المسلم الشهيد .

ثم اجتمعت مينة المسلمين وميسرتهم حول القلب فسندوا الثلثة التي احدها النصارى هنالك ، وقاموا في الحين بهجوم مضاد ادهشت شدته جموع النصارى فانقلبوا على اعقابهم ، وتتبعهم المسلمون يتخون فيهم قتلا ، واستولوا على جميع محلات المهزمين وعددهم وسلاحهم ، واسفرت المعركة عن قتل اربعة آلاف من الفرنج ، وجرح الامبراطور اوطن جرحا ادى الى موته في دسامبر ٩٨٢ بعد ان التجأ منهزما خائبا الى رومة (١) .

ثم حمل المسلمون جثث اميرهم الكريم فنقلوه الى صقلية حيث ووري التراب ، رجمه الله رحمة واسعة ، وذلك في شهر المحرم سنة ٣٧٢ (٩٨١) .

جابر بن ابي القاسم علي

اجمع الناس يومئذ على نصب ابنه جابر ، اميرا مكانه ، عليه يقتضى خطي

والده الموفقة ، لكن الولد لم يكن هذه المرة نسخة من ابيه ، وهل تلد النار
الا الرماد ؟ فان جابرا ترك امر الجهاد وتدير الملك واشتغل بالملأى حسب
عبارة ابن خلدون ، واضطربت احواله .

ولم يكن الخليفة الفاطمي في مصر قد اعترف بهذه الولاية ولم يقرها بعد ،
فاجتمع جند صقلية واهل العقد والحل فيها ، واعلنوا خلع جابر وترقبوا
قدوم ابن عمه الوالي الجديد الذي عينه الخليفة الفاطمي :

جعفر بن محمد بن الحسن بن علي

كان من نخبة الامة ، وعلية القوم ، وكان من اصحاب الرأي والتدبير
والمكانة السامية في بلاط الخليفة العزيز بالله ابن المعز لدين الله . وقد كان
الوزير ابن كاس يقار من جعفر ويحسده على مكانته ، فعندما جاء الخبير
باستشهاد الامير ابي القاسم على اشار ابن كاس على الخليفة بتولية جعفر
بن محمد مكانه ، يريد بذلك ابعاده عن البلاط والتخلص من نفوذه .

قبل جعفر الولاية وهو كاره لها ، وسار الى صقلية اخذا معه اليها القائد
التركي سبستكين الذي كان حسب عبارة ابن الخطيب في اعمال الاعلام من
جملة الترك الموصوفين بالشجاعة .

وصل جعفر صقلية يوم الاربعاء ٢٥ صفر سنة ٣٧٣ ، فسلم له جابر الامر
عن طيب خاطر بعد ان حكم حكما خائرا مدة سنة ، واستبشر الناس خيرا
بولاية جعفر الذي سبقته شهرته طلعت ، ومهدت سمعته له الامر ، فحسن
الاحوال ، واستقامت الامور ، وانزوى رجال الترمان اثر هزيمتهم الشنعاء
السالفة ، فاخذ جعفر يصلح ما فسد ، ويرمم ما تهدم ، ويعمر البلاد ، وقد
جمع حوله ثلة صالحة من رجال العلم والادب ، وكون في قصره ببالرمة بلاطا

(٩) يقول بعض مؤرخي الفرنج ان المسلمين اسروه ولم يعلموا انه الاميراطور ثم اطلقوا يسراجه
مقابل مال جزيل اتدبى به نفسه : بينما يقول آخرون انه نجاه من الاسر بفضل سقينة رومية
امكنه الانتجاع اليها .

ملكيا فآخرا ، وكان رحمه الله من فرسان الميدان في الشعر والادب والعلوم .
 من اجل جارية يخرب ملكا : كانت للخليفة بالقاهرة جارية صقلية عزيزة
 عليه محببة اليه ، وكان اخوها راهبا في البلاد الصقلية ذا مكانة وملك ،
 قبلت الجارية من قلب الخليفة الضعيف مبلغا جعلته يقبل مطلبها ، ويدعن
 لشقيقتها ، فيرسل الى جعفر امير صقلية ، يامره بان يرجع للراهب اخي
 جاريته ، قلاع : بنقش ، وطبرمين ورمطة ، وان يرجع اليه مع ذلك كل سبي
 عنده قديم وحديث من تلك البلاد . وبعد شهر من ورود امر الخليفة ، جاء
 الراهب صقلية ، يستنجز الامير تنفيذ ما امره به خليفة القاهرة .

علم جعفر انه ان نفذ ذلك الامر فكانه قد نفذ حكم الاعداء على الجزيرة ،
 لانه سيكون النصارى من قاعدة ما استطاع المسلمون تحطيمها الا بعد جهاد
 مائة عام ، وعظم عليه كذلك ان يعلن عصيان الخليفة ، ويرفض تنفيذ امره ،
 انما عظم عليه اكثر من ذلك ان يخرب ملكا من اجل جارية ، فعمد الى حيلة
 الارب و سياسة الداهية فانفذ صقلية من الخطر موقتا ، واحرز على رضى
 الخليفة في آن واحد واليك البيان :

انزل جعفر الراهب الملك في قصر واحاطه بالعيون ، ومنع عنه الاجتماع بمن
 يريد من الناس وابقاه كذلك نحو من اربعة اشهر ، ثم تظاهر بانه يريد
 تنفيذ الامر المطاع فجمع للراهب ، بصفة سبي يجب ارجاعه ، جماعة من
 الشيوخ والمعانز والمرضى ، واصحاب العاهات ، فدفعهم اليه وامره بالرحيل
 بهم حالا ، فضاق ومن هنالك راسل الخليفة العزيز واعلمه بان عامل صقلية
 لم ينفذ الامر .

كان جعفر يعلم ان الراهب سوف يوالى دسائسه وان الآمرة الناهية فى
 قلب العزيز ستستعمل اقصى جهود المرأة المدللة ، للوصول الى غايتها ، فبادر
 انجازا للحيلة ، باقتناء مركب اندلسى شحنه من ماله بالكثير من تحف
 الاندلس وطرائفها ، وكتب للخليفة يقول : ان ابن ابى عامر المعروف فى
 التاريخ باسم الحاجب المنصور صاحب الامر ببلاد الاندلس ، قد راسله يرغب

تاريخ صقلية - ١١

اليه امر الدعوة الاموية ، ويدعوه للانضمام تحت لوائها ، وانه يرسل له من خيرات الاندلس ، ويقطعه من اعمالها ماشاء ، وانه عاده بالمركب المشحون بالنفائس الثينة ترغيبا له ، لكنه امتنع من قبول تلك الدعوة واصر على ولاء القواطم بالقاهرة .

انطلقت الحيلة على العزيز ، فبادر بمراصلة العامل الصقل يشكره على امتناعه مما دعاه اليه زعما صاحب الاندلس ، ويحضنه على التسك بما كان عليه فمحمد ابوه وحسين جده وبقية آل الحسن من الطاعة والولاء .
وأعرض الخليفة بعد ذلك عن اجابة مطلب الراهب ، والانقياد لرغبة المجبورية فذهبت جهود الاخت واخيها سدى . وكفى الله المؤمنين القتال ، بواسطة السياسة والدماء .

استمر الامير جعفر يحكم صقلية حكما عادلا نزيها ، والامة مقبلة على اعمالها واعداء الخارج راكدون ، واعداء الداخل نائمون ، الى ان توفاه الله ، بعد سنتين من ولايته ، سنة ٣٧٥ .

عبد الله بن محمد بن الحسن بن علي

بايع الناس بالامارة بنجد جعفر ، شقيقه عبد الله فحقق الامير الجديد آمال الامة فيه ، وسار سيرة شقيقه الصالحة ناصحا امينا ، مقيما للعدل ، رحيما بالرعية ، ولم تطل ايامه في الملك اذ وافاه الاجل يوم ٢٣ رمضان سنة ٣٧٧ .

ابو الفتوح يوسف بن عبد الله بن محمد

ولى الامر ، بارادة الامة ، بعد ابيه ، وكان غلاما ، انما توهم الناس فيه خيرا فوجدوا فيه خيرا ، وكان حسب كلمة ابن خلدون « قد اتسى بجلالته وفضائله من كان قبله منهم » .

وقد وصله سجل الولاية من الخليفة بالقاهرة ومنحه لقب ثقة الدولة وكانت ايام الناس في مدته ، كما يقول ابن الخطيب في اعمال الاعلام ، على افضل

ما يشتهون ، وقد ضبط البلد ضبطا محكما ، وظهر من كرمه وجسوده
وسماحته ، مالا يفي به وصف ، وعم العدل والرخاء والامن والاطمئنان كل
جهات الجزيرة ، لم يتحرك في وجهه عدو من داخل البلاد ولا من خارجها .
قال الشاعر الكبير ابو محمد عبد الله بن محمد التنوخي المعروف بابن
قاضى ميلة يمدحه من قصيد طويل ، هو من غرر الشعر :

<p>اغر ، قضاى يكاد نواله اذا نحن اخلفنا مخائل ذيمة ويقظان شاب البطش بالدين فالتقى حسام على من ناصب الدين مصلت يسائرة جيشان : راي وفليقي مطل على من شاءه فكانما يرى رايه ما لا ترى عين غيره رعى الله من ترعى حتى الدين عينه ومن وعده في مسرح الحمد مطلق ومن يضرب الاعداء همرافتمنى رماهم بيجر ضعضع الارض رزه كان الردينيات في رونق الضحى يعود الدجى من ليله وهو ابيض ويحجب نور الشمس بالنقع عنهم لهم كل عام منك جاوز فليبق اذا ما طووا كشحا على قرح عامهم فكم من اغم الوجه عار تركته لعمري لقد عاذيت في الله طالبا فطالبتهم في الاهل حتى تركتهم فيا ثقة الملك الذي الملك سهمه ... وقائلة بالسعد نجلك جعفر فمازلت تستجدي فتولى وترجى</p>	<p>لكثرة ما يدعو الى الشكر يحجب وجدنا حيا معروفة ليس يخلف بكفيه ما يرجى وما يتخوف وستر على من راقب الله مفد ويضجبه سيقان : عزم ومرهف على حكمه صرف الردى يتصرف ويقرى به ما ليس يقرى المثقف ويحمى ربي الاسلام والليل اغضب وايماده في ذمة الحكم موقف صناديدهم والبيض بالهام تقف كان الروابي منه بالنيل تدلف اراقم في ظام من الال ترجف ويبدو الضحى من تقعه وهو كلف ففعول الظبا في هامهم لا يكيف يسائل عنهم بالعوالي فتلحف ويلوا من الآلام انشأت تقرف وهادية عتقن ولحية اكشف رضاه وقد ابلت ما الله يعرف فرادى وفي الاديان حتى تحققوا يراش لأكباد الاعادى ويرصف فيا لك من عيد بملكين يتحجب فتكفى وتستندعي لحطب فتكشف</p>
--	--

اثناء ولايته ، مات في بليس بمصر سنة ٢٨٦ ، الخليفة العزيز بالله
وتولى الخلافة بعده اشقى عباد الله وشيطان الخلفاء الرجيم الحاكم بامر الله ،

فاستوزر الحسن بن عمار بن علي ، وهو ابن عم امير صقلية المصلح العظيم .
صفحة سوداء في تاريخ الفاطميين : ارى ان اذكر هنا استطرادا ، وقد
 جردنا الحديث لذكر الطاغية الحاكم بامر الله ، شيئا من سيرة هذا الجبار
 العنيد لتري الى حد انحطت اخلاق المسلمين في المشرق وماتت قوتهم المعنوية
 وبلغت بهم المذلة والمهانة ، حتى صبروا لحكم كافر جبار ، فاسق فاجس ،
 فكانهم هم الذين خاطبهم معروف الرصافي رحمه الله بقوله :

عجبت لقوم يخضعون لدولة يسوسهم بالموبقات عميدها
 واعجب من ذا انهم يرهبونها واموالها منهم ومنهم جنودها

فكان يامر ببناء الكنائس والمساجد والبيع ، ثم اذا ما تم بناؤها امر بهدمها
 على رؤوس من فيها ، ثم ادعى انه صورة الله ، وان روح الله حلت فيه ، فامر
 بان يقف الناس اجلالا لاسمه عندما ينطق به الخطيب في صلاة الجمعة ، فاطاع
 الناس من نذلتهم امرة حتى في الحرمين الشريفين ، وامر بهدم كنيسة
 القيامة في القدس الشريف سنة ٣٩٧ (١٠٠٦) فاحدث بذلك رجة هائلة في
 العالم المسيحي كله ، مع ما يصحب ذلك من المبالغات الشعبية ، واذكى بذلك
 نارا كانت تنقد من قبل استعداد للحروب الصليبية الاستعمارية ، وادعى
 ذلك الفاسق الشرير الظالم السفاك للدماء انه يعلم الغيب مع الله ، فوضع
 له رجل على المنبر هذين البيتين :

بالجور والظلم قد رضيتنا وليس بالكفر والحقاقة
 ان كنت او تيت علم غيب بين لنا كاتب البطاقة

وما انجى المسلمين من شروره وآثامه الا اخته ، وويل لامة تعمل امراة
 واحدة فيها مالا يعمل سائر الرجال مجتمعين ، ويقال انه اراد منها منكر اقدس
 له في جهة حلوان من قتله عندما كان يترصد النجوم وذهبت روحه الشريرة
 الى نقمة الله وعذابه السرمدي .

فليقا بل الناظر بين هذا الملك الطاغية ، وما عاناها مسلمو المشرق في نذالة
 وضعة واستكانة في ايامه وبين ما كان مسلموا صقلية يتمتعون به من امن-
 ورفاهية واطمئنان .

وان اردت ان تعرف مدى ما لصق بالدين في هذا العهد المظلم من خرافات واطايل وبدع منكرة صيرت الاسلام نوعا من الوثنية او شرا من الوثنية ، فاسمع لابن ابي دينار يقول في كتاب « المؤنس » :
 « وكان بعض شيعته من المقاربة يزعم انه يعود ، فكانوا اذا راوا سحابة في الجو سجدوا لها زعما منهم انه في السحاب » .

تاج الدولة جعفر بن يوسف بن عبد الله

استمر الامير يوسف ، يدير امور صقلية ادارة عادلة رحيمة ، الى ان قضى الله عليه بدء الفالج اصابه سنة ٤٨٨ (٩٩٨) فعطل جانبه الايسر ، واتفق الناس معه على تسليم امر الدولة ، لابنه جعفر ، ففعلوا ووضعوه على كرسي الامارة وراسلوا بذلك طاغية الفاطميين بالقاهرة الحاكم بامر الله فصادق على ذلك وارسل لجعفر سجل الامارة واعطاه لقب « تاج الدولة سيف الملة »
 ثورة علي : في ايامه انتهى عهد النظام والامن والرفاهية (٥٠ سنة) وابتدا عهد التبدل والسقوط الذي انتهى بزوال سلطان المسلمين من الجزيرة ووقوعهم تحت سلطان النرمان .

رأى علي بن يوسف انه حق بالامارة من اخيه فاستمال اليه جماعة من البربر الذين يتبعون كل ناعق ابتغاء الفتنة ، وجماعة من العبيد وتصدى لمحاربة اخيه جمع جعفر جموعه وخرج للقاء الاخ الخائن فاشتعلت الحرب بين الاخوين وتمكن جعفر من اخيه الفادر فقتله وقتل من نصره من البربر والعبيد ثم امر بنفى جند البربر (١) من صقلية فنقوا ، منها وامر بقتل سائر العبيد ، وجعل جنده من اهلي صقلية المسلمين خاصة . فقل بذلك حسبما يرويه البكري جنده وسبب له انهيار ملكه .

ثورة الامة : كانت سيرة جعفر اول امره حسنة مقبولة الى ان استوزر كاتبه

(١) اي رجال كثافة الذين كانوا انصار الحكم الفاطمي وجماعته . لكنهم لم يرحلوا جميعا ، كما سترى فيما بعد .

حسن بن محمد الباغاني وكان فظا غليظ القلب ، وسلم له السلطة واطلق يده في الاعمال ، فاستخف هذا الوزير الوصولي بأعيان الامة وشيوخ البلاد وقوادها وامعن في اهانتهم ، وسلك سياسة اقتصادية تخالف ما الفته البلاد ، ففرض الجباية والاعشار على طعام الناس وثمارهم ، وكانت عاداتهم من قبل ان يدفعوا عن كل زوج بقدر شيئا معلوما قلت محصولاتهم او كثرت ، ولو انه احسن المعاملة واخذ الناس بالحسنى وخاطبهم باسم الدين لكانت سياسته انجح وخطئه اوفق لانها اقرب للزكاة الشرعية مما سار عليه اهل صقلية ، لكن الغلظة وسوء الطباع لا تشمران الا الفتن والقتل ، ولقد خاطبه القوم في الامراف استغلظ عليهم فثارت البلاد ثورة عامة سنة ٤١٠ (١٠٢٩) وحاصر الناس قصر الوالي واشرفوا على اخذه .

عندئذ امر الشيخ العجوز المصاب بالقالج الامير يوسف والد الامير جعفر ان يحمل على محفة وان يخرج للقاء الثائرين فلما رآه هؤلاء وكانت له مكانة عظيمة في القلوب اشفقوا عليه ورتوا لحاله فخاطبهم في شأن ابنه جعفر فاشتكوا من شدته وسوء تدبيره وتدبير وزيره ، وطلبوا منه ان يعزله وان يولي عليهم ابنه الآخر احمد الاكحل فاستجاب الى ما طلبوا ، واعلن عزل جعفر وتولية احمد ، ففرح الناس بذلك واستبشروا به خيرا ، وانتهى امر الثورة بسلام .

ثم ان يوسف خاف ان يصاب ابنه جعفر بمكره ، او ان تسول له نفسه القيام على اخيه ، فجهز له مركبا حمله مع آله وامواله الى مصر ، وبعد قليل التحق به معه من الاموال ٦٧٠ الف دينار ، وقد كان ليوسف من الدواب ثلاثة عشر الف حجرة دون البغال ، ومات رحمه الله بمصر وليس له دابة واحدة . ومن هذا العدد الجسيم ، ومن مقدار ما حمله معه من المال الى مصر ، تدرك مدى الثروة الجسيمة التي بلغها اهل صقلية في منتهى ذلك العصر انزاع

خسارة جنوب إيطاليا : كان جعفر قد اخذ يوال الفتح في جنوب ايطاليا

عند ولايته ، فاحتل كاليارزي وبيزة سنة ٣٩٠ (١٠٠٠) ثم انه في سنة ٣٩٢ (١) هاجم مراكز المسلمين دوج البندقية « ارسولو » واقتك منهم مدينة باري ، غاصصة الامارة فخرسوها ، وحلت بالمسلمين نكبة في مدينة ريجيو جيست

خسروا اسطولهم .

ولقد اعادوا الكرة واحتلوا سنة ٣٩٧ (١٠٠٧) مدينة كوسترا Cosenza لكنهم لم يستطيعوا هناك ثباتا ، وكانت حوادث الثورة ضد جعفر ، وارجاعه البربر لافريقيا قد اضعفت الجند وقللت من عدده ، فاضطر المسلمون لاختلاء قلورية مرغمين تحت ضغط القائد اورسنيث ، وذلك سنة ٤١٤ (١٠٢٣) ايام احمد الاكحل السوداء .

الهجرة الى صقلية : أثناء تلك الحوادث ، وفي سنة ٣٩٥ (١٠٠٥) ، وقعت بالبلاد الافريقية مجاعة هائلة وفحص شديد فمات الناس موتا ذريعا من جراء ذلك حتى خلت البوادي واكثر الحواضر ، وخلت الاسواق والمساجد وعمت البهايم وضائق الارض بما رحبت فيسم الناس شطر صقلية ، وسارت اليها المراكب ينلو بعضها بعضا حاملة جموع اللاجئين من عامة القوم وخاصتهم ، ومن سكان الحواضر والبوادي ، فتقبل امراء صقلية هذه الجموع اللاجئة على الرحب والسعة وافسحوا لهم مكان العيش ويشروا لهم اسباب الارتاق . واحتلت بذلك لامحالة موازين الاقتصاد .

استطراد عن اعمال المسلمين بجنوب ايطاليا

ارى من المفيد تعريف الفصل الثاني من كتاب «غارات الهمج» تأليف المؤرخ الكبير فردينان لوط وقد حوى خلاصة وافية عن تدخل المسلمين في البلاد الطليانية ، مما يضيف نورا جديدا على ما ذكرناه آنفا خلال تسلسل الحوادث قال :

كانت مدينة نابولي قد اضطرت تحت ضغط الدوق سييكار امين بيتيفانت لان تدفع جزية له ، وما قبل اهل نابولي امضاء المعاهدة التي عرضت عليهم سنة

(٩) في هذه السنة توفي ببلاد الاندلس بطلها العصامي الكبير محمد بن ابي عيسى . الملقب بالغاجب المنصور : التي تالت بلاد الاندلس في ايامه عز وسلطانا قلما بلغتها دولة . ودامت ايامه في حكم مستبد عادل ٣٦ عاما غزا خلالها اثنتين وخمسين غزوة ، كان النصر فيها حليفه .

٨٣٦ المكرهين وجلين ، ولقد استغاثوا بامبراطور الفرنج لويس الناسك ، فلم تجد استغاثتهم اذنا صاغية . عندئذ اتجه الامير اندرى دوق مدينة نابولي نحو مسلمى صقلية يستنجدهم فلبوا دعوته وانجدوه ، واضطروا خصمه اللومباردى للانسحاب سنة ٧٣٨ ، ثم اعاد المسلمون الكرة بحرا واحتلوا مدينة ابرنديزي وما انسحبوا منها الا بعد ان تركوها طعنة للنيران .

اخذ المسلمون يوالون التقدم لحسابهم الخاص ، فاحتلوا مدينة « طارنطة » رغم محاولة اهل البندقية الدفاع عنها ثم تمكنوا من مدينة « انقونة » . ورات البندقية يومئذ انها مهددة فعلا فاخذت تسليح وتجهز ، لكن اسطولها غلب وانهزم تجاه اسطول المسلمين سنة ٨٤٢ .

ولقد كان موت سنيكار الآنف الذكر سنة ٨٣٩ مساعدا للمسلمين على انتصاراتهم الباهرة ، اذ ان الملكة اللومباردية الكبرى قد انقسمت على نفسها اثر موت عاقلها ، وتآلفت على انقاضها مملكتا بينيفانت وسالرنه ، وكانتا مرتعا للفتن التي يثيرها الطامعون فى الملك .

وما كان لهؤلاء الطامعين من معين يعتمدون عليه الا جند المسلمين يستنجدهم مرة بعد اخرى احد الطامعين ضد خصمه ، ومن هذا القبيل ان الامير رادلشيس البينييفانى قد استعان بالمسلمين ضد خصمه الامير سيكو نولف السالرنى ، كذلك كان كونت مدينة (بارى) الامير باندو قد فتح لهم ابواب مدينته ، ولم يكن النجاح حليف المسلمين فى نصره هذا الامير ، فقد انهزموا ورجعوا للمدينة بارى فتمكنوا من اكتنافها واصبحت لهم طيلة ثلاثين سنة مركزا نيعا يباشرون منه اعمالهم وغاراتهم ، ولقد اضطر رادلشيس ان يفتح ابواب عاصمته بينيفانت فى وجه حلفائه الاشواس ، وكان المسيطر الحقيقى على تلك الامارة هاتيك الاوقات هو زعيم المسلمين « مصعر » وذلك ابتداء من سنة ٨٤٢ .

ارتأى يومئذ الامير سيكونولف ان يقاوم مسلمى صقلية بجموع من مسلمى اسبانيا وجنوب فرنسا وحتى المسلمين الذين افتتحوا جزيرة اكريطش عام ٨٢٦ ، وهكذا تمكن من افتكاك مقاطعة بيفنتان من بين يدي خصمه لكنه لم يستطع الاستيلاء على العاصمة (بارى) .

في اليوم الخامس عشر من شهر جوان ٨٤٤ وقع تتويج الامير لويس ، ابن الامبراطور لوثير ملكا على ايطاليا ، وكبرت الآمال في رؤية هذه البلاد موحدة القوى بصفة كانت في اشد الحاجة اليها ، لكن الملك الشاب واجه الفوضى العميقة العميقة التي كانت قد ضربت اطنابها في البلاد ، ثم ان الملكة قد ذقت الامر من جراءتها ونها بامر الاسطول الخربى .

ذلك ان البحر الابيض المتوسط كان يومئذ بحيرة اسلامية خاصة ولم يكن اى اسطول من اساطيل المسيحية يستطيع ان يعترض لاعمال السفن الاسلامية في غاراتها وفي انزال الجند بصفة متوالية في مختلف السواحل .

اتسعت اعمال الاسطول الاسلامي وغطت السواحل الطليانية ، فعمد دوق مدينة نابولي الامير سيرج لجمع قوى امدات نابولي وقايت وامالفى وسورنته ليتمكن من مقاومة تلك الغارات ، لكنه لم يستطع منع المسلمين من احتلال جزيرة ايتسياوراس سورنته والتكن منهما .

في سنة ٨٤٦ وقع الخطب الجسيم الذي تزلزل له العالم المسيحي لوعة واسى وذلك ان اسطولا اسلاميا يشمل ٧٣ سفينة ، كان قد اقلع من افريقيا واستولى على مدينة اوستي عند مصب نهر التيبر ، ثم اجتاز ذلك النهر حتى ارسى تحت جدران مدينة رومة يوم ٢٦ اوت من تلك السنة .

لم تكن لدى المسلمين يومئذ قوة كافية تمكنهم من مناجزة رومة القتال ومحاولة احتلالها . فانتهبوا كنيسة القديس بطرس والقديس بولس ، وهما خارج الاسوار وانتهبوا حرمة قبور القديسين ، وما تركوا تلك الاصقاع متقلبين بالغنائم والاسلاب الا عندما اصبحت خالية من الزاد اللازم لهم .

ذهبوا على الاثر يحاصرون مدينة قايط ، ولم يستطع الفرنج ولا اللومبارد صدهم عن ذلك فكانت خيبة المسيحيين متوالية ، لكن مدينة قايط قد تصلبت في الدفاع وما انقضت الا عاصفة هوجاء اتلفت اغلب سفن الاسطول الاسلامي . مهما كانت امبراطورية الكارولينى (خلفاء شارلمان) قد سقطت في مهاوى الانحطاط فانها لم تكن قادرة على عدم التدخل ومحاولة وضع حد لهذه الحالة لذاك اتفق الامبراطور لوثير وابنه لويس ملك ايطاليا وباشرا تحصين الجهة

التي يلتقي فيها نهر التيسر بالبحر وذلك دفاعا عن كنيسة القديسين ضد غارة اسلامية اخرى ، كما وطدا عزمهما على مهاجمة المسلمين الذين استقرت اقدامهم في مملكة البيفتان ، واستصرخا رجال المسيحية لاعتقهما على ذلك واستقر القرار اخيرا على ان الجند الاصلي المؤلف من الفرنج وجهات بورغونا وبروفنسا (بالبلاد الفرنسية) يجتمع عند مدينة بافيا يوم ٢٥ يناير ثم يقصد مدينة لاريتو حيث يجد العساة البحرية البندقية وجند دولة البابا وفي تلك الاثناء يجب على اسقف مدينة اريزو ، ومركز مدينة اسبويليت ، ودوق مدينة نابولي ، ان يحاولوا جميعا اصلاح ذات البين بين امراء بلاد بينيفانت المتخاصمين .

نجحت هذه المحاولة وكللت بالفوز ، وتمكن الحلفاء المسيحيون من استخلاص مدينة بينيفانت ، وهناك وقع القضاء على كامل العاهية الاسلامية وزعيمها الامير مصغر (١) ثم اقتسم الاميران راشلديس وسيكوقولف كامل بلاد ايطاليا الجنوبية وتعاهدا على ان لا يركن احدهما لجانب المسلمين ضد خصمه مرة اخرى وتم كل ذلك سنة ٨٤٧ .

بقيت يومئذ بين ايدي المسلمين مدينة « باري » يبعثون منها غزاتهم وسراياهم فتولى رهبان « دير كاسان » نشر الدعوة لمحاربتهم واقتنعوا الملك لويس الثاني بوجود ذلك فهاجم المسلمين وغلبهم سنة ٨٥٢ ، الا انه لم يستطع ان يرد احتلال مركزهم مدينة « باري » .

على ن قرصان المسلمين كانوا هاتيك الاوقات يقضون مضاجع السواحل الشرقية فاحتلوا مدينة لوني وتركوها من بعد طعمة النيران ثم صعدوا مع مجرى نهر الرون وتمكنوا من مدينة « ارل » بفرنسا سنة ٨٤٩ .

في نفس هذه السنة ارادوا تجديد المحاولة التي لاقت من قبل ايضا نجاح ، فجمعوا على السواحل السردينية اسطولهم ومخروا عباب البحر ، ثم ارسو

(١) يقول مؤرخو القليلان ان مصغر هاجم مرة مدينة ايزرنا وقبل ان يصلها اغلبية الزواد الذين ارسلهم يرتادون الطرق ويجهدون السبل امام الجيش ان ذل الا حطم اسوار المدينة ،

اتجاه مدينة اوستى ، لكن مصب النهر كان هذه المرة محصنا فلم يستطع المسلمون اقتحامه ، ثم جاء اسطول مدينة نابولي فنازل الاسطول الاسلامى الى ان ثارت روية شنت شمل هذه العمارة . كان يومئذ الامير مفرج يثبت مركزه بمدينة بارى ويدعم هنالك سلطانه وقد اختط في المدينة مسجدا للمسلمين واعلن انفصاله عن امير صقلية ثم اتخذ لنفسه لقباً كان قليل الاستعمال يومئذ بين المسلمين الا وهو لقب « السلطان » .

لقد كانت الخلافات المستحكمة العلاقات بين امراء ايطاليا وزعماء مدنها تمنعهم من جمع الشمل والتكثف لمحاربة هذه الدولة الناشئة ، فافتنمت هـى تلك الفرصة وتكثت بالبلاد تنكيلا ذريعا ، وكانت ترسل بسفنها مثقلة بالرفيق يباعون فى الاسواق الافريقية .

ويؤكد الرهبان المؤرخون بدير كاسان ان هذا السلطان كان يلتذ كل يوم بقتل خمسمائة نفس (١) واخيرا تمكن السلطان من احتلال دير كاسان نفسه (٢) وهنالك اخذ يلهم بالشراب فى اباريق الرهبان ويتغليب ببخورهم .

اخيرا ، فيما بين سنتى ٨٦٦ و ٨٦٧ ، اعتزم الامبراطور نجدة المسيحيين بايطاليا ، فنازل المسلمين ودحرهم حتى اودا الى مدينتى بارى وطارنطة ، لكن الامبراطور لم يستطع نصب الحصار على تينك المدينتين نظرا لفقد عمارة بحرية ولقد كان اسطول رومى جاء تلك الربوع ، لكنه اضطر للرجوع مسرعا حيث اتى ، وهكذا قويت آمال المسلمين وامتطوا صهوة الخيل العتاق التى غنموها من الافرنج ، فاندفعوا بجوسون خلال الديار ويمعنون فى غزوها .

لكن الامبراطور لويس ، لم يغير عزمه رغم مرضه ، فخاطب جماعات المسيحيين الذين امدوه بقوة من رجال صقلية دلماسيا (بلاد يوغوسلافيا اليوم)

وان المسلمين يستطيعون دخولها دون قتال ، فقال بضر ان الله قد اظهر سخطه على هذه المدينة وانتقم منها فلا ازيد اهلها حيا على هم ، ولوى عناقيد وتركها وشائها ترمم خرابها ولا اعرف فى تاريخ القروسية والشهامة عملا يضاهى فى نبيله هذا العمل ، كذلك يؤكدون انه كان يسر حوالى ديسر كاسان ولم يهاجمه ولم يرد احتلاله .

وسرييا ، وجاء اسطول القسطنطينية يعزز بحريا تلك الحملة ، وحمى الوطيس برا وبحرا ، واندرج جند اسلامي جاء مددا لمدينة باري فبعد حرب عوان دامت اربعة اعوام ، وبعد حصار ضيق النطاق ، سقطت مدينة باري يوم ٢ فيفري سنة ٨٧١ (٣) (٢٥٨ هـ)

لكن هذا النصر قد اقلق امراء ايطاليا وبليل افكارهم ، خرقا من اغتنام الامبراطور تلك الفرصة لنصب سلطانه عليهم واخضاعهم ، فدبروا مكيده واوقعوا الامبراطور اسيرا بين ايديهم يوم ١٣ اوت من تلك السنة ، وما اطلقوا سراحه وارجعوه لبلاده يوم ٧١ سبتمبر الا بعد ان تعهد بان يترك لهم جميع الغنائم والاسلاب التي استولى عليها بعد انهيار دولة المسلمين في باري ، كما تعهد لهم بانه لا ينتقم منهم جزاء خيانتهم .

في هذه الاثناء كان الجيش الاسلامي الصقلي تحت قيادة امير صقلية العباس بن الفضل يكتسح جهات نابولي وقابو وبلاد البينيفنتان . لكن امراء نابولي وقابو وبينفانتى تألموا ووقفوا تيار المسلمين . ولقد هاجم هذا الجيش الاسلامي مدينة « كاسينو » بشدة وكاد يتمكن منها لولا ان الامبراطور ، رغما عما جرى ، قد هب لتجديدها ، ولقد اصابه مرض اثناء ذلك ، لكن قواده نالوا نصرا مبينا وفكوا الحصار عن المدينة في صايفه سنة ٨٧٢ ، لكن موت الامبراطور سنة ٨٧٥ قد جعل هاتيك الجهود الكبيرة تذهب سدى ، ذلك ان خليفة الامبراطور ، شارل الاصلع ، وقد ارسل البابا يستغيث به ضد المسلمين ، قد جند جندا واجتاز جبال الالب ثم عاد ادراجه بسرعة نحو بلاده وقضى نعيه دون ان يقوم بادنى عمل ، ولم يجد البابا يومئذ من ملجأ يلجأ اليه الا مصانعة المسلمين ، فتعهد لهم بدفع جزية مكنته من راحة نسبية .

(١) القرية طامرة ، ولا ينتظر من راهب يدبر كاسان في حالة تحزب مع المسلمين وفي القرون الوسطى ان يكتب غير هذا .

(٢) المسافة بين باري ودير كاسان ٢٥٠ كيلو مترا .

(٣) يقول مؤرخو الطليان ان الامبراطور كان قد اقسم ليقتل كل مسلم في المدينة ، وكان

لقد كان بحر الادرياتيک يومئذ مرتعا لاعمال القرصنة الاسلامية . وكانت مدينة البندقية وحدها تقاوم هنالك هاتيك الاعمال . اما ايطاليا الجنوبية فقد كان امير بينيفانت غير مستطيع وحده الذود عنها .

كانت مدينة بيزنطة « القسطنطينية » قد ملكت عائلة امبراطورية جديدة هي عائلة مقدونيا ، وتولى كبيرها يومئذ بازيل الاول ، واسترجعت بيزنطة ما كانت فقدته من صفة الحامية ، فجهز الامبراطور اسطولا حربيا عتيدا يشمل اربعين سفينة ارسل به نحو السواحل الصقلية الاسلامية فتال ذلك الاسطول فوزا مبينا . ثم انه في سنة ٨٨٠ تمكن الروم البيزنطيون من استخلاص قلورية من بين ايدي المسلمين ولقد كانت مدينة بارى قد تقبلت قبل ذلك واليا روميا اغريقيا من قبل الامبراطور .

لكن تلك الراحة لم تدم طويلا حيث اننا رأينا سنة ٩٠٢ الامير ابراهيم بن الاغلب الثاني يكتسح بجنده ارض قلورية ويلاقي حشفه تجاه مدينة كوسترا . ورغما عما اصاب المسلمين في الجنوب الايطالي فقد بقيت بايديهم مراكز منيعة مثل سابينو شمال بينيفانت وجنوب بسطوم وميدان كاريليانوا المحضن وخرائب ديرافارفا ومن سائر هذه الجهات كانوا يستطيعون باستمرار تهديد مدينة روما .

يومئذ اعتزم البابا يوحنا العاشر التخلص نهائيا من هذه المعازل الاسلامية المهددة ، فمنح تاج الامبراطورية لبير انجي الفريولي في دسامبر ٩١٥ ، لكن هذا الامبراطور اقدم لم يعمل عملا ، واستعجب للشمال الطلياني فاعتمد راهل روما على انفسهم واستعانوا بمركيز اسبوليت الامير البريك ، فاستولوا على معقل « فارفا » الاسلامي ، ثم تألب جميع امراء ايطاليا الوسطى والجنوبية ، وبذلوا اقصى جهودهم فتخلصوا من المعتقل الاسلامي المتبع (كاريليانو) ، واعانهم الاسطول الرومي على ذلك ، واستولوا على المعتقل وقتلوا من كان به من

المجوع قد خلع قوى المسلمين . فبعد مقاومة يائسة استسلموا واحتل الامبراطور المدينة فذبح بسيف جند جميع « الكفار » ولم ينج منهم الا السلطان مغرج ، واثنان من خاضته هما حنون وعبد الباقي ! اذ اختفوا بعد انهيار الدفاع في برج من البروج ، ثم سادوا مخطئين لامير بينيفانت « ادلفيز » قاتكم وفادتهم ، معتزفا بجيبل السلطان الذي كان قد اتفق شرف ابلته في سالف الايام .

المسلمين ، ولقد كان ذلك النصر الحاسم في شهر اوت سنة ٩١٦ من اكبر وقائع
إيطاليا الحربية ، وقد شارك فيه البابا بنفسه وعرض ذاته للخطر ، وكان فخورا
بذلك .

كان ذلك النصر قد درا عن مدينة روما الخطر الاسلامي ، لكنه لم يدرا عن
السواحل خطر القرصنة ، ولم يدرا عن الجنوب الطلياني خطر الغارات والغزوات
ففي سنتي ٩٣٤ و ٩٣٥ ، استولت جنود الخليفة ابي القاسم الفاطمي على
مدينة جنوة حينما ما وانتهت .

وفي سنة ٩٦٥ اندحر اسطول الروم تجاه مسلحي صقلية عند مدينة
مسيناسنة ٩٦٥ (وقعة المجاز) (١)

تكونت الامبراطورية المسيحية في المانيا اثناء هذه الحوادث واراد الاباطرة
ان يتولوا كبير الحملة على المسلمين .

ففي سنة ٩٨٢ سار الامبراطور اوطون الثاني نحوهم فاحتل مدينة طارنطة
ثم واجه جند امير صقلية ابي القاسم عند السواحل تجاه مدينة ستيبو او
كوترني ، ولقد تولى الفرسان الالمان مهاجمة القلب الاسلامي فضعفوا قواه
ودحروه ، لكن الجناحان الاسلاميان تمكنا فورا من تلافي الفادحة ، فانطبقا
بسرعة على فرسان الالمان ، وباء الالمانيون يومئذ بانهزام شنيع ، وانسحب
الامبراطور مغلوبا مهورا وما استطاع الفوز بنفسه الا بفضل سفينة رومية
انقذته من الاسر ، اما امير صقلية فقد لقي حتفه شهيدا اثناء تلك المعركة (٢) .

ولقد مات الامبراطور قبل ان يتمكن من الاخذ بالثار وحدث اضطراب في
الامبراطورية فاصبح كل امير طلياني يتولى بجهوده الخاصة مقاومة المسلمين .
ففي سنة ١٠٠٢ حاصر مدينة بارى القائد الصقلي « الصافي » فدافع عنها
القائد الرومي والعمارة البندقية معا وابعد عنها المسلمين ثم ان مدينة بيزا
تمكنت ١٠٠٦ بواسطة جهودها الخاصة من دحر اسطول المسلمين عند مدينة
ريجيو ثم تدخل النorman وانتهى امر المسلمين .

(١) انظر تفصيلها صفحة ١٤٨ (٢) انظر التفصيل صفحة ١٥٩

اسد الدولة احمد الاكحل

اولاه ابوه وارتضاء الناس ، كما اسلفنا ، في السادس من شهر المحرم سنة ٤١٠ (١٠٠٩ م) وابتدا اعماله بحزم شديد ، فضيظ الامور ، ومهد الراحة ، ودانت له سائر البلاد .

ولقد راي الفرمان اثر حوادث الثورة السالفة ان الشقاق اخذ يدب من جديد بين مسلمي صقلية فقرر ان يهتبلوا الفرصة ، واخذوا يناوشون جند المسلمين لكنهم لم ينالوا في اول الامر منالا ، واوقفتهم جنود احمد عند حدهم .

سياسة قرق تسد : كان اسد الدولة احمد الاكحل يعتمد على ولده جعفر كما كان اخوه جعفر يعتمد على وزيره الباغاثي ، فكانت النتيجة خسرانا مبينا لهذا كما كانت النتيجة خسرانا مبينا لذلك .

راى جعفر بن احمد انه لا يمكن حكم صقلية والنبات بها الا بالاعتماد على فريق فيها دون فريق وتكوين عصبية متينة حول قصر الامارة تحميه من عاديات الزمن واضطرابات الشعب . ولو انه اعتمد على العدل والانصاف واحقاق الحق وازفاق الباطل ، كما اعتمد اجداده واعمامه من قبل ، لكان مآله احسن ، وعاقبته اضمن .

كان سكان صقلية ينقسمون الى فريقين : فريق الصقليين المتاصلين الذين استوطنوا البلاد منذ اوائل عهد الفتح وذريا تهم ومن اسلم من السكان الاصليين وفريق الافارقة الذين جاءوا البلاد حديثا مع ولاة الفاطميين واستقروا بها واغلبهم من البربر من كنانة وغيرها ، ممن بقى بعد ابعاد تاج الدولة لهم اراد جعفر ان يعتمد اول الامر على فريق الصقليين فخاطبهم في الامر وقال لهم اننى اريد ان اخرج عنكم هؤلاء الافارقة الذين سكنوا بلادكم وشاركوكم في دياركم واعتمد عليكم وحدكم في حكم البلاد فقال له وجوه القوم حذار ان تفعل ذلك ايها الامير فائنا قد صاهرناهم واصبحنا واياهم شيئا واحدا فلما اخفق مع هذا الفريق خاطب زعماء الافارقة في الموضوع فقبلوا الاقتراح بسرور

تاريخ صقلية - ١٢

وابتهاج واصبحوا منذ تلك الساعة فريقا ممتازا في الامة . واعفوا من دفع الضرائب ، فاصبحت الاتاوات لاتمس الا الصقليين الاصليين خاصة ، فوقع من جراء ذلك اضطراب عظيم . وانقسم حبل الامة وسادت الضغينة والاحقاد بين قسميها ، واستعد النرمان الذين كانوا يرقبون ذلك عن كثب لانزال الضربة النهائية على رأس ذلك الهيكل الذي تداعى للسقوط .

تدخل المعز بن باديس : اصبح الصقليون في كرب عظيم . فارسلوا خفية وفدا من وجوههم ام بلاط المعز بن باديس مستنصرين مستنجدا ، وقالوا له : لئن لم ترسل من قبلك من يحكمنا حكما عادلا نزيها فاننا سنسلم انفسنا للمروم تخلصا من الظلم الفادح .

كان المعز بن باديس قد استقل فعلا بامور افريقيا ، وصفا له الجو وقتنا ، فاقبل على الانشاء والتعمير ، وكانت له مدينة من اجل واروغ ما رآته البلاد الافريقية .

وكانت الخلافة الفاطمية يومئذ تتخبط في مضر في دياجير من الكفر والاحاد ، ومن الفسوق والفجور ، ومن المظالم والارتباك بين عصر الحاكم بالله الله وعصر ابنه الظاهر لامراز دين الله . بين ادمان الخمر والاعتكاف على الملذات ، فكان المعز ابن باديس يبغض الفواطم بغضا يكنه في قواده ، وكان يرى وجوب استخلاص اكثر ما يمكن من بلاد الاسلام وانتشالها من بين يرائهم وكذلك كان اهل صقلية قد راوا ان لا امل لهم في الاعتماد على الفاطميين ولا نجدة ترجى لهم من قبلهم ، فولوا وجههم كما رايت شطر القيروان يستصرخون ابن باديس ويستنجدونه .

اغتنم ابن باديس تلك الفرصة انجادا لاهل صقلية ، وادخلا لتلك البلاد تحت سلطة القيروان كما كانت اول مرة . فارسل ولديه عبد الله وايوب وارسل معهما جندا قويا يشمل ثلاثة آلاف رجل فدخلوا ارض صقلية وهاجموا قصر الامارة مع من انضم اليهم من الصقليين فاستولوا عليه وقبضوا على الاخرق احمد الاكحل في الخالصة واهرقوا روحه سنة ٤١٧ (١٠٢٦) ، واخذ ابن المعز يدبران الامر بحكمة ورأى شديد .

نكبة هائلة : كان الترمان ، كما قلنا يرقبون عن كتب سير الامور بصقلية ، ويستعدون لانزال الضربة الحاسمة بها ، وما كان الصقليون عن ذلك من الغافلين ، فقد ارسلوا الى المعز يستنجذونه ويستصرخونه ، ويطلبون اليه ان يمدحهم بقوة عتيقة تمنع عنهم خطر الترمان وتحمي ارض الجزيرة من كل طامع ولقد كان الترمان وجماعة النصاري كما اسلفنا ، قد استخلصوا كامل ارض قلورية واحاطوا بصقلية متكالبين .

لبنى المعز بن باديس رحمه الله الطلب ، فانتدب الناس واستنفرهم للجهاد، وتطوع خلق كثير باعوا انفسهم لله وفي سبيل دينه ، وتم تجهيز اسطول يجمع ٤٠٠ سفينة مثقلة رجالا وخيلا وسلاحا .

انما قضى الله يومئذ بهلاك الجزيرة ولا مرد لقضائه ، فذلك الاسطول العظيم الذى كان يستطيع بقوته وبمن فيه ان يقلب صفحة التاريخ في صقلية، بله اروبا نفسها ، قد سار حتى وصل جزيرة قوصرة ، وهناك اصابته زوبعة هائلة اتلفته كله ولم ينج من اهله الا القليل ، فكانت هذه النكبة المؤلمة والكارثة الجلى اكبر اسباب ضياع صقلية ، ومن اعظم اسباب ضياع ملك ابن باديس نفسه الذى اندك فيما بعد تحت ضربات الاعراب الهلاليين .

فى هاتيك الاثناء ، اجتمع جماعة من اهل صقلية يتلاومون ، وقالوا لقد ادخلتم على حكمكم غيركم ، وفقدتم استقلالكم ، واستنصرتكم من لا يستطيع نصركم ، فاتفقوا على نصب امير من عائلة بنى الحنين وارجاع الملك لهم ، فتاوروا بولدى المعز ، وقتلوا من جندهما زهاء الثمانمائة رجل ، وما وسع عبء الله وأيوب الا الرجوع بفلولهما لافريقيا ، ونصب الصقليون فى بالرمة صمصام الدولة حسن ، شقيق احمد الاكحل القتيل .

صمصام الدولة حسن بن يوسف

تنانير العقد من وسطه ومن اطرافه ، واتخذ الترمان يتقدمون فى البلاد . وكان الصمصام مفلولا ، فلم يستطع ان يوطد ملكه او ان يثبت سلطانه ، ولم يجد المسلمون يومئذ وسيلة تنجيهم من ذلك الخطر الداهم ، خطر الترمان

المنيت ، الا الانقسام على انفسهم واستقلال كل امير بناحية . وصدق الله العظيم « فانها لا تعنى الابصار ، ولكن تعنى القلوب التى فى الصدور » .
 ففى بالرمة العاصبة كان الضمصاص حسن يحكم الناحية الشمالية . وفى مازرة وما حولها استقل بالامر عبد الله بن منكوث . وفى جرجنتى وما اليها استبد بالامارة على ابن نعمة بن الحراس . وفى سرقوسة وقطانية استقر بن لثمنة . واستقل فى جهة مسينا امير آخر . واصبح امر البلاد فوضى ، وتقلب سفلة القوم على اصحاب الراى والاصالة فيهم .

القادر بالله بن الثمنة

اجتمع اهل بالرمة وأعلنوا خلع طاعة حسن لما راوا من ضعفه ، وما كان ضعيفا الا بهم ، وأمروا عليهم القادر بالله ابن الثمنة ضامين بذلك امارتى سرقوسة وقطانية وامارة بالرمة ، وكان ابن الثمنة متزوجا ميمونة أخت على ابن الحواس امير جرجنتى ، فكان ذلك بادرة من بوادر جمع الكلمة ومحاولة يائسة لتوحيد صقوف تلالشى نظامها أيديا (١) .

الحرب الاخوية والخيانة : سكر الامير يوما فخلط . فاتهم زوجه أخت ابن (١) اناء هذه الحوادث سنة ٤٣٠ وما حواليتها توطنه قدم الاتراك المسلمين الجوقيين ببلاد الشام وفلسطين وانتزعوها من أيدي ملوك الطوائف وامراء القاطميين . الحواس تهمة هى منها بريئة ، فقطع لها عرق الزند لثموت من نزيف الدم . لكن ولدها ادركها فى اللحظة الاخيرة وجاءها بالاطباء فانعشوها . ومن الغد ادرك الامير سوء فعله فاعتذر لزوجه ، وتظاهرت بقبول الاعتذار ، ثم طلبت اليه ان تذهب لزيارة اخيها فاذن لها . وهنالك قصت على ابن الحواس ما فعل بها زوجها ، فاقسم لينتقم لها منه . وجمع جموعه لا لرد غائلة الثرمان ، بل لمحاربة امير بالرمة ابن الثمنة ، والتقى الجمعان ودارت الدائرة على ابن الثمنة ومن معه ، وانتصب ابن الحواس اميرا فى بالرمة .

اما ابن الثمنة فقد ادت به النذالة والصغار الى جزيرة مالطة ، حيث كان ملك الثرمان ، وطلب اليه ان يمدد بجنده ووعدته بملك الجزيرة وما كان روجى الاول

ملك النرمان ينتظر الا مثل ذلك الحادث فيجمع اسطوله وجموعه الوحشية وسار مع الخائن ابن الشنة كما سافر منذ مائتي عام اسد ابن الفرات مع الخائن او فيماس لفتح صقلية .

خراب دولة المعز على يد بني هلال : في سنة (١٠٧٣) حيث كانت تجري هذه الحوادث ، وحين كان من المستطاع التفات المعز من جديد بعد نكبة الاسطول السالفة الذكر وبعد اخراج ولديه من صقلية ، لتلك الناحية اليانسة، وقعت في مدينة القيروان الفتنة الشهيرة ضد الشيعة او الرافضة كما كانوا يدعون في ذلك الوقت ، وانقضى اهل السنة على رجال الشيعة فقتلوهم في الجواضر والبوادي اشنع قتلة ، واعلن المعز يومئذ خلع طاعة الفاطميين وخطب للخلافة البغدادية العباسية وحمل الناس عامة على مذهب مالك ابن انس رضي الله عنه . ثم جاءه من بغداد سنة ٤٣٩ الوزير ابو الفضل بن عبد الواحد الدرعي يحمل له من الخليفة العباسي القائم بأمر الله تقليدا يعترف له فيه بالاستقلال بلغت تلك الانباء مدينة القاهرة ، فعظم الامر على بلاط الفاطميين فيها ، ولقد اشار على الخليفة المنتصر بالله . وزيره احمد بن علي الجرجاني ، ان يرسل اعراب بني هلال على بلاد المغرب ، انتقاما للشيعة ، وتحطيم اسلطان صنهاجة وملك بني باديس ، وتخلصا في آن واحد من اولئك الاعراب الذين كثرت قلاقلهم في شرق الصعيد المصري .

قبل الراي كما هو معلوم في كتب التاريخ ، وانصب على ارض افريقيا من تلك الجنوع نحو النصف مليون نسمة، صادموا جند المعز سنة ٤٤٠ (١٠٤٨ م) فدحروه وتحصن في القيروان فتنازلوه بها واحتلوها ، والحقوا بها نكبة كانت من اكبر نكبات التاريخ في العالم الاسلامي ، فاندكت بذلك معالم مدينة من ازهى وازهر مدنيات هذه البلاد .

يقول شاعر بلاط المعز الحسن ابن وشيقي ، واصفا مصيبة القيروان من قصيد طويل :

حسنت فلما ان تكامل حسنها	وسما اليها كل طرف وان
وتجمعت فيها الفضائل كلها	وغدت محل الامن والايمان

نظرت لها الايام نظرة كاشح
 تخطى اذا الاقدار حم وقوعها
 اهدت لها فتنا كليل مظلم
 بمصائب من فادع واشالب
 فتكوا بامة احمد ، اتراموا
 نقضوا العهود المبرمات واخفروا
 فاستحسنوا غدر الجوار واثروا
 ساموهم سوء العذاب واظهروا
 والمسلمون مقسمون تنالهم
 يستصرخون فلا يقات صريخهم
 يادوا نفوسهم فلما انفذوا
 خرجوا حفاة عائدين برهبهم
 هربوا بكل وليدة وفطيمة
 ففارقوا ايدي سبا وتشتتوا

اما المعز فقد ترك اواسط البلاد للاعراب والتجأ الى الساحل ، فاستقر في
 المهديّة . ثم هدأت نوعا ما عاصفة الاعراب الذين اخذوا يتوغلون في بلاد
 الشمال الافريقي من مشرق الى اقصى مغربه ، واخذت الدولة الصنهاجية
 تنتعش شيئا فشيئا ، وكانت فيها باقية ضالحة للحياة .

ملوك الطوائف وتميم بن المعز : انقسمت البلاد التونسية مؤتمدة ، وكانت
 مهد وموطن الدولة الصنهاجية الى عدة امارات صغيرة واهية البنيان ضعيفة
 الشأن .

فمنها امارّة بنى خراسان بمدينة تونس وما حوالها ، استقلوا بشؤون
 تلك الناحية من حوالى سنة ٤٥٨ الى سنة ٥٥٣ (١) .

ومنها امارّة بنى جبارة بن مكي استقلت بناحية سوسة الى سنة ٥٥٤ .
 وامارة بنى مدافع بن جامع الهلالي : استهدت بناحية قابس وما اليها من
 بلاد الجنوب الى سنة ٥٥٥ .

اما ناحية الجريد ، فقد استقرت بها عائلة بنى الرند ، ودام استقلالها
أكثر من الامارات السابقة اى الى سنة ٥٧٥ .

وأخيرا بمدينة المهديّة وحواليها من ناحية الغرب والجنوب ، ثبتت امارّة
بنى المعز بن باديس الصنهاجية ، الى سنة ٥٥٥ ، حيث جاءت دعوة مهديّة
أخرى من ناحية المغرب كانت هذه المرة سنية موحدة ، قضت على ملوك
الطوائف ، ووحدت بلاد الشمال الأفريقى فى أمور الدين والدنيا ، على يد بطل
من أبطال الاسلام الخالدين : عبد المؤمن بن علي .

وقد ازدان ملك صنهاجية بالمهديّة ، كما ازدان ملكها من قبل بالقيروان
ببلاط فاخر التفت حوله ثلة صالحة من رجال العلم ، واعلام الادب ، وكبار
الفلاسفة والشعراء ، فكانت ايام المهديّة على صغر حجم المملكة وتعاقب الحروب
بينها وبين الهلاليين ، اياما مشهودة فى تاريخ الفن والعلم والادب ، وقصدها
من كل ناحية امثال فيلسوف الاندلس الشهير امية ابن ابي الصلت والمجتهد
الاكبر الامام المازرى والشجاء اليها بعد خراب صقلية شاعرها الاعظم عبد
الجبار بن حمديس ، وكان امير المهديّة تميم بن المعز من خير الرجال عقلا
وادبا ، وحسن ادارة ، ومعرفه باصول الادب والشعر ، وانه ليصور لك
حال مملكته وحال رجاله وحال العالم الاسلامي كله فى ذلك العصر اذ يقول :

ياذهري ما اقساك من متلون	فى حالتك ما اقلك منصفاً
اتروح للنكس الجهول ممهداً	وعلى اللبيب الحر سيفاً مرهفاً
واذا صفوت كدوت شيمة باخل	واذا وقيت نقضت اسباب الوفا
لا ارتضيك وان كرميت لاتنى	ادري بانك لا تدوم على الصفا

(٦) اثر تكة الدولة الصنهاجية الشرقية على يد الهلالين وخراب القيروان ، اعلنت مدينة
تونس التى كانت يومئذ من ازمى وازهر المدن فى الشمال الاتريقى انضمامها للمملكة الصنهاجية
الغربية ! مملكة بنى حماد ، وكانت قد استقرت فى بجاية وانتظم شأنها وذاع صيتها واصبحت
كمية القصاد ومخزن رجال العلم والادب وكبار الشعراء ؛ فبنى ملك بجاية الناصر ، الامير عبد الحق
ابن خراسان واليا على مدينة تونس وما جواليها ، فلما استقر به المقام وتم له الاتفاق مع اصل
البلاد ؛ اعلن استقلاله ، وحالف هو وبنوه على ذلك الاستقلال فى تلك الامارة الصغيرة الرقعة
الكبيرة الاحنية بمضى مائة عام .

زمن اذا اعطى استورد عطائه واذا استقام بدا له فتحررفا
 ما قام خيرك يا زمان بشره اولى بنا ماقل منك وما كفى
 ثم هو يخاطب البقية من قومه ، يحرضهم ويستفز عنهم الحمية ، كانه يلهب
 فيهم نار الايمان ليرسل بهم نجدة لمسلمي صقلية :
 متى كانت دماؤكم تطل ؟ اما فيكم بشار مستقل ؟
 اغاثم ثم سالم ، ان فسلتم فيما كانت اوائلكم تسدل
 ونتم عن طلاب المجد حتى كان العزم فيكم مضحـل
 وما كسرتم فيه العسوالى ولا بيض تفسل ولا تسـل
 وتسمو به احيانا نفسه الابية حتى تبلغ ذروة الطموح للعلـى واسترجاع المجد
 الأقل :

بكر الخيل دامية النحور وقرع الهام بالقضب الذكور
 لا تخجننها حربا عوانا يشيب لهولها راس الصغير
 فاما الملك فى شرف وعـز على التاج فى اعلى السـرر
 وما الموت بين ضبـبا العوالى فلسمت بخالد ابد الدهور

محاولة انقاذ صقلية : اخذ فى صقلية اميرها المتغلب على بن الحواس يجمع
 الجموع ويعاول توخيد الكلمة ، لتاليب الناس ضد النرمان ، والدفاع النهائى
 عن حكم المسلمين بتلك الجزيرة *

فى هاتيك الاثناء ، قصد وفد من رجال الجزيرة مدينة المهديـة ، وقد علم كما
 علمت فضل اميرها ونخوته وهمته العالية ، فاستنجده واستمد منه الاعانة
 على الفرنج المتكالبين - فما كان من الامير تميم بن المعز الا تلبية الدعوة ،
 واستنقار الناس للجهاد ، فجهز بعض قطع الاسطول الذى كان بالمهدية ، وحمله
 ثلة سالحة من بقايا جنده ، وارسل بكل ذلك تحت قيادة ولديه على وايوب *
 نزل على بن تميم بقسم من الجند فى مدينة بالرمة ، ونزل ايوب بالقسم
 الاخر فى مدينة جرجنتى ، فاكرم ابن الحواس وفادتهما ، وتغال الناس خيرا
 بهذا المدد الكريم ، واحسن ايوب وعلى السيرة ، فمال اليهما الناس واحبوصا
 حبا عظيما واستعد الجميع للجهاد ضد النرمان *

لكن ابن الحواس خشي منها على ملكه المتضعع ، وخاف زوال سلطانه
الآفل ، ففرق الكلمة بعد اجتماعها ، وشنت القسمل بعد القنامه ، وجمع جماعة
من جنوده صادم بهم نذالة وخيانة وصغاراً جند المنقذين على وايوب ، ومات
اللعين في معركة بضربة منهم .

ايوب بن تميم

اجتمع اكثر الناس يومئذ على ولاية ايوب ، وروا فيه الرجل الصالح والقائد
الذي يمكنه انقاذ الجزيرة من رجال الترمان الذين كانوا يتقدمون دائماً فيا يكونون
اطرافها ، وقد التهموا منها الشيء الكثير بل اصبح اكثرها بين ايديهم واخذت
نيران الحساس تنقد في النفوس يذكىها شعراء امجاد امثال عبيد الجيسار بن
حمديس الذي انشد قصيداً خالداً انتشر يومئذ بين الناس فاستنهض همهم
ودفع بهم الى مقاومة عنيفة هي مقاومة اليائس المستميت ، فلما رأيت لها مثيلاً
في اسفزاز الهمم الفاترة للدفاع عن الوطن المشرف على الهلاك . واننى لا ارى
غنى عن تسجيل هذا القصيد برمته لانه يمثل بنفسه صفحة من الغرب واروع
صفحات الجهات الاسلامى بصقلية . يقول ابن حمديس :

بنى الثغر لستم في الوغى من بنى امى اذا لم اصل بالعرب منكم على العجم
دعوا الخوف انى خائف ان قدوسكم دواه وانتم فى الامانى مع العليم
وكاس بام الموت يسعى مديرها الى اهل كاس حثها باينة الكرم
فردوا وجوه الخيل نحو كرهسة مصرحة الروم بالشكل واليتم
تهيل مع النقع المحلق بالضحى على الشمس ما هالته ليلا على النجم
وصولوا ببيض فى العجاج كأنها فروق بضرب الهام محمرة السجم
فلا عدت من سنها من غمورها ظهورا ، فقد تخفى الجداول بالرجم
وقرع الحسام الرأس من كل كافر احب الى سمعى من الثغر فى اليم
ووالله منكم كل ماض كعصبة يسير الى الهيجاء متقد العزم
يحدث بالاقدام نفساً كأنها تطير الى الحرب اشتياقاً عن السلم
ويسطو بمحجوب الظباء اذا بدا جلاماً جلا بالصبيح من ظلمة الظلم

له دخلة في الجسم تخرج نفسه وما يفتدى منه بلحم ولا دم ليوث اذا ما اقبل الموت فاغرا له عين ضرغام هصور ، فقلبه ولله ارض ان عدمتم هواءها وعزكم يفضي الى الذل والنوى وان بلاد الناس ليست بلادكم أعن ارضكم تفنيكم ارض غيركم تقيد من القطر العزيز بموطئ واياك عنه ان تجرب غريبة

التكبة : استمر الجهاد عنيقا قاسيا ، انما كان النرمان يتقدمون في البلاد باستمرار ، واخذ الخناق يضيق على المسلمين هنالك ، ولقد صدق من قال :

يقمى على المزم في ايام محنته حتى يزي حسنا ما ليس بالحسن
ففي هاتيك الايام ، والنرمان يتقدمون والمسلمون يتوالى خسراهم ، ويستمر انهيارهم ، تألب جماعة من المسلمين هنالك ضد ايوب بن تميم ، وناووه وقتلوه على مرأى ومسمع من الثرمان (١) ، فعلم هذا انه خسر الصفقة ، وعلم كبار القوم هنالك ان صقلية قد ضاعت على يد سفهائها وانذالها ، فقرر ايوب وقرر وجوه القوم معه الانسحاب الى المهدية ، فركبوا الاسطول ، حاملين معهم جميع من راي الانسحاب من الجزيرة من خاصة القوم واعيانهم وعامتهم وكان ذلك سنة ٤٦١ (١٠٧٨) وعندئذ انتهى امر المقاومة المنظمة او الشبيهة بالمنظمة وخلا الجو لرجال النرمان فاندفعوا يحتلون بقايا الجزيرة .

آخر مقاومة : لم يبق يومئذ بارض الجزيرة بيد المسلمين الا قلعة قصر يانة ومدينة جرجنتي ، فقصدتهما رجار الاول ملك النرمان ، ونصب عليهما الحصار

(١) الامر اعظم من ان يكون تبليغا وجهالة ، بل كان في نظري نتيجة خيانة وتواطئ مع النرمان

وضيقه ، وثقاني اهل المدينتين في الدفاع ، واستبسلاوا استبسالا لو وقع من قبل مثله لبقيت صقلية احقابا عديدة اخرى بيد المسلمين ، ودام الحصار ثلاثة اعوام ، حتى اكل المحصورون الجيف ، فاستسلمت جرجنتى ، ونصب النرمان عليها لواء الصليب وبقيب قصر يانة ثابتة منيعة رغم الجوع والخصاصة والالام ، فسجلت في تاريخ المقاومة الاسلامية ضد النرمان ، ما سجلته من قبل في تاريخ المقاومة المسيحية ضد المسلمين ، وهكذا ابى الله الا ان يختم صفحة المسلمين بصقلية ، ختاماً كله عزة وشرف وافخار ، وما استسلمت قصر يانة تحت ضربات رجار العنيفة الا سنة ٤٨٤ (١٠٩١) اى ٢٣ عاماً بعد انسحاب من انسحب من المسلمين مع ايوب ابن تميم ابن المعز . وتملك يومئذ النرمان كامل جزيرة صقلية (١) .

سيرة النرمان الاولى : كان النرمان لم يختلطوا بعد بالمسلمين في غير ميادين القتال ، فكانوا لم يزالوا على فطرتهم الوحشية الأوروبية الاولى ، ولم يغتربوا بعد من المدنية الاسلامية التى كانت وضاعة لامعة رغم الحروب ورغم الفتن والقتل ، والخلافات السياسية والحزبية والعنصرية .

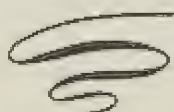
فان رجار الاول ملك النرمان لما تم له الامر كاملاً بارض الجزيرة اسكن الروم والنرمان مع المسلمين في سائر جبهاتها ، فتم الاختلاط بينهم ، ولم يترك لاهلها من المسلمين حسباً يرويه ابن الاثير : حماماً ولا دكاناً ولا ولا طاحوناً ولا فرناً .

فكانت ايام رجار الاول — نحو الثلاثين سنة — ايام تنكيل وزجر ، ايام

(١) لم يكتف النرمان باحتلال صقلية والتهبت بها ، بل تبعوا المسلمين الى البلاد الافريقية ، واتخذوا فيهم واصبحت اساطيل الملك رجار تلقى الرعب في قلوب سكان السواحل الاسلامية بافريقيا الشمالية ؛ فكانت نتيجة سقوط صقلية ان استولى النرمان على مدينة طرابلس الغرب سنة ٥٤٠ هـ ؛ فاقضى رجالها وسبى حرمها ، لان اهلها نازروا بالنرمان واطردوهم ، اذا كانوا قد احتلوا قبل ذلك سنة ٥٣٠ هـ .

ثم احتل النرمان مدينة صفاقس سنة ٥٤٣ هـ ، واحتلوا مدينة المهدية ، واطردوا منها سلطانها الحسن بن علي بن يحيى سنة ٥٤٣ هـ .

اقتلاع جذور الحكم الاسلامي بالجزيرة ، وتمكين سلطان المسيحية فيها ، فكانت دورا من ادوار الفتح الحربي ، دام طويلة ايام رجار الاول (٣٠ سنة) ، الا انه يسجل لهذا الملك انه لم يعمد الى قتل المسلمين ، ولم يشردهم عن البلاد ، فكان ذلك سببا في بقاء المدينة الاسلامية وازدهار فيما بعد بصفة لامة وضاعة ، وكان الترماني انفسهم اول مستفيد منها .



وفي سنة ٥٤٨ احتلوا مدينة عنابة وجزيرة قرقنة .
واحتلوا سنة ٥٤٨ كذلك جزيرة جربة وقتلوا باهلها فتكا ذريعا .

القسم السابع

صقلية الإسلامية

تحت الحكم المسيحي النرمانى

رجار الثانى : كان من اغرب نتائج استيلاء النرمان على صقلية ان الغالبين النرمان تأثروا ايما تأثر بمدنية المسلمين المقلوبين ، وكان اختلاط العنصرين فى المدن والقرى والى ادى سببا لتعارفهم السريع ، واقول لتألفهم البديع .

لقد نشأت فى هاتيك الاصفاع ، منذ انتهاء عصرى الاحتلال ، وموت الملك الفاتح رجار الاول ، مدنية جديدة زاهية زاهرة ، طاهرة لامعة ، يمكننا ان ندعوها المدنية النرمانية الإسلامية .

كان المسلمون حين فقدوا سلطانهم السياسى بهاتيك الديار ، وضعفت عصبيتهم عن مزاوله الحكم وممارسة رئاسة الدولة ، فقدوا جميع الاسباب التى كانت تحول بينهم فى متازعاتهم الداخلية آخر ايام ملكهم ، وبين الاستمرار على نشر رسالتهم العلمية الفنية المدنية الرائعة ، فاقبلوا يومئذ تحت سلطة النرمان على العلوم والفنون والآداب ، وانشاء المباني الجليلة الضخمة والقصور البديعة ، وحتى الكنائس والكاتدرائيات ، مما لا تزال آثاره الجليلة قائمة الى يومنا هذا ، ولقد دام هذا الدور البديع دور المدنية الإسلامية النرمانية طيلة عهد النرمان فى صقلية ، بعد رجار الاول (مائة سنة)

يقول ابن الاثير عن رجار الثانى :

« سلك طريق ملوك المسلمين من الخبايب والحجاب ، والسلاحية والجائذارية وغير ذلك ، وخالف عادة الفرنج فانهم لا يعرفون شيئا من ذلك » وجعل له ديوان المظالم يرفع اليه شكوى المظلومين فينصفهم ولو من ولده ، واكرم المسلمين وقربهم ومنع عنهم الفرنج فاحبوه . »

قال غوستاف لوبون فى تاريخه الشهير عن هذا العهد من تاريخ المدنية

الاسلامية القرمانية : (ص ٣١٦) .

« كانت مدينة العرب لاتزال زاهية بصقلية عندما اتم الترمزان فتحها .
ولقد اظهر رجار وخلفاؤه من بعده عقلا راجعا ، عندما ادركوا سمو منزلة اتباع
الرسول ، فاقبضوا عنهم النظم والتراتب الادارية وبذلوا لهم حمايتهم ، وبذلك
اتاحوا للبلاد عصر رفاهية دام الى عصر ملوك السواب الامان (١١٩٤) الذين
ابعدوا العرب خارج صقلية .

ثم يقول في موضع آخر من كتابه المذكور ، عن هذه الفترة التاريخية ايضا
(ص ٤١٦) :

« لقد ادرك الملك رجار كما ادرك رجال المسلمين ان التسامح وحده هو الذي
يكفل الحكم الصالح للجميع . وكانت الارستقراطية ، اعيان الامة وعلية القوم
من رجال العلم والفكر والصناعة مؤلفة خاصة من المسلمين فبذل لهم حمايته
بصفة فعالة .

ولقد سلك خليفته غليوم خطته فتعلم العربية وحذقها ، وكان لا يعتمد في
المهمات الدقيقة الا على العرب خاصة ، واعترف له هؤلاء بالجميل ، فكانوا
ينضوون تحت لوائه لمقاومة الخصوم واخماد نيران الفتن وكانت لهم في الرمة
حارات فسيحة ، ومساجد ضخمة ، وائمة ، وقاض يفصل ما شجر بينهم ،
وبفضلهم كان بلاط ملوك الترمزان زاهرا كثير التآلق ، حتى امكن للمؤرخ ابن
الفداء ان يقول عنه ، « وانه كان يضاهي بلاط الخلفاء في بغداد والقاهرة » .
يقول الشريف الادريسي الصقلي في كتابه الشهير « نزعة المشتاق في
اختراق الآفاق » عن الملك رجار :

« فان افضل ما عنى به الناظر ، واستعمل فيه الافكار والخواطر ، ما سبق
الملك المعظم رجار المعتر بالله ، والمقدر بقدرته ، ملك صقلية وانكردة وايطاليا
وقلورية امام رومية الناصر للملة النصرانية ، اذ هو خير من ملك الروم بسطا
وقبضا وصرف الامور على ارادته صرفا وقبضا ، ودان في ملته بدين العدل ،
واشتمل عليهم بكثف التطول والفضل ، وقام باسباب ملكته احسن قيام ،
اجرى سنن دولته على افضل نظام واجمل قيام . الخ

ملوك النرمان تولوا امر صقلية

الملك	الولادة	الولاية	الوفاة
رجار الاول	١٠٤٠	١٠٧٠	١١٠١
ابنه رجار الثاني	١٠٩٣	١١٠١	١١٥٤
ابنه غليوم الخبيث (١)	١١٢٠	١١٥٤	١١٦٦
ابنه غليوم الحسن	١١٥٤	١١٦٦	١١٨٩
طانكريت (٢)		١١٩٠	١١٩٤
غليوم الثالث		١١٩٤	

وهو آخر ملوك النرمان ، تولى صيبيا تحت رعاية امه (سييلا) لكن الامبراطور
الاماني هنري استولى فعلا على امر البلاد وضمها للامبراطورية وساق غليوم
وامه واخوته للاسر فسلم اعينهم وحبسهم في قلعة حتى لاقوا حتفهم .



(١) اطلق النصارى عليه هذا الاسم لحسن سيرته مع المسلمين ولانه عندما تولى الملك اعتمد في
المهمات عليهم .

(٢) هو ابن غير شرعي لرجار الثاني ؛ وفي ايامه تدخل الامبراطور هنري الرابع الالماني في
امر صقلية وضرب على ايدي النرمان والمسلمين معا .

النفوذ الاسلامي بصقلية

تحت امرة ملوك النرمان

يقول ميسيو لوط السالف ذكره ، فى كتابه « غارات الهمج » عن هذه الحقبة من تاريخ المسلمين فى صقلية :

« انتهى امر الاستيلاء العربى بجزيرة صقلية ، لكن الحياة العربية قد استمرت بعد ذلك ، فالملك رجار الاول ، والملك رجار الثانى الذى استبدل لقبه واصبح يدعى الملك بدل الكونت وكذلك غليوم الاول وغليوم الثانى قد نفذوا جميعا ما تعهدوا به لجماعة المسلمين هنالك من احترام عوائدهم وقوانينهم ولغتهم وديانتهم

ثم ان ملوك النرمان قد استخدموا المسلمين جنودهم ، وتركوا للمدن الصقلية وكانت كلها يؤمئذ مدنا اسلامية (١) جميع نظمها البلدية والعرفية والصناعية، وفتحوا فى وجه المسلمين ابواب ارفع مناصب الدولة يتولونها ، اما علماء المسلمين ورجال الادب والفكر منهم فقد كانوا خلاصة الخاصة فى بلاط الملوك . اما بالنسبة لسنائر الرعايا المسلمين فقد كانوا يرون فى ملوك النرمان ، امراء يعتنقون الدين المسيحى ، ويقول عمارى ان الامبراطور فريديريك الثانى كان كما كان رجار الثانى قبله سلطانا من سلاطين الشرق لا يميزه عنهم الا دينه بالمسيحية .

... ولقد دام الرقى المادى العربى والحضارة الادبية العزبية امدا طويلا ، وورثها عن ملوك النرمان ملوك الالمان من عائلة الالمان من عائلة هوفا نستوفن كهنرى الرابع واقر يدريك الثانى .

« ولعنا لا نجد مندوحة عن المقارنة بين سياسة ملوك النرمان الحرة الماهرة مع مسلمى صقلية ، وبين سياسة ملوك قشتالة الاسبان مع مسلمى الاندلس .

(١) انظر فيما بعد قسم : كيف ترك المسلمون الجزيرة ؟

لكننا نقول ان فارفا جسيما يمتعنا من هذا التنظيم ، حيث ان المسيحيين في اسبانيا كانوا يتولون بانفسهم اخراج المسلمين الفاصيين من بلادهم ، اما في صقلية فان النرمان انفسهم كانوا اجاناب غاصبيين ، بل كانوا في اول امرهم مغاضبين مكروهين ، واضطرو الاضطناع الناس بحسن السلوك ، ففربوا منهم المسلمين واجملوا معاملة النصراني سواء كانوا من الصقليين اللاتينيين او من الصقليين الاغريق .

« كانت حياة المسيحيين بصقلية اثناء حكم المسلمين من الاغالبية او الفاطميين حياة مظلمة النواحي لا نستطيع ان نستجلى غوامضها ، لان الكتابات المسيحية واغلبها كان مكتوبا باللغة اليونانية قد اُتلفت خلال القرن العاشر ، انما كان مقامهم هنالك كمقام سائر المسيحيين الذين الذين عاشوا تحت حكم المسلمين اى انهم كانوا يدفعون للدولة اتاوات ثقيلة وكانوا في اكثر الاوقات بعيدين عن المناصب الادارية ، ولقد كانوا يتمتعون بحريتهم الدينية انما على شرط ان يكون ذلك بصفة هادئة خافتة » ان عدم وجود شهداء للمسيحية بهذه الاقطار خلال هذا العصر يدل دلالة صريحة على تسامح المسلمين نسيبا ، ويقول ميكال عماري ان استشهاد وتعذيب القديس بوركوب اسقف طبرمين عند سقوط هذه المدينة سنة ٩٠٧ بين ايدي المسلمين لم يكن نتيجة تعصب ديني اسلامي بل كان نتيجة جنون ابراهيم الاغلبى الثانى الذى قاسى اهله وذوو قرابته الاهوال من جنونه .

« ... لقد ازدهر التفوق الاسلامى بصقلية ازدهارا لامعا من القرن التاسع الى القرن الحادى عشر حتى يكاد يخيّل لك ان صقلية قد اصبحت جزيرة عربية بحتة . وكنت تنتظر بعد ذلك ان ترى فوق اديم صقلية معالم وآثارا تباهى بجمالها وجلالها معالم وآثار اسبانيا والمغرب وتونس . لكن يالها من خيبة امل ، انه لم يبق لنا من ذلك اى شىء سواء معالم الدين او الحياة المدنية . انما ينتجى لك نفوذ الهندسة العربية فى قصور وكنائس النرمانيين امثال قصور القبة والعزير والقبولاء او كاتدرائيات بالرمة وشفالو .

... نظرا لذلك الدور العظيم الذى لعبه بارضى الجزيرة علماء الرياضة

والمنجمون والأطباء والمهندسون المسلمون ، ونظرا لكون البلاط الملكي النرمانى كان بلاطا شرقيا فى نظر امراء المسيحية ، كان ينتظر ان تحيا العربية فى هاتيك الديار حياة طويلة . لكن شيئا من ذلك لم يكن . واخذت العربية تتراجع وتقهقر خلال النصف الثانى من القرن الثالث عشر الى ان نضاءت حتى فى المدن . وذلك يرجع لسببين اثنين : اولهما ان الطبقات الراقية والعليا من المسلمين قد هجرت الجزيرة الى افريقيا ومصر وتانيهما وهو الاهم ان الرهبان اللاتينيين قد امعنوا فى تنصير الناس طوعا او كرها بحيث ان الاسلام اضمحل تماما من ارض الجزيرة حسبيما يلاحظه عمارى خلال القرن الثالث عشر .

جاء فى كتاب « التاريخ العالمى » للمؤرخ السويدي الكبير كارل كزيمبرغ (١) ، عن هذه الفترة ، ما يلى :

« كانت صقلية ، خلال القرنين الحادى والثانى عشر ، الموطن الوحيد الذى تسود فيه حرية المعتقد . فالاديان الثلاثة المسيحية والاسلامية واليهودية ، كانت تعيش هناك جنبا الى جنب ، فى امن وسلام .

« قامت هناك مدينة ضخمة شامخة ، ذات ظابع مختلط ، كانت ثمرة ما اظهره الملك روجى من عبقرية سياسية ، وضعته فى صف الاسكندر ، وتيودوريك الكبير .

« نشأت هذه المدينة بفضل حكومة سمحت لليونانيين والمسلمين وللطليانيين واليهود ، بأن يعمل كل على شاكلته . وكانت تشجع الجميع على حد سواء . وهكذا كانت صقلية ، جغرافيا وتاريخيا ، الملتقى الطبيعى للمدنيات الافريقية والرومانية والعربية . كذلك اجتمع فيها ، فى تجانس بديع ، الفن الهندسى المعمارى البيزنطى ، والعربى ، والرومانى والنرمانى ، فتشكل من كل ذلك هذا الفن النرمانى الصقلى ، وهو زبدة ابع مدنيات ،

(1) Histoire Universelle : Karl GRIMBERG

بعد مائة عام - حكاية ابن جبير : فى سنة ٥٦٠ هجرية (١١٧٢ م) اى بعد مائة عام من انهيار حكم المسلمين بصقلية ودخولها تحت طاعة النرمان ، وبعد ان تدخل فعلا الالمان فضربوا على ايدى آخر ملوك النرمان ونكسوا بالمسلمين تنكيلا ذريعا ، بعد ذلك ، دخل صقلية قافلا من حجة الرحالة الشهير ابو الحسن بن جبير الكنانى الاندلسى ، فترك لنا وثيقة من الغرب وثائق التاريخ ، هى رحلته البديعة التى صور فيها تصويرا دقيقا حالة المسلمين فى الجزيرة مع ملوك الالمان فى اخرج ساعة ، وادق موقف ، اى فى الساعة التى سبقت انتهاء عصر التسامح الدينى واخراج المسلمين كافة من صقلية .

فهذا القسم من الرحلة يعتبر اصدق تاريخ لتلك الحقبة من التاريخ الصقلى وتقل نتف منه ينصها نعتبره تلمة لبحثنا هذا ، يقول ابن جبير وهو فى مسينا :

« وكفى بانها ابنة الاندلس فى سعة العمارة وكثرة الخصب والرفاهة ، مشحونة بالارزاق على اختلافها ، مملوءة بانواع الفواكه واصنافها ، لكننها معمورة بعبدة الصلبان يشنون فى مناكبها ويرتعون فى اكفافها ، والمسلمون معهم على امالكهم وضياعهم قد احسنوا السيرة فى استعمالهم واصطناعهم : وضربوا عليهم اتاوة فى فصلين من العام يؤدونها ، وحالوا بينهم وبين سعة فى الارض كانوا يجدونها . »

... وليس فى مسينا هذه من المسلمين الا نفر يسير من ذوى المهن ولذلك يستوحش بها المسلم الغريب . »

ثم حل بباليرمة فكتب لنا عنها هذه القطعة الطريفة : « هى مسكن ملكهم غليام Guillaume (١) وشان ملكهم عجيب فى حسن السيرة واستعمال المسلمين واتخاذ الفتيان المحاييب ، وكلهم او اكثرهم كاتم ايمانه متمسك بشريعة الاسلام ، وهو كثير الثقة بالمسلمين وساكن اليهم فى احواله ، والمهم من اشتغاله ، حتى ان الناظر فى غطبخته رجل من المسلمين . وله جملة من العبيد السود المسلمين وعليهم قائد منهم . ووزراؤه وحجابه الفتيان جملة من العبيد السود المسلمين وعليهم قائد منهم . ووزراؤه وحجابه الفتيان

وله منهم جملة كثيرة هم اهل دولته والمرسمون بخاصته ، وعليهم يلوح رونق مملكته لانهم متسمون فى الملابس الفاخرة ، والمراكب الفارهة ، وما منهم الا من له الحاشية والخول والاتباع ، وليس فى ملوك النصرارى اقرب فى الملك ولا انعم ولا ارفه منه ، وهو يتشبه فى الانغماس فى نعيم الملك وترتيب فوائنه ووضع اساليبه وتقسيم مراتب رجاله وتفخيم ابهة الملك واظهار زينته بملوك المسلمين ، وله الاطباء والمنجمون وهو كثير الاعتناء بهم شديد الحرص عليهم حتى انه متى ذكر له ان طبيباً او متجياً اجتاز ببلده امر بامساكه وادر له ارزاق معيشته ، حتى يسليه عن وطنه وسنه نحو الثلاثين سنة ٠٠٠ وعن عجيب شأنه انه يقرأ ويكتب العربية ، وعلامته على ما اعلمنا به احد خدمته المختصين به « الحمد لله حق حمده » وكانت علامة ابنته : « الحمد لله شكرا لا نعمه

» واما جواريه وحظاياها فى قصره فمسلمات كلهن ، ومن اعجب ما حدثنا به خديمه المذكور وهو يحيى ابن فتيان الطراز ، وهو يطرز بالذهب فى طراز الملك ان النصرانية من الفرنجيات تقع فى قصره فتعود مسلمة ، يعيدها الجوارى المذكورات مسلمة ، وعن على تكتم من ملكن فى ذلك كله ، ولهن فى فعل الخيز امور عجيبة .

« واعلمنا انه كان بهذه الجزيرة زلازل مرجفة ، دعر لها هذا المشرك ، فكان يتطلع فى قصره ، فلا يسمح الا ذاكرا لله ورسوله من نسائه وفتياته ، وربما لحقتهم دهشة عند رؤيته ، فكان يقول لهم ، ليذكر كل احد منكم معبوده ومن يدين به تسكيننا لهم .

« وما فتياته الذين هم عيون دولته واهل عمالته فى ملكه فهم مسلمون ، ما منهم الا من يصوم الا شهر تطوعا وتوجرا ، ويتصدق تقربا الى الله وتزلفا ، ويقتك الاسارى ويربى الاصاغر منهم ويزوجهم ، ويحسن اليهم . . . الفينا منهن بمسينة فتى اسمه « عبد المسيح » من وجوههم وكبرانهم ، بعد تقدمة رغبة

(١) هو غليوم الحسن ورجلة ابن جبير وقعت فى آخر سنة من ملكه .

مناليه في ذلك ، فاحتفل في كرامتنا وبرنا ، واخرج لنا من سره المكنون بعد مراقبة منه في مجلسه ، ازال لها من كان حوله ممن يتهمه من خدامه محافظة على نفسه ، فسألنا عن مكة قدسها الله ، وعن مشاهدنا المعظمة وعن مشاهد المدينة المقدسة ومشاهد الشام فآخبرنا وهو يذوب شوقا وتحرقا ٠٠٠ وقال لنا انتم مدلون باظهار الاسلام ، فانزول بما قصدتم له راجعون ان شاء الله ، ونحن كاثمون ايماننا خائفون على انفسنا متمسكون بعبادة الله واداء فرائضه سرا متعلقون في ملكة كافر بالله قد وضع في اعناقنا ربة الرق ٠٠٠

« ومن عجيب شأن هؤلاء الغتبان انهم يحضرون عند مولاهم فيحين وقت الصلاة فيخرجون افاذا من مجلسه فيقصون صلاتهم ٠٠٠ فلا يزالون باعمالهم ونياتهم وينصائحهم الباطنة للمسلمين في جهاد دائم » .
ويقول عن مدينة ثرمة :

« وسرنا في طريق كانتها السوق عمارة ، وكثرة صادر ووارد وطوائف النصارى يتلقوننا فيبادرون بالسلام علينا ويؤنسونا ، فراينا من سياستهم ولين مقصدهم مع المسلمين ما يوقع الفتنة في نفوس اهل الجبل ٠٠٠ فانتهينا الى « قصر سعد » وهو على قرسخ من المدينة وقد اخذ منا الاعياء فبتنا فيه ، وهذا القصر على ساحل البحر ، مشيد البناء عتيقه ، قديم الوضع من عهد ملكة المسلمين للجزيرة ، لم يزل ولا يزال بفضل الله مسكنا للعباد منهم ، وحوله قبور كثيرة للمسلمين ، اهل الزهادة والورع ، وهو موصوف بالفضل والبركة مقصود من كل مكان ، وبازائه عين تعرف بعين المجنونة ، وله باب وثيق من الحديد وداخله مساكن وعلاى مشرفة وبيوت منتظمة ، وهو كامل مرافق السكنى ، وفي اعلاه مسجد من احسن مساجد الدنيا بهاء ، مستطيل ذو حنايا مستطيلة مفروش بحصر نظيفة لم ير احسن منها صنعة ، وقد علق فيه نحو الاربعين قنديلا من انواع الصفر (النحاس) والزجاج ، وامامه شارع واسع ، يستدير باعلى القصر وفي اسفل القصر بئر عذبة ، فبتنا في هذا المسجد احسن مبيت واطيبه ، وسمعنا الاذان وكنا قد طال عهدنا بستماعة ، واكرمنا القوم الساكنون فيه ، ولهم امام يصلى بهم الفريضة والترابيح فى

هذا الشهر المبارك

ووصف حال مسلمي بالرمّة فقال :

وللمسلمين بهذه المدينة رسم باق من الايمان ، يعمرّون أكثر مساجدهم
ويقيمون الصلاة بأذان مسموع . ولهم ارباض قد افردوا فيها بسكناهم عن
النصارى والأسواق مغمورة بهم وهم التجار فيها ، ولا جمعة لهم بسبب الخطبة
المحضورّة عليهم ويصلّون الاعياد بخطبة ، ودعائهم فيها للعباسي ،
ولهم بها قاض يرتفعون اشيء في احكامهم ، وجامع يجتمعون فيه
للصلاة ، ويحتفلون في وقيد هذا الشهر المبارك ، واما المساجد فكثيرة لا
تحصى ، وأكثرها محاضر لمعلمي القرآن ...

ورؤى النصارى في هذه المدينة رؤى نساء المسلمين ، فضيحات الالسن ،
ملتصقات ، متنقبات ، خرجن في هذا العيد المذكور وقد لبسن ثياب الحرير
المذهب والتحفى اللحف الرائقة وانتقبن بالنقب الملونة والتعلن الاخفاف المذهبة
وبرزن لكنايسهن او كنسهن حاملات جميع زيتة نساء المسلمين من التحلى
والتخضب والتعطر ، فتذكرنا على جهة الدعاية الادبية قول الشاعر :

ان من يدخل الكنيسة يوما يلحق فيها جاذرا وطيبا

« ... » ويثنا في الطريق ليلة واحدة في بلدة تعرف بعلمية ، وهي كبيرة
متسعة فيها الاسواق والمساجد وسكانها وسكان الضياع التي في هذا الطريق
كلهم مسلمون »

ثم حل بمدينة اطرابنش فقال :

« وكان مضلانا في هذا العيد المبارك (عيد القطر) باخذ مساجد اطرابنش
المذكورة ، مع قوم من اهلها اعتنموا من الخروج الى المصلى لعذر لهم ، ...
وخرج اهل البلد الى مصلاهم ، مع صاحب احكامهم وانصرفوا بالطبول واليوقات
فنجبتنا من ذلك ومن اغضاء النصارى لهم عليه .

ابتداء امر الفتنة في الدين : مما يرويه ابن جبير . بعد ان اقام مدة الشتاء

فى مدينة اطرابش :

« تعرفنا ما يؤلم التقوس تعرفه من سوء حال اهل هذه الجزيرة مع عباد الصليب بها - دمرهم الله - وما هم عليه معهم من الذل والمسكنة والمقام تحت عهدة الذمة وغلظه الملك الى دواعى طواوى الفتنة فى الدين على من كتب الله عليه الشقاء من ابنائهم ونسائهم ، وربما تسبب الى بعض اشياخهم اسباب نكالية تدعوهم الى فراق دينهم . »

« فمنها قصة اتفقت فى هذه السنين الغربية لبعض فقهاء مدينتهم التى فى حضرة ملكهم الطاغية . ويعرف (الفقيه) بابن زدغة ، ضغطته بالمطالبة حتى اظهر فراق دين الاسلام ، والانغماس فى دين النصرانية ، ومهر فى حفظ الانجيل ومطالعة سير الروم ، وحفظ قوانين شريعتهم ، فعاد فى جملة القسيسين الذين يستفتون فى الاحكام النصرانية ، وربما طرأ حكم اسلامى ايضا فيه لما سبق من معرفته بالاحكام الشرعية ، ويقع الوقوف عند فتياه فى كلا الحكمين ، وكان له مسجد بازاء داره اعاده كنيسة نعوذ بالله من عواقب الشقاوة وخواتم الضلالة ومع ذلك فاعلمنا انه يكتم ايمانه . »

« ومن اعظم ما منى به اهل هذه الجزيرة ان الرجل ربما غضب على ابنته او على زوجة او تغضب المرأة على ابنتها فتلحق المفضوب عليه انفة تؤديه الى التطارح فى الكنيسة فيتنصر ويتعمد فلا يجد الاب على الابن ولا الام على البنت سبيلا ، فتخيل حال من منى بهذا فى اهله وولده ويقطع عمره متوقعا لوقوع هذه الفتنة فيهم ، فهم الدهر كله فى مداراة الاهل والولد خوف هذه الحال ، واهل النظر فى العواقب منهم يخافون ان يتفق على جميعهم ما اتفق على اهل جزيرة اقريطش من المسلمين فى المدة السالفة فانه لم تزل بهمس الملكة الطاغية من النصارى والاستدراج الشىء بعد الشىء حالا بعد حال ، حتى اضطروا الى التنصر عن آخرهم ، وفر منهم من قضى الله بنتاجاته . »

زعيم المسلمين ابن حمود : قال ابن جبير : « وصل هذه الايام الى هذه المدينة زعيم اهل هذه الجزيرة من المسلمين وسيدهم : القائد ابو القاسم ابن حمود المعروف بابن حجر ، وهذا الرجل من اهل بيت بهذه الجزيرة ، توارثوا السيادة

كابرا عن كابر ، وفرد لدينا مع ذلك انه من اهل العمل الصالح مريد للخير
محب لاهله كثير الصنائع الاخراوية ، من افتكاك الاسارى وبت الصدقات
فى الغرياء والمنقطعين من الحجاج ، الى مآثر جمة ومناقب كريمة ، فارتجست
هذه المدينة لوصوله .

وكان فى هذه المدة تحت هجران من الطاغية الزمه داره بمطالبة توجهت عليه
من اعدائه ، افتروا عليه فيها احاديث مزورة تسبوه فيها الى مخاطبة الموحدين
ايدهم الله ، كادت تقضى عليه لولا حارس المدة وثالت عليه مصادرات اغرمته
نيقا على الثلاثين الف دينار ، مؤمنية ، ولم يزل يتخلى عن جميع دياره واملاكه
المورثة عن سلفه حتى بقى بدون مال .

• فاتفق فى هذه الايام رضى الطاغية عنه وامره بالنفوذ لهم من اشغاله
السلطانية فنفذ لها نفوذ المملوك المغلوب على نفسه وماله وصدرت عنه عند
وصوله الى هذه ابلدة رغبة فى الاجتماع بنا فاجتمعنا به ، فظهر لنا من باطن
حاله وبواطن احوال هذه الجزيرة مع اعدائهم ما يبكى العيون دما ويذيب الما ،
فمن ذلك انه قال : كنت اود لو اباع انا واهل بيتى فلعل البيع كان يخلصنا
مما نحن فيه ، ويؤدى بنا الى الحصول فى بلاد المسلمين ومن عظم هذا الرجل
المحمود المذكور فى نفوس النصارى انهم يزعمون انه لو تنصر لما بقى فى
الجزيرة مسلم الا وفعل فعله ، اقتداء به .

حادث له مفزاه الاليم - وآخر ما نرويه عن ابن جبير ، هذه الحادثة
الغريبة التى تملؤ النفوس لسوعة واسى وتدل دلالة قوية على ان مقام
المسلمين بصقلية رغم مظاهر التسامح الدينى الاخيرة ، كان مقاما قد قصر امده
وانتهت مدته :

• ومن اعجب ما شاهدناه من احوالهم التى تقطع النفوس اشفاقا وتذيب
القلوب رافة وحنانا ، ان احد اعيان هذه البلدة وجه ابنه الى احد اصحابنا
المحجاج راغبا فى ان يقبل منه بنتا بكرا صغيرة السن قد راهقت الادراك ، فاز
رضيها تزوجها وان لم يرضها زوجها ممن رضى لها من اهل بلده ويخرجها مع

نفسه راضية بفراق ابيها واخوتها ، طمعا في التخلص من هذه الفتنة ، ورغبة في الحصول في بلاد المسلمين ، فطاب الاين والاخوة نقسا بذلك لعلهم يجدون السبيل للتخلص الى بلاد المسلمين ، بانفسهم اذا زالت هذه الحلقة المقيدة عنهم .
« فتأجر هذا الرجل المرغوب اليه بقبول ذلك واعناه على استغنام هذه الفرصة المؤدية الى خير الدنيا والآخرة ؛ وطال عجبنا من حال تؤدى بانسان الى الستماح بمثل هذه الودعة المعلقة من القلب ، واسلامها الى يد من يغربها واحتمال الصبر عنها ومكابدة الشوق اليها والوحشة دونها ، كما استغربنا حال الصبية صانها الله ، ورضاها بفراق اهلها رغبة في الاسلام ؛ واستمساكا بعروته الوثقى » .

فريدريك الثاني امبراطور المانيا وملك صقلية

كان الامر قد استتب للالمانيين بصقلية وربوع ايطاليا ؛ واحتضنت البابوية تلك الامبراطورية الجرمانية وشملتها بالرعاية مستفيدة من قوتها المادية لبسط سلطانها الروحي ؛ كما استفاد الالمانيون من ذلك النفوذ الروحي لتقوية سلطانهم المادى . ولقد ظهرت آثار ذلك التعاون جلية اثناء الحروب الصليبية التى كانت متقدة الاوار بالبلاد الشامية ، وكانت البابوية تذكى الحمية فى نفوس الملوك والاباطرة والامراء باروبا وتبعت منهم الفوج اثر الفوج للجهاد فى سبيل الصليب .

فى تلك الاثناء ، فى مفتح القرن الثالث عشر المسيحى ، تالق فى النسماء الاروبية نجم جديد هو نجم الامبراطور الشاب فريدريك الثاني ، الذى ترعرع تحت رعاية البابا انوسانت الثالث ، الذى كان يطمع فى ادارة الدنيا واخضاعها لسلطانه ، فلما مات ذلك البابا سنة ١٢١٦ ، عندما كان يتفقد التجهيزات النية للحملة الصليبية استقل فريدريك بامور نفسه متخلصا من كل نفوذ . نشأ فريدريك نشأة صقلية عربية ، اذ كانت امه كنيسة صقلية النشأة

والمسكن ، فترى هنالك في وسط راق ، رقيق الحاشية جمع الى مدينة المسلمين وحضارتهم رقة الآداب الاغريقية وعلومهم ؛ فلما استقل بامور الملك حين ترشد اتخذ من بالرمة مقرا لسلطانه ، وسار على غرار ملوك النرمان السالفين ومن سبقهم من ملوك وامراء المسلمين .

اقرار المسلمين بالجنتوب الايطالي - انتهى عهد ملوك النرمان بصقلية بعد سلطان دام مائة عام ، وانتهى معه كما اسلفنا عهد راحة المسلمين وحريتهم . وابتدأت اعمال الاضطهاد والتكيل تحت تأثير الكنيسة ، وتحت مفعول الحرب الصليبية ، تظهر نتائجها فجمع المسمون امرهم عندما تولى البابا انوسانت الثالث الوصاية على فريديريك الصبي ، وخلصوا طاعة الجرمانيين ، واعدوا الثورة تكن الجنود المسيحية غلبتهم على امرهم سنة ١٢٠٠ فسكنوا حينئذ ثم عادوا للعيان والثورة فرارا من الفتنة في الدين فكان على الامبراطور فريديريك اخضاعهم فيما بين سنتين ١٢٢١ و ١٢٢٥ ، فكانت ثوراتهم اشبه شييء بثورات بقايا مسلمي اسبانيا « الموريسك » الذين تظاهروا بالتنصر واخفوا الايمان ، خلال كامل القرن السادس عشر (١) .

لكنه فكر في وسيلة تمكنه في آن واحد من التخلص من اولئك الرجال الاشداء في صقلية ، واستعمال قوة سواعدهم وصلابة سيوفهم لتمكين سلطانه وقهر اعدائه بالبلاد الطليانية ، لانهم يحاربون غير متأثرين بالفكرة المسيحية ، وهكذا اخذ ينقل للبلاد الطليانية جموعا كثيرة من المسلمين اسكنهم اول الامر مدينة نصيرة ، ثم نصيرة (انظر الخريطة) وقد بلغ عدد المسلمين والمسلمات هنالك (٦٠) الف نسمة منهم الثلث من رجال السيف والظعان ولقد احدث هذا العمل رجة في العالم المسيحي وكان من جملة الاسباب التي حملت البابا على اعلان (كفر) فريديريك لانه استعمل المسلمين لقتال المسيحيين بينما الكنيسة تعمل على جمع كلمة المسيحيين لقتال المسلمين شرقا وغربا .

لقد سار فريديريك اول مرة لبلاد فلسطين مشاركا في الحرب الصليبية استرضاء للمسيحيين ؛ لكن البابا اغتتم فرصة ابتعاد الملك الامبراطور لايقاد

نيران الفتى في بلاده ودفع امراء الطليان لرفع لواء العصيان فكان جنود
فريدريك الصقليون ومسلموا نصيرة يتكلمون بالثأرين ويخضعونهم .

تأسيس المملكة - رجع فريدريك من فلسطين واعلن سنة ١٢٢١ تأسيس
مملكة صقلية وقد كان متشعبا بالنظم الشرقية الاسلامية ؛ وكانه ذهب لبلاد
الشرق الادنى ليدرس النظم الاجتماعية والادارية لا ليحارب المسلمين ؛
فرتب يومئذ امور الدولة تريبا اجمع المؤرخون على انه كان حجة الاساس في
تكوين الدول الحديثة ، واسس الدواوين المختصة ، وفصل بين السلط القضائية
والمالية والتشريعية التي كانت من خصائص الملك وحده فيما سلف . وقضى
على سلطة الكهنوت بصفة جعلت البابا غريغوريوس التاسع يعلن ان الملحد
فريدريك « محارب للكنيسة متلف للحريات العامة » والحريات العامة في نظر
البابا هي حرية رجال الدين خاصة .

السلطان - في القصر الملكي ببازمة (انظر رسمه في القسم المصور)
اعاد الملك رونق وبهاء بلاط ملوك الترمان والمسلمين ؛ وجمع حوله في تناسق
غريب جملة من جلة علماء المسلمين والاغريق واللاتينيين ؛ ولقد كان الملك
يحسن التكلم باللسن العربية والامانية والطيانية والاغريقية والفرنسية ؛
وكان متبحرا في علم الحيوان والنبات وقد اخذ معه من بلاد الشرق طائفة من
غريب الحيوان شكل منها « متحفا » كان يتقله معه اثناء حروبه بايطاليا .

واذ كانت العلوم قد تضاءلت في صقلية وجنوب ايطاليا ، فان الملك
فريدريك اسس جامعة « نابولي » التي كانت اولى الجامعات الحديثة من نوعها
وقد جاء في مرسوم تأسيسها : « ان جميع معلومات الانسان يجب ان تدرس
بنابولي ، لكي يجد كل جائع للعلم الغذاء الذي تميل نفسه اليه حتى لا يكون
مضطرا للهجرة في سبيل المعرفة واستعطاف الاجانب من اجل العلم » .
وبنا ان « جامعة سالرنة » الطبية كانت ذات شهرة واسعة تدرس على

(١) انظر كتابنا « تاريخ الحروب الجزائرية الاسبانية ١٤٩٢ - ١٧٩٣ »

الطريقة التي اختطها العلامة التونسي العقلي (قسطنطين) (١) أعلن الملك فريدريك انه لا يجوز لآسان ان يباشر مهنة التطبيب ما لم يكن متحصلا على اجادة تلك الجامعة .

الإفكار الدينية - كان الامبراطور الملك على صلة متواصلة مع العلماء المسلمين شرقا وغربا ؛ وكان يستدعي لبلاطه علماء الاندلس وافريقيا ، ويجادلهم في علوم الكلام ومسألة الارواح وخلود النفس ما الى ذلك مما هو مرسوم بكتاب يدعى « المسائل الصقلية » (٢) كتبت نسخته الاصلية باللغة العربية ؛ وكان حافظا لفلسفة ابن رشد ناشر لها ومدافعا عنها .

ولقد كانت الحياة تلذ له في مدينة نصيرة بين الجماعة الاسلامية التي استعمر بها تلك الناحية ، وهناك كان له قصر شرقي وخدم وحواشي وجواري حسان وهناك كان يحيا حياة سلطان من سلاطين المسلمين .

ولم تكن فكرته الدينية مستقيمة على البوتر المسيحي ، فلقد كتب البابا غريغوريوس التاسع منشورا لرجال الكنيسة يعلن فيها كفر الملك ويقول « نستطيع ان نشبه ان هذا الملك الفاجر يصرح علنا بان العالم قد غلظه ثلاثة من الادياء هم : موسى وعيسى ومحمد (صلوات الله عليهم) وانه بينما قد مات موسى ومحمد في عتقوان المجد والشرف ، مات عيسى مائة حقيرة وهو معلق على صليب خشبي ؛ ثم يقول ان العقل البشري لا يتصور ان امرأة عذراء تلد الاها . ويجاهر امام الناس انه لا يمكن لآسان ان يعتقد الا ما يقبله العقل ويقوم الدليل على صحته وتشهد الوقائع على ثبوته » .

ولقد كان فريدريك شديد النعرة على الرهبان ، وشديد القسوة على رجال

(١) انظر ترجمته وآثاره فيما بعد .

(٢) هي جزاء الصوفي الاندلسي عبد الحق ابن تميم ، احد اقطاب فلسفة « وحدة الوجود » (Le Pantheisme) عن اسئلة الامبراطور افرديريك حول : قول ارسطو يقدم العالم - والمعلم - الاله - والمقولات العشر - وبقاء النفس البشرية بعد الموت - ومن اشهر كتبه « كتاب الالواح » وفيه بيان كامل لفلسفة وحدة الوجود .

الكنيسة ، ويقول ان عيسى كان فقيرا يحب الفقراء ، فما للرهبان ورجال الكهنوت يجمعون الثروات الطائلة ويعيشون في الترف والنعيم ؟

ولقد كتب مرة رسالة لامبراطور الروم فاتاتزيس Vataizes يقول فيها :
« يا لسعادة آسيا ؛ يا لسعادة بلاد الشرق ، هنالك لا يخشى الملوك ثوزة شعوبهم ، ولا دسائس رجال الدين حواليتهم » .

في الحرب الصليبية - كان البابا يستشير العامة ، ورجال الدين ، واوروبا كلها ، ضد فريديريك ، فاضطر هذا للعودة تخفيفا لتلك الغائلة ، للميدان الشرقي والحرب الصليبية ؛ فارسل الحملة تحت قيادة احد رجاله ، وكانت نتيجةها ان استولى المسلمون على دمياط (سنة ١٢٢٦) فاشتدت نفقة المسيحيين على الملك ، واضطر للسفر بنفسه سنة ١٢٢٨ ، لكنه لم يعمل هنالك اعمال صليبية محارب ، بل اخذ يختلط برجال المسلمين وكبرائهم ، ويربط صلات الود والادب والعلم معهم . فكانت الوقائع الحربية فائرة من الجهتين ، انتهت بمقعدة معاهدة مع سلطان مصر الملك الكامل الايوبي ، نال بها المسيحيون صلحا بيت المقدس وبيت لحم والناصر ، فلم تشبع تلك الحملة نهم الباباوية ورجال التعصب ، وصيّر الحكم « بكفر » الامبراطور الملك فريديريك .

لكن الامبراطور رأى انه لا تمكن له مقاومة الكنيسة بصفة علنية ، وانه لا يستطيع الحكم ورجال الدين على الاطلاق وشعبه ضده ، فاحد يعمل لبيل رضا البابا ، حتى نال الغفران ، ووقع نشر البلاغين التاليين : الدبلوماسيين :
يقول البابا في منشورة « لقد جاءني الامبراطور وبين جنبيه نفس مؤمنة مطمئنة ، ورايت انه على استعداد ليقوم بأي عمل في سبيل منشأتنا وتحقيق غاياتنا » .

ويقول الامبراطور في منشوره : « لقد خاطبني البابا بقلب مفتوح ، وهذا نائزة نفسي ، فلا اريد ان اتذكر شيئا من الماضي » .

هنالك ثارت ثورة التعصب الكنيسى ؛ واسترجع رجال الكهنوت نفوذهم وسلطانهم ، وقاموا برد الفعل فاختدوا يمعنون في تتبع « الكفار » والتكيل بهم ، واحرقاهم ، ونال المسلمون من ذلك جانبا عظيما .

اخراج آخر المسلمين من صقلية - اصبح المسلمون يغادرون الجزيرة جماعات وافرادا ، كلما وجدوا للخروج سبيلا ، فلم يبق منهم هنالك الا الاقل يعيشون في ذل ومسكنة .

لما تفاقم امر ذلك ، وكانت دولة الموحدين العلية قد ثركت في بلاد تونس وشرق الجزائر ، ثمرتها الطيبة ، دولة بنى حفص ، عقد السلطان ابو زكريا بن ابي محمد عهدا مع الامبراطور ، يضمن للمسلمين في بالرمة وضواحيها حرية دينهم وذواتهم واملاكهم ، وان يكونوا شركاء المنصاري في البلاد والضاحية ؛ وبقي المسلمون آخر ايامهم هنالك متمتعين بتلك العناية الحفصية الغالية ؛

عندما لبى ابو زكريا داعي زيه في الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٦٤٧ (١٢٤٩ م) وبلغ نصارى صقلية موت السلطان المسلم العظيم ؛ يادروا بتقضى ذلك العهد ، ولجؤوا في طغيانهم ضد المسلمين وتكالبوا عليهم ، فليجأت بقايا المسلمين هنالك للحصون والاعار ؛ ونصبوا عليهم زعيما عربيا من بنى عيس ؛ فصمد اليهم النصارى وحاصروهم وضيقنوا عليهم حتى استسلموا ، فاركبهم الملك البحر (١) واجتاز بهم الى الارض الافريقية . وعرج النصارى كذلك على جزيرة مالطة ، فاحرجوا منها في تلك السنة سائر من كان قد بقى بها من المسلمين ؛ واحلوههم البلاد الافريقية كذلك ؛ وانقطعت يومئذ آخر كلمة للإسلام بهاتيك الديار ، والملك لله الواحد القهار (٢) .

موت الملك واستشهاد مسلمي نصيرة - سلك الملك منذ تلك الساعة سياسة اوروبية مسيحية بحتة . وتمكن بواسطة البابا من تدعيم سلطانه وبث نفوذه واخضاع الامراء لسلطته . الى ان حانت ساعة وفاته وقد كان يحن

لشرقيته القديمة وتلك له السكنى فى قصره بين مسلى نصيرة وهناك مات
ودفن وله ضريح ضخم ، نقشت عليه كتابات عربية بديعة .

فلما قولى الملك شارل دأنجو الفرنسى ، عمد الى التخلص من جموع
المسلمين فى نصيرة فاركب الكثير منهم الى افريقيا سنة ١٢٩٢ بعد ان اقاموا
هنالك وازدهر استعمارهم ٦٧ سنة . ولقد بقيت منهم بقية من المستضعفين
بتلك البلاد ، راي الملك شارل التخلص منهم دفعة واحدة فاطلق عليهم وحوش
جنده سنة ١٣٠٠ (٧٠٠ هـ) فقتلوههم ومحرقوا رتبهم من الوجود ، ووزع ارضهم
واملاكهم ومنتاعهم على المائلات الطليانية وهكذا انتهى امر الاسلام بايطاليا بعد
ما انتهى من صقلية .

(١) لاحظ ما فى اركابهم البحر وعدم الفتك بهم بعد تلك الثورة من عسافة السانية غريبة
الرفوع فى تلك العصور المظلمة .

(٢) ليكون المسلمون قد بقوا بصقلية ، ساكنين ومحكومين ، مدة ٢٢٣ سنة (٨٢٧ - ١٠٥٠)

القسم الثامن

التمدن والعمران

شهد المؤرخون كافة ان ايام المسلمين بصقلية سواء حاكمين او محكومين ، كانت ازهر ايام الجزيرة واكثرها امنا واوسعها عمرا .

ولا نستطيع منها اوتينا من مقدرة وبيان ، ان تلخص مدنية المسلمين في الجزيرة الصقلية ونجمل وصفها بمثل ما حصها واجمل وصفها اجمالا بديعا المؤرخ الاكبر النزيه قوسطاف لوبون ، في كتابه مدنيات العرب : فلا نرى اوفق من تعريب الفصل برمته ، اذ هو الصورة الصادقة لمدينة المسلمين هنالك ، صورة لم تكد تترك شاردة ولا واردة الا احصتها وسجلتها : يقول قوسطاف لوبون :

« ان ما لدينا من المصادر ، لاهياء معالم المدنية العربية بصقلية نادر قليل ، بل ان المعلومات الوحيدة التي لدينا تنحصر في روايات المؤرخين المختلفة ، وفي عدد قليل من الآثار التي سلمت من ايدي الحراب والتخطيم ، وفي بعض النقود .

« ذلك المقدار الزهيد الذي بين ايدينا اليوم يكفيننا على كل حال لاقامة البرهان على ان مدنية العرب في جزيرة صقلية كانت دون مدنياتهم في اسبانيا وفي مصر : انما هي كانت رغم ذلك موجودة وطيدة الاركاب ، بحيث ان المستوى الفكري والصناعي والاجتماعي في صقلية كان ارفع عند خروج المسلمين من صقلية من المستوى الذي كانت عليه عندما دخلوها .

« لا يستطيع انسان ان يدرك مدى التأثير التمدني لشعب على آخر الا بمدى ما احدثه فيه من اثر اصلاحى . فاذا نحن جربنا على هذه القاعدة ، راينا ان النفوذ الصالح للعرب في جزيرة صقلية كان جسيما .

« النظام الإداري (١) » - عندما اتسم المسلمون فتح الجزيرة ابتداءوا فيها عصر التنظيم والترتيب ، ولقد كانت الجزيرة مقسمة منذ عهد الفينيقيين الى ولايتين : سرقوسة وبالرمة فالعرب قسموها الى ثلاث ولايات (٢) تقسيما مناسبا للوضعية الجغرافية .

ولقد كان لكل وال من الولاة في هذه الاقاليم الثلاثة تحت امرته طائفة من القواد يحكمون النواحي .

« القضاء - كان المفتي وهو قاضى القضاة ينتصب في مدينة بالرمة . وفي كل مدينة من المدن كان يوجد قاض وكاتب .

« الجباية والديوان - في كل مدينة كان يوجد مستخلص الضرائب والعشور وهناك (بالرمة) مجلس اكبر يدعى الديوان (٣) : من خصائصه ضبط اموال الدولة وفحص الحسابات العامة .

« الحرية الدينية والمدنية - كان المسيحيون الصقليون يتمتعون في كل ما ليس له اساس بالمصالح العام ، بقوانينهم الدينية والمدنية ، ولهم كذلك حق الحكم فيما بينهم .

« فالقضاة من الاغريق الذين كان يطلق عليهم اسم « ستراطيغ » او الحكماء قد احتفظوا مدة الفتح الاسلامي بوظائفهم وبامتيازاتهم وحتى باسمهم التقليدى القديم ، فكانوا يحكمون في كل خلاف شجر بين انصارى . وكانوا هم الفن يتولون جمع الجزية التي فرضها العرب على رعاياهم النصارى ، وكان مقدارها : ٤٨ دينارا في السنة على كل رجل غنى و ٢٤ دينارا على متوسط الحال ؛ و ١٢ دينارا على العامل الذي يكسب قوته بعمل يديه . فكانت هذه الضريبة ، اقل مما كان يدفعه النصارى تحت حكومة الروم . اما النساء والاطفال فكانوا لا يدفعون اذنى اتاوة .

(١) العناوين الضخمة اقتطاعا على الاصل لزيادة البيان (٢) هي : سرقوسة ونوطس وبالرمة (٣) اخذ الترمذى نظام الديوان واسم «Dohane» ومنها اخذ الاروبيون كلمة الديوان «Douanes»

« ولقد كانت كل القوانين المدنية المتعلقة بالاملاك والموارث ونحو ذلك منطبقة غاية الانطباق على عادات البلاد واخلاقها ، الى درجة ان النorman عندما استولوا على البلاد ، ابقوا العمل جاريا بهاتيك القوانين ولم يمسوا منها شيئا . »

« التسامح الدينى » - لقد احتفظ المسيحيون ايام سلطان المسلمين بقوانينهم وعاداتهم وحرية معتقدتهم ، ولقد قال الراهب الدومينكى كوردان من كنيسة القديسة كاترينة بالرمبة ، ان الرهبان كانوا يخرجون مرتدين ثيابهم التقليدية الدينية ، ويذهبون كذلك يحملون الى المرضى طقوس الدين .

« اما الراهب مور كسولى ، فيقص علينا قصة الحفلات الدينية فى مدينة مسينا ، حيث كان المسيحيون فى اعيادهم يحملون علمين : علما اخضر اللون وفى وسطه سرج اسود ، وهو علم المسلمين ؛ وعلما احمر فى وسطه صليب ذهبي هو علم النصارى . »

« ولقد ابقى المسلمون فى صقلية جميع كنائس النصارى ولم يمدوا لها ايديهم بسوء لكنهم لم يسمحوا لهم باقامة كنائس جديدة ، وذلك خلافا لما كان واقعيا فى اسبانيا . »

« الزراعة » - ما كاد العرب يسيطرون سلطانهم على جزيرة صقلية حتى اندفعوا فى ميدان الزراعة (١) والصناعة ، فانتشلوهم من وهدة السقوط العظيم الذى وقعتا من قبل فيه .

« لقد ادخلوا الى الجزيرة غرابية القطن ؛ وقصب السكر وشجيرة المن Frêne والزيتون (والفستق والبرتقال والليمون (٢) ؛ واحدثوا فى سبيل خدمة الارضى قنوات الري التى لا تزال موجودة ، واستعملوا على الاخض مجارى المياه بركب الماسورة Agueduc à Siphon وكان ذلك مجهولا قبلهم (٣) . »

(١) يقول الرحالة ابن حوقل : ان حقول القمح والشعير كانت تبسط على اكثر اقسام الجزيرة وشاحا من الذهب الابيض .

(٢) قال مسيو جيهار فى كتابه « اصول النهضة فى ايطاليا » ما قضه :

الصناعة - اما الصناعة فهي مدينة لهم كذلك برقيها العظيم ؛ فقد استغلوا احسن استغلال ثروات البلاد الطبيعية ، من فضة وحديد ونحاس وكبريت ورخام وحجر صلب الخ ؛ وادخلوا الى الجزيرة صناعة الحرير ، ففي متحف نورمبرغ بالمانيا يوجد معطف من الحرير ، كان يرتديه ملوك صقلية ، محاط بنسيج من الكتانة الكوفية يحمل تاريخ ٥٢٠ هجرية (٢) (١١٢٦ م) وكل شيء يحملنا على الاعتقاد ، بان فن صباغة الثياب قد انتقل من صقلية الى اوروبا .

التجارة - اما التجارة فقد كانت قبلهم ليست بذات قيمة فاصبحت بفضلهم واسعة النطاق ، وقد بنا على ذلك دليل ، ما كانت تتقاضاه (الدوانة) من مكوس على الصادرات والواردات في عهدهم ، وهناك لائحة طويلة الذيل ضمن اجازات تجارية فرمانية من اوائل عهد الاحتلال ، تثبت لنا مقدار ما بلغته التجارة من اتساع وتنوع ، عندما استولى الترماني على الجزيرة (١)

الآثار - لم يبق الآن في صقلية من آثار المسلمين الا التمر اليسير ، واهم ذلك قصر العزيز (لازيسا) وقصر القبة ، جوار بالرمة ؛ وهذه البقية الباقية تثبت لنا ان الرواة الذين وصفوا لنا ابهة وفخامة قصور المسلمين هنالك لم يرتكبوا اي غلو او شطط .

فالراهب تيودور ، والجغرافي الادريسي على الاخص ، قد وصفوا لنا وصفا بديعا معجبا تلك القصور المحلاة بالرخام النادر ؛ والقسيساء الناصعة الالوان تحيط بكل ذلك الحدائق الغناء . والراهب تيودور وقد اسر سنة ٨٧٨ في

« ان جزيرة صقلية ، اميد وقبل المنيعة ، قد اصبحت تحت ايدي المسلمين بما فيها من ثمان عشرة من المدن ، وثلاثمائة وعشرين من القلاع المحصنة ، وما انتشر فيها من مغادر الذهب والفضة والصلر ومناجم الكبريت ، وما انتشر فوق اديمها من حقول الحبوب ومزارع القطن وقصب السكر وحدائق التاريخ والتغليل ، وبما كان يفرهما من زهور ذات النوان زاهية الناضجة ، ومن جزائير الجبول الجيدة ، ومن مضايق الاقنشة والسندس ؛ وبما كان فيها من قصور ومساجد ؛ اصبحت بكل ذلك تبدو كأنها جنة من رياض الشوق اليانة » .

(١) لا تزال بالجزيرة الى يومنا هذا آثار من قنوت السرى والترع التي انشأها المسلمون كما لا تزال القرية الصقلية تحمل الطابع الاسلامي الى الآن .
(٢) انظر سنة في القسم الصور .

حصار سرقوسة وسير به الى بالرمة ؛ يحكى باعجاب عما شاهده من قصور
ومساجد وحارات حوالى هذه المدينة ، ١٠ ١٥٠ .

كيف ترك المسلمون الجزيرة ؟

ترك لنا الجغرافى الاكبر محمد بن محمد بن عبد الله الادريسي كتابه الجليل
القيمة العالى المقدار (نزهة المشتاق فى اختراق الافاق) الفه للملك النرمانى
الشهير رجار الثانى . ويطلب منه ؛ ووضع له اول خريطة (٢) جغرافية علمية
عرفت فى الدنيا ، تعتبر آية فى الدقة بالنسبة لذلك الزمن (انظر فى القسم
المصور قطعة منها) .

فلننقل عن الادريسي بعض ما وصف به مدن صقلية فى عهده اى آخر عهد
الحكم الاسلامى واول عهد الحكم النرمانى ؛ بعد أن اقبل المسلمون تحت سلطة ملوك
النصارى على اصلاح ما افسدته الحروب وما خربته حوادث الاحتلال ؛ فاستمع
اليه يحكى لنا عن بالرمة .

بالرمة « Palerme »

« وساحلها بهيج مشرق فرج ولها حسن المباني التى سارت الركبان بنشر
محاسنها فى بنااتها ودقائق صناعاتها وبدائع مخترعاتها وهى على قسمين :
قصر وريض فالقصر هو القصر القديم المشهور فخره فى كل بلد واقليم وهو
فى ذاته على ثلاثة اسطحة ؛ فالسماط الاوسط يشتمل على قصور منيفة ، ومنازل
شامخة شريفة وكثير من المساجد والفنادق والحمامات وحوانيت التجار الكبار
والسبطان الباقيان فيها ايضا قصور سامية ومبان فاخرة عالية وبها من

(١) يقول مسيو نوبل دى فريجى فى كتابه « العالم » ان حجارة صقلية بلغت ايام المسلمين
مبليا هائلا لم تدركه ابدا من قبل ولا من بعد .
(٢) يدعون ان انكليزيا كان اول من وضع رسميا جغرافيا للعالم لكن ذلك الرسم على فرض
صحته يعتبر لعب عبيان اذا قيس بخريطة الادريسي المدققة .

الفنادق والحمامات كثير وبه (القصر القديم) الجامع الاعظم الذى كان بيعة فى الزمن الاقدم واعيد فى هذه المرة على حالته فى سالف الزمان . . .

فاما الربض فمدينة اخرى تحدد بالمدينة من جميع جهاتها وبه المدينة القديمة المسماة بالحائصة ، التى كان بها سكنى السلطان والخاصة فى ايسام المسلمين وباب البحر ودار الصناعة التى هى للانشاء والمياه بجميع جهات مدينة بالرم مختربة وعمونها جارية متدفقة وفسواكها كثيرة ومبانيها ومنزهااتها حسنة تعجز الوافقين وتبهر عقول العارفين وهى بالجملة قننة للناظرين والقصر المذكور من اكثر القصور منعة واعلاها رفعة لا ينال بقتال ولا بطاق على حال . . والربض المحدد بالقصر القديم المتقدم ذكره هو فى ذاته كبير القطر كثير الفنادق والديار والحمامات والحوانيت والاسواق وله سور يحيط به وخندق وفصل وله فى داخله بساتين كثيرة ومنزهاات عجيبة وسقايات ماء عذبة جارية مجلوبة اليها من الجبال المحدقة ببقعتها (١)

مسينا Messine

« ساحلها بهج وارضها طيبة المنايت وبها جنات وبساتين ذات ثمار كثيرة ولها انهار غزيرة عليها ارجاء كثيرة وهى من اجل البلاد واكثرها عمارة والسفر منها اليها قصدا وهى دار الانشاء وبها الخط والاقلاع وبها الارساء من جميع بلاد الروم الساحلية وبها تجتمع السفن الكبار والمسافرون والتجار من بلاد الروم والاسلام القاصدون اليها من جميع الاقطار : واسواقها رائقة وتجارتيها نافقة وقاصدها كثير وفى جبلها معدن الحديد الذى يتجهز به منه الى البلاد المجاورة لها ومرساها العجب العجيب الذى يتحدث به فى كل البلاد وذلك ان اكبر ما يكون من السفن العظام يرسى بها من الشاطئ بحيث يتناول ما فيها من البزر بالايدي .

(١) يقول ابن حوقل ان مدينة بالرمة كانت تشمل خمس خارات :

طبرمين Taormina

« حصن منيع وبلد شامخ رفيع من عيون الحصون الازلية واشراف البلاد الدولية وهو على جبل مطل على البحر وله مرسى حسن والسفر اليه من كل الجهات ويحمل منه كثير من الغلات وبه منازل واسواق وهو مجتمع القوافل والرفاق الواصلة الى مسينا وبه ضياع صالحة ومزارع طيبة زاكية وبه الجبل المشهور المسمى بالطور الموصوف بالآيات المعروف بالعبادات وبه انهار غزيرة عليها ارحاء كثيرة وبها جذات قلائل ولها واد عليه قنطرة عجيبة وبنائها يدل على قدرة يانيتها .

قطانية Catania

« وفي البلد الجميل المعروف ببلد الفيل الشامخة القدر العالية الذكر ، وهي على ساحل البحر وبها الاسواق العامرة والديار الزاهرة والمساجد والجوامع والحمامات والحانات ، وبها مرسى حسن : ويسافر اليها من جميع الآفاق ويحمل منها كل البضائع والاسواق وجناتها كثيرة ومياهها من انهارها وعيونها غزيرة ، وبها نهر في امرة عجب عجيب وشأن مستطرف غريب ؛ وذلك انه في بعض السنين فيفيض فيضاً كثيراً فتتصب عليه الارحاء وتنتلى منه الاودية وفي بعضها ينضب فلا يوجد فيه ماء يشرب ؛ وعمارتها واسعة وباديتها ومزارعها طيبة نافعة واسوارها منيعة ، واقطارها واسعة ؛ والفيل الذي اشتهرت به هو طلسم من حجر على صورة فيل ، كان منصوباً على بناء شاهق في سالف الازمان ، ثم

(١) « القصر وفيه المدينة القديمة وحى التجار والمسجد الاعظم .

(٢) « الخالصة وهي مقر الامير والحاشية والدواوين ودار الصناعة .

وليست بها حركة تجارة وصناعة وفيها الكثير من المساجد والمدارس

(٣) « حى الصقالية وفيه المرسى والحركة التجارية . وكان يسكنه الكثير من الصقالية (مر

تاجية اسلوناكيس)

(٤) « حى ابن سلقب والحق الجديد وفيهما عامة الناس »

ثم انه لا تزال الى يومنا هذا بالمدينة خارة تدعى « اتاريني » كانت تنوق العطارين فيها ثم

وكان سكان المدينة ايام المسلمين زهاء الثلاثماية وخمسين الفا وبها ٥٠٠ مسجد .

نقل الآن فنصب داخل المدينة بكنيسة الرهبان .

لنتيني Lentini

« قلعة حصينة متحطرة الاسواق كالمدينة ، وهي من البحر على ستة اميال ، وموضعها على ضفة النهر المنسوب اليها وتبعد فيه المراكب باوساقها حتى تحط بين يديها من شرقيها ، وبغربيها ارض واسعة جدا فسيحة الارعاء ممتدة الغطاء ولها بوادها انواع من السمك الجليل المعلوم المثال ما يحمل منه الى جميع جهاتها . »

سرقوسة Syracuse

« من مشاهير المدن واعيان البلاد ، تشهد لها المطى من كل حاض وباد ويقصد اليها قصاد التجار من جميع الاقطار ، وهي على ساحل البحر ، وهو محاذق بها دائر بجميع جهاتها والدخول اليها والخروج منها على باب واحد وهو بشمالها ، وشهرتها تغنى عن الكثير من وصفها اذ هي منير مشهور ومعقل مذكور ، وبها مرسيان ليس مثلها في جميع البلدان احدهما اكبر من الآخر وهو بجنوبها والآخر اشهر وهو بشمالها وبها فؤارة النبوى تنبع من جرف على حاشية البحر وهي عجينة الامر . »

« وبها ما باكب المدن من الاسواق ذوات السباطات والحانات والديار والحمامات والمباني الرائقة والاقنية الواسعة : (لاحظ انه لم يذكر بها مساجد) ولها اقليم كبير طائل وضياع ومنازل وهو خصيب المواضع زكى المزارع وتوسق منه السفن بالطعام وغيره من سائر الاوساق الى سائر البلاد والآفاق . »

نوتس Noto

« من ارفع القلاع حصنا واشرف المدن حسنا قطرها واسع المساحة شريف المنافع والرجاحة وبه اسواق جميلة ائتريب وديار متقنة التركيب

انهارها جازية بمياه غزيرة وعليها ارجاء كثيرة ولها عمل واسع المجال واقلية شريف الحال مزارعها ازكى المزارع ومواقعها اخصب المواضع وهي ازلية العمارة قديمة الآثار .

رغوص Ragusa

« وهي قلعة منيعة وبلدة شريفة قديمة العمران ازلية المكان محدقة بها الاودية والانهار كثيرة الارحاء والمطاحن حسنة الابنية واسعة الاقنية ولها بادية خصيبة ومزارع زكية رحيبة وبينها وبين البحر سبعة اميال ونهرها المنسوب اليها يجرى منها بجهتها الشرقية وبهذا الوادي عند مصبه في البحر مرسى حسن والمراكب تدخله وبه توسق وتفرغ ولها اسواق يتصرف اليها من جميع النواحي والافاق .

بشيرة Butera

احسن البلاد بادية وحاضرة . واشبه شيء بالمدن الكبيرة العمارة حسنة البنيان مشيدة الاركان . ديارها رائقة عجيبة واسواقها مرتبة رحيبة وبها مساجد للجماعات ويدور بها واد من اعظم الاودية محدقة به الجنات من جميع الجهات ؛ ولها فواكه طيبة وخيرات كثيرة معجبة .

جيرجنت Girgenti

مدينة متحضرة من اشرف الخواضر عامرة بالبوارد والصادر ؛ وقلعتها حصينة سامية ومدينتها زاوية قديمة العمران مشهورة في جميع البلدان ؛ بل هي من اعظم الحصور منعة واجل البلاد رفعة يسعى اليها من سائر الافاق وتجتمع بها السفن والرفاق ديارها سامية في الديار ومحلاتها تفتن الانظار وبها اسواق جامعة لاصناف الصنائع وضروب المتاجر والمبايع واصناف كثيرة من الثمرات ؛ ازلية اولية تدل آثارها على سلطنة عليا ، ويحمل على كل ما وصل اليها من عظام السفن ما يتجاوز اوساقها في الايام القلائل لاتساع ما بها من

مواد الطوائل وبها جنت وغلات مشهورات ؛ وهي على ثلاثة اميال من البحر .

مازرة Mazara

« مدينة فاضلة شامخة كاملة ، لا شبه لها ولا مثال ، في شرف المحل والحال واليها الانتهاء في جمال الهيئة والبناء ، وما اجتمع فيها من المحاسن التي لم تجتمع في غيرها من المواطن وهي ذات اسوار حصينة شائقة وديار خنسة فائقة بها ازقة واسعة وشوارع واسواق عامرة بالتجارات والصنائع وحمامات فاضلة وخانات واسعات وبساتين وجنت طيبات المزروعات ، يسير اليها من جميع الآفاق ويتجهز منها بوافر الاوساق واقليمها كثير الاتساع يشتمل على منازل جليلة وضياع .

مرسى على (مرحالا) Marsala

كانت مدينة ازلية من اشرف بلاد صقلية ، وكانت خربت ودثرت فعمرها القومس رجار وسور عليها سورا فصارت ذات عمارة واسواق وخانات ولها اقليم واسع وعمل شاسع وسفر اهل بلاد افرقيها اليها كثير . . . ولها فنادق وحمامات وبساتين ومزارع طيبات .

اطرابنش Trapani

مدينة ازلية قديمة المحل على ساحل البحر والبحر يحدق بها من جميع جهاتها وانما يسلك اليها على قنطرة على باب شرقيها ومرساها بالجانب الجنوبي منها وهو مرسى سالك غير متحرك تشتت به اكثر السفن آمنة من جميع الانواء صاد موجه عند هيجان البحر ويصاد به من السمك ما يفوق المقدار ويصاد به السمك الكبير ايضا المعروف بالنن بشباك كبار ويصاد ببحرها المرجان السنن وعلى بابها سبخ الملح البحري ولها اقليم واسع الاجناب مستد الاطناب ارضها من اكرم الارضين في الزراعات كثيرة الفوائد والغلات ، وطرابنش في ذاتها

ذات اسواق رحيبة ومعاش خصيبة وبقرها جزيرة الراهب وجزيرة اليابسة
وجزيرة مليطمة ولكل واحدة من هذه الجزائر مرسى وآبار ومحتطب .

برطنيق Partinico

« بلدة جميلة طيبة وطية حسنة المنظر بهية وبها ضياع زكية يعمل بها
القطن الكثير والخنا وغير ذلك من انواع القطنى وبها مياه غزيرة وعليها
ارحاء كثيرة .

قرينش Carini

« بلدة طيبة جميلة حصينة وبها اصناف من الفواكه كثيرة وبها اسواق
كبيرة واكبرها بالحوض من الاسواق والحمامات والديار الواسعة ومنها يحمل
كثير من اللوز والتين الناشف والخروب ويوسق به المراكب والقوارب ويتجهز
به الى الكثير من البلاد .

* * *

بعد هذه الجولة التى جالها الشريف الادريسى حول المدن البحرية
الصقلية : مبتدئيا ببالرمه ومسيئا متجها من الشمال الشرقى صوب الجنوب
ثم منه الى الشمال الغربى : وقد اقتبسنا منه وصف اهم المدن ينتقل الى داخل
البلاد واصفا المدن البرية فلتقتبس منه شيئا من ذلك : قال عن :

الخزان

« وهو حصن فى اعلى جبل ، من اجمل القلاع وافضل البقاع ، وحاله افضل
حال ولها عمارة وارحال ، ومنه يخرج النهر المسمى وادى الامير واصله من
الخزان فينزل مع الخنادق وتجتمع به مياه قجانة ، (وهذا الخزان من جملة
منشآت المسلمين لتنظيم الري فى البلاد وتوزيع المياه على المزارع والبساتين)

الضنم Castelvetro

« رجل كبير ، يحتوى على بشر كثير ، وعليه حصن مغل ومعقل سامي
المحل ، اشجاره مصطفة وبساتينه ملتفة ومياهه مندفة وخيراته محدقة ، ومن
الضنم الى مازر سبعة اميال » .

قلعة النساء Calata Nisetta

« قلعة حسنة البناء ، مطلة على عمارات متصلة ومنابع جمة وغلات
واشجار وفواكه » .

قصرياني Gastro Giovanni

« وهي مدينة في اعلى جبل ، ذات حصن حصين ومعقل متين ، قطرها
واسع وفناؤها شاسع ولها اسواق جميلة الترتيب وديار متقنة التركيب
وصنائع وبضائع ، وصناع ومتاجر وامتناع ، ولها عمل واسع المجال ، واقاليم
واسعة الحال ، مزارعها زكية وغلاتها مرضية وهواؤها بارد ومرافقها تشفى
المصادر والوارد ، وبالجملة انها امنع بلاد الله مكانا واوثقها بنيانا ، ولها مع
حصانتها في جبلها مزارع ومياه جارية لا تحتاج الى البسط ، وبها رقة رائقة
ورقعة شاهقة ، لا تغلب في الحال ولا يمكن فيها القتال » .

(من اجل ذلك كانت آخر معاقل الروم التي سقطت بايدي المسلمين ،
ثم كانت من بعد آخر معاقل المسلمين التي سقطت بين ايدي النرمان) .

حياة اللغة العربية ايام النرمان

كانت العربية كما رايت لسان البلاد الرسمي تستعمل في كثير من
الاحيان قبل اللغة النرمانية . وكان شعار الملك النرمانى عربيا والتخاطب في
البلاط باللغة العربية ، والنقود النرمانية عربية الضرب عربية الصيغة ، وانما
نقش على احد وجهيها رسم الملك واسمه باللغة النرمانية ، واستمر العلم زاهرا

والتعليم العربي منتشرًا يدل على ذلك اجسلي دلالة شواهد القبور من العهد النرمانى الاسلامى التى لا تزال قائمة الى يومنا هذا .

من ذلك شاهد فى مدينة بالرمة نقش عليه « الله العزة والبقاء وعلى خلقه كتب الفناء » . ولكم فى رسول الله اسوة حسنة ، هذا قبر ميمونة بنت حسان بن على الهذلى عرف بابن السوسى توفيت رحمة الله عليها يوم الخميس السادس عشر من شهر شعبان من سنة تسع وستين وخمسمائة (١) وهى تشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له .

انظر بعينك حل فى الارض من باقى او دافع الموت او للموت من راقى الموت اخرجنى قسرا فيما اسقى لم ينتجنى منه ابوابى واغلاقى وصرت رهنا بما قدمت من عمل محصى على وما خلقت به باقى يا من راي القبر انى قد بليت به والترب غير الجفائى وآماقى فى مضجعى ومقامى فى البلا غير وفى نشورى اذا ما جئت خللقى وامثال هذه الشواهد كثير فى صقلية ايام العهد النرمانى ، لا تكاد تحصى ؛ وقد جمع اكثرها سيد كتاب صقلية وكبير المستشرقين ، ميكل عمازى ، فى كتاب جليل القيمة اسماء . **Le Epigrafi Arabiche di Sicilia** انما الذى يعطيك صورة صادقة لحياة العربية اذاك . وانها كانت اللغة الرسمية ليس فى الدوائر الحكومية فحسب بل حتى فى الدوائر الدينية المسيحية ما نقش على قبر مسيحي :

« توفيت أنه ام القسيس اكريزنت قسيس الحضرة المالكة الملكية الملكية العالية العلية المعظمة السنية القريسية البهية المعتزة بالله الملويزة بقدرته المنصورة بقوة مالكة ينطالية وانكبرده وقلورية وصقلية وافريقية ، معزة امام رومية النصرانية سرمد الله مملكتها يوم الجمعة العشر العشرين من اوست سنة ثلاث واربعين وخمسمائة (١) ودفنت بالجامع الاعظم ثم نقلها ولدها

بالمستنجد الى هذه الكنيسة حنت مخالة يوم الجمعة اول ساعة العشا
 العشرين مائة سنة اربع واربعين وخمسائة وبني على على قبرها هذه الكنيسة
 وسمى الكنيسة حنت انه على اسم ام مريم ودعا لها بالرحمة آمين آمين «
 وانك لا ريب قد لا حظت ان التاريخ المستعمل كان التاريخ الهجرى ولم يذكر
 التاريخ المسيحى فى بناء كنيسة مقدسة للمسيحية وليس بعد هذا الاثر اثر
 ولا افصح من هذا البيان بيان »



القسم التاسع

العلوم والادب

فى تلك الفترة الطويلة التى قضاها المسلمون فى ربوع صقلية ، وقد جعلوها روضة غناء ، وحديقة يانعة ، وجنة تجرى من تحتها الانهار ، وسواء كانوا حاكمين يومئذ او محكومين ؛ ورغم جميع ما اجتازته الجزيرة من حروب خارجية واضطرابات وفتن داخلية ؛ ازدهرت العلوم والفنون والآداب ، ونبغ فى الجزيرة رجال خلدوا على صفحات التاريخ اسمها ؛ ورفعوا ذكرها بين البلاد عليا ؛ فكانت العلوم تدرس هناك فى كل مدينة وكل قرية ، شأنها فى ذلك شأن بقية بلاد الاسلام ، حيث كانت المساجد والجامع تقوم مقام المدارس الثانوية والعليا ؛ وحيث كانت الكتائب القرآنية المنتشرة انتشارا غريبا ، فى كل حارة من حارات المدن والقرى ، تبث التعليم الابتدائى العربى الدينى وتؤهل الاطفال لتسليم ذرى المعارف العليا فى صقلية نفسها او ببلاد افريقيا او الاندلس او الشرق .

ويقص علينا ياقوت الحموى ، فى كتابه معجم البلدان ؛ انه كان بمدينة بالرمة فى عهده ثلاثمائة مدرس ؛ وان المدرسين ومعلمى القرآن كانوا لا يكلفون بحمل سلاح ، وليس عليهم اى شئ من التكاليف الحكومية .

نشأت هناك ، خلال تلك المدنية الشامخة انذرى ، طبقات غفيرة من اطباء كان لهم الفضل الاكبر ، لاختلاطهم بايطاليا وبقية اوروبا ، فى نشر آخر ما وصلت اليه قرائح اطباء العرب والاغريق فى كامل القارة الاوروبية وسياتيك نبا قسطنطين الصقلى التونسى فيما بعد ، ونشأت هناك طبقات عديدة من رجال العلم والفن والآداب ، كما نشأ هناك جمهور صالح من كبار الشعراء من

افذاذ العباقرة الموهومين ثرعرعوا بين احضان الروعة والجمال ، والعزة والجلال . فسجلوا لصقلية باشعارهم النفيسة صورة طيبة محببة الى النفس ، وانشأوا بذلك فى صقلية ادبا قوميا صقليا عريبا عثينا ، جزلا رقيقا ، كانه الدرة اللامعة فى عقد الادب العربى الرائع البهاء . وانما اقول ان شعراء صقلية قد انشأوا شعرا قوميا ، لان تلك الطائفة الصالحة من كبار الشعراء ، كما سيمر بك فيما بعد ، قد صوروا لنا فابدعوا تصوير صقلية بلهجة شعرهم وبتشابههم المنتقاة من صلب الحياة الصقلية ، وعلى الاخص بما وصفوه لنا من حياة صقلية ، ومن جهادها ومن عبثها ، ومن رياضها وجناتها ومن زهورها واشجارها ، ما يجعلك تشعر بعد تلاوة ذلك الشعر الحى المتين ، انك تغفلت خلال ذلك الوسط ، وعاشرت اهله ، واطلعت على تخفى نفوسهم من عظمة وقوة ، وما تخلل ذلك من تهتك ومجون .

واتها لدراسة ثرية ، بعيدة الغور ، فسنيحة الآفاق ، دراسة آداب صقلية وعلومها وفنونها ، وحياة الادباء والعلماء والفنانين فيها ؛ فعمسى الله ان يقيض من ابناء هذا الشمال الافريقى من يتخصص لهذه الدراسة ، فهي جديرة بان يهبها باحث كل حياته لا جزءا من وقته ، وان من قضى حياته فى ذلك العمل يكون قد خلد اسمه فى سجل الاعلام .

ولنلق الآن نظرة وجيزة على اولئك النابغين الافذاذ الذين استحققت بهم صقلية كما يقول العلامة البجاعة كارل سيدهورف ، لقب « باب الشرق للتوغل فى الغرب » .

قسطنطين الصقلي ومدرسة سالرنة

وانه لحرى ان نفتتح به هذه السلسلة الذهبية ، وان كان آخر علماء صقلية وايطاليا عهداً ؛ انما كان يمثل لنا طبقة من الرجال ، من اجل العلم خلقوا ، وكل ميسر لما خلق له ، ومن اجل العلم عاشوا ، وفى سبيل العلم جاهدوا

الجهاد العنيف ثم يتأخروا عن تقديم اعز التضحيات واثقله على النفس في سبيل نشر المعرفة ، وبت الانوار في الاصقاع التي كانت يومئذ في ظلمات الجهالة ، اعني قارة اوروبا .

فقسطنطين القسطنطيني او الافريقي ، كان الطبيب المعلم الذي نقل الى الغرب كتب الطب والحكمة ، فترجمها لللسان اللاتيني ، وجمع حولها رواد المعرفة والراغبين في العلم ، فأسس لهم « مدرسة سالرنة » (١) التي كانت اول مدرسة من نوعها في اوروبا ، والتي كانت مبعث انوار الطب الحديث في العالم الغربي بأسره ؛ والتي بقيت عدة قرون حاملة راية الطب يتبع طريقتها التي سنّها قسطنطين كل علماء اوروبا وجامعاتها .

حوالي سنة ٤٠٩ هـ (١٠١٥ م) ولد بمدينة تونس ، ذلك الرجل الذي سيسجل التاريخ اسمه باحرف من نور ، وبها تعلم وتهذب وثقف ، وكان يتعاطى التجارة في مقتبل عمره ويقبل بكلينه على العلوم ، ويقامر في الاسفار ، ويعتكف على دراسة كتب الطب حتى استوعب منها الكثير ثم خل يومئذ في تجارة له بمدينة سالرنة ، واتصلت علاقته باميرما جيزولف وكان مترجما الذي سيُدعى فيما بعد « قسطنطين » بجهل اللاتينية وكان قصارى امره يومئذ انه تاجر من تجار المسلمين ومثقف متنور بين جماعة غفيرة من المثقفين اللتتوريين ، فكان الطبيب العربي « عباس دى كوربا » يتولى مهمة الترجمة بين المسافرين والامير . وسال قسطنطين الذي لم يكن يدعى يومئذ بهذا الاسم اثناء عملية تحليل البول ، هل لاطباء ايطاليا كتب طبية باللغة اللاتينية فاجيب سلبا ، واعلم ان الطب يتلقى هنالك شفويا ويعتمد على بعض التجارب ليس الا . رجع الرجل للبلاد التونسية ، وانكب على استكمال معلوماته الطبية بين افريقيا وصقلية وبلاد الشرق ، وجمع من أحسن كتب الطب الشيء الكثير فبعد ان استوعب جميع ذلك ، اخذ معه تلك المكتبة الثمينة الثرية ، وسافر الى

(١) اصبحت جامعة رسمية باسم من الملك روجي الثاني سنة ١١٥٠ : واستمرت عاملة مدى ٩٩٧ عاما . ثم التفت سنة ١٨١٧ .

صقلية . ومنها اجتاز الى مدينة ساليرنة يحمل ذخيرة ستكون غذاء أوروبا طيلة قرون .

هناك انكب على دراسة اللغة اللاتينية حتى خذقها على يد رجال الدين والكهنة . واصبح يدعى يومئذ « قسطنطين الافريقى » تارة « وقسطنطين الصقلى » تارة اخرى ، ثم اعتكف في دير جبل كاسان ، ولهذا الدير شهرة عالمية باقية منذ تلك الساعة الى يومنا هذا (١) ؛ وهناك في ذلك الدير اخذ قسطنطين في بادئ امره ، بترجم اللغة اللاتينية اهم كتب الطب العربى وفي طليعتها : « زاد المسافر » لابن الجزار ، ترجمة تحت اسم *Viatricum* وانتشر صيت ذلك الكتاب ، وامت شهرته كافة البلاد الاروبية . واصبحت طريقة ابن الجزار فى الطب طريقة اوروبا كلها . ومكثت كذلك قرونا عديدة ثم نشر شيئا من كتاب على بن العباس تحت اسم : *Pratico Pantegni* وترجم كذلك كتابا لرازي ؛ وكتبا اخرى لاسحاق ابن سليمان الاسرائيلى ؛ ولم يكتف بترجمة تلك الكتب ، بل اخذ يتبحر فى علم الطب ، والف نحواً من ٢٢ كتابا فى مختلف شعب الطب وطريقة الوقاية من الامراض والعلاج ، ولقد طبعت كتبه كلها ما بين سنتي ١٥٣٦ و ١٥٣٩ ومن اهمها :

قانون الطب ؛ ١٢ كتابا .

فياتيكوم فى الطب العام ، ٧ كتب :

البول وتحليله - الاعضاء الداخلية فى جسم الانسان - الجماع - جسم المرأة واعضاؤها - النبط - كتاب الجراحة - كتاب المعدة - كتاب العيون - النبات الطبي - المالىخوليا - الحمية للمرضى - طبيعة الانسان ووظائف الاعضاء - الحيوان . الخ .

(١) خطبته الحرب العالمية الاخيرة الوحشية وقضت فيه على نزوة علمية ادبية تاريخية عزيزة المثال . واصبح كوما من حجارة ورماد .

يؤخذ على قسطنطين الصقلي ، انه كان كلما ترجم كتابا نسيبه الى نفسه ؛ ولم يذكر اسم المؤلف ، ويدافع عنه رجال من كبار العلماء ، امثال دارمبيرغ (Daremberg) وسيدهوف (Sudhoff) فيقولون ان العلاقات بين النصارى والمسلمين كانت يومئذ رديئة عداوية ؛ وقد تركت محاولات المسلمين لاستعمار الجنوب الطلياني اقرا عظيما في نفوس القوم ؛ فعندما ادرك قسطنطين ذلك علم انه اذا نسب كتب المسلمين لاصحابها ، عمل التعصب عليه وحال بينها وبين الانتشار ، فنسبها الى نفسه ، كانها عمل راحب من رهبان دير كسان ، يعلم الطب في مدينة ساليرنة . فانتشرت تلك الكتب بتلك الطريقة ؛ وما كاد علماء عصر النهضة يدركون ذلك حتى كانت تلك الكتب قد تمكنت وعم ذيوها وانتشارها ، واصبحت في العالم الاوروبي تراسا منيرا ؛ وهات قسطنطين في دير جبل كاسان سنة ٤٨٠ (١٠٨٧) .

وقد طبعت مؤلفاته بمدينة سال بسويسرا في جزأين ضخمين ، صدر الاول منهما سنة ١٥٢٦ والثاني سنة ١٥٢٩ (٢) .

الامام محمد بن علي المازري - قال عنه صاحب سبط اللئال :

ابو عبد الله محمد بن علي بن عمر التميمي المازري ؛ اصله من مازرة (حقلية) اخذ عن اللخمي وعبد الحميد السوسني المعروف بابن الصائغ وغيرهما ؛ وهو احد الاعلام المشار اليهم في حفظ الحديث والكلام وآخر المستغلين بتحقيق العلم ورتبة الاجتهاد ودقة النظر حتى لقب بالامام ؛ ومن اخذ عنه بالاجازة القاضي عياض كان يفرع اليه في الفتوى وفي انطب كما يفرع اليه في الفقه ، وسبب اشتغاله بالطب انه مريض ، وكان يطبه يهودي ؛ فقال اليهودي : يا سيدي مثلي يطب مثلكم ، واي قرية اجدها اتقرب فيها في ديني مثل ان افدك للمسلمين ، فمن حينئذ اشتغل بالطب ، وقد هاجر الى افريقيا

(١) علامة قرطبي (١٨١٧ - ١٨٧٢) نشر قاموس الآثار الرومانية واليونانية

MORBORUM COGNITIONE (٢) اسم الكتاب الاول

OPERA RELIQUAT واسم الكتاب الثاني

وتولى قضاء القيروان وقضاء المهديّة .

وله تأليف كثيرة جليلة ، منها شرحه على صحيح مسلم المسمى كتاب المعلم بفوائد كتاب مسلم ، وعليه بنى القاضى عياض كتاب الاكمال تكملة له ؛ توفي رحمه الله في ١٨ ربيع الاول سنة ٥٣٦ هـ ؛ وترتبته خارج بلد المنستير من جهة البحر ؛ يزورها الناس افواجا الى يومنا هذا .

محمد بن يونس التميمي - من مدينة مازرة كذلك ، لمعلم من اعلام الفقه اخذ عن النخعي وابن الصائغ وغيرهما وتبحر في العلم وشهدت اليه الرحال للافتاء حتى لقب « بالامام الاكبر » وقد ألف تأليف حافلة عن شرح موطا الامام مالك بن انس رضى الله عنه والتعليق عليه ، ونال بواسطة ذلك شهرة ذائعة وصيتا عظيما ؛ وتوفاه الله بمدينة مازرة في اوج عزه وسؤدده العلمى سنة ٤٤٧ (١٠٥٥ م) ؛ وترك جماعة من العلماء الجلة ممن صحبوه واخذوا عنه ونفعوا الناس بعلمه وآثاره .

محمد بن محمد بن ظفر - من افذاذ صقلية الاعلام ايام حكم النرماو ؛ قضى حياته كلها في انتعلم والتأليف والتنقل بين البلاد ، من صقلية الى مصر الى بلاد الشام ، وصحب الملك رجار الصقل ، وقدم له بعض الكتب المؤلفة باسبه ؛ مثل : « سلوان المطاع » فى عدوان الاتباع ، وهو كتاب ثمين ؛ قام بترجمته للغة الطليانية المستشرق الصقلى الاكبر والعلامة الجليل ميكل عمارى .

وتكاد كتب محمد بن ظفر الصقل لا يحصىها عد ؛ منها : ينبوع الحياة فى تفسير القرآن الكريم - فوائد الوحي الموجز الى فرائد الوحي المعجز - المسند فى الفقه على مذهب مالك - اساليب الغاية فى احكام الآيات - معاقبة الجريء فى معاقبة البريء ، فى اعتقاد ابي حنيفة والاشعري - كتاب الجنة فى اعتقاد اهل السنة - خير البشر - منح اللغة فيما اتفق لفظه واختلف معناه على حروف المعجم - ايهام الغواص فى ايهام الخواص ، فى بيان غلط ابي محمد الحريرى - الحوذ الواقية ، والعود الراقية ؛ كتابان فى شرح الحريرى - كتاب الاشتراك المغوى والاستنباط المعنوي - كتاب الاشارة الى علم العبارة - القواعد والبيان

في علم النحو - أنباء نجباء الإبناء - مالك الأذكار في مسائل الأفكار - الخ - الخ .
 ولم يزل في حل وترحال بين صقلية وبلاد المشرق ، إلى أن غادر صقلية
 نهائيا سنة ٥٥٤ (١١٥٩) ، بعد أن ألف كتابه البديع « سلوان المطاع » في
 عدوان الاتباع ، وقال في مقدمته : « إن ملكا حسن السيرة مظلون حسن
 السريرة ، أمرني أن أصنف له كتابا يكون لهومه شافيا ، ولكليته ودمته
 قانيا ، فاجبته لذلك مكافيا » واستقر بعدئذ بمدينة حماه من مدن الشام
 وبها أدركته الوفاة سنة ٥٥٦ .

وكان شاعرا رقيقا ، قال :

حملتك في قلبي فهل أنت عالم بآنك محمول وانت مقيم
 إلا أن شخصا في فؤادي محله واشتاقه شخص على كريم
 ومن قل فيما يتقيه اضطباره فقد قل فيما يرتجيه نصيبه
 وقال: على قدر أهل الفضل تؤتى خطوبة ويعرف عند الصبر فيه نصيبه

عبد الرحمن ابن محمد بن عمر - من مدينة بشيرة ، بصقلية ، عاش أيام
 رجار ؛ وقد كان حاملا كتاب الله ، واشتهر شهرة ذائعة في الشعر والأدب ،
 ولقد مدح الملك رجار الصقلي بقصيد من عيون الشعر ، له قيمة تاريخية عالية .
 كالأغلب الشعر الصقلي ، يصف به حياة الجزيرة ويتغنى ببهائيا وجمالها ، منه :

أدر العقيق العسجدية وحل اصطحابك بالعشية
 واشرب على وقع المئان في والأغاني المعبدية
 ما عيشة تصفو سوى بنذرى صقلية هنية
 في دولة أريت على ذل الملوك القيصرية

* * *

وقصور منصور منصورية خط السرور بها المطية
 أعجب بمنزلها الذي قد أكمل الرحمن ربه
 والملعب النزاهي على كل المباني الهندسية

ورياضة الانف انتى	عادت بها الدنيا زهية
واسود « شادر وانه »	تهمى مياهها كوثوية
وكسا الريح زبوعها	من حسنة حلا بهية
وغدا يكلل وجهها	بمصيفات جوصرية
عطرن انقاس الصبا	عند الصبيحة والعشية

عبد الرحمان بن ابى العباس - شاعر اديب فنان ، لم يترك لنا صورة زيتية تمثل حياة صقلية ، اما ابقى لنا من غرر الشعر قصيدا بديعا يصف به الجزيرة ، وحياة بالرمة ، وقصر الفوارة التابع لقصر المعتزية ، الذى كان منزله ملوك صقلية المسلمين ، فاستمع اليه يقول :

فوارة البحرين جمعت المنى	عيش يطيب ومنظر يستعظم
قسمت مياهك فى جداول تسعة	ياحبذا جريانها المتقسم
فى ملتقى بحريك معترك الهوى،	وعلى خليجك الفسرام مخيم
لله بحر التخلتين وما حوى الـ	بحر المشيد به المقام الاعظم
وكان ما المفرقين وصفوه	در مذاب ، وانسيطة عدرم
وكان اغصان الرياض تطاولت	ترنو الى سمك المياه وتبسم
والحوت يسبح فى صفاء مياهها	والطير بين رياضها يترنم
وكان نارنج الجزيرة اذ زها	نار على قضب الزبرجد تضرم
وكانا الليون صفرة عاشق	قد بات من النـم اتوى يتالم
والتخلتين كعاشقين استخلصا	حذر العدا حصنا متيعا منهم
او ريبة علقتهما فتطاولا	يستمتعنان ظنون من يتوهم
يا نخلتى بحرى بلرم سقيتما	صوب الحيا (١) بتواضل لا يصرم
هنيئتما امر الزمان وثلتما	كل الامانى والحوادث نوم
بالله طيبا واسترا اهل الهوى	فيأمن ظلكما الهوى يتحرم

عيسى بن عبد المنعم - هو الفقيه ابو موسى عيسى بن عبد المنعم الصقلى ، ذكر عنه صاحب خريدة القصر ، انه كان كبير الشأن ، ذا الحجة والبرهان ،

ذفيه الامة له المعاني والافكار البعيدة مراميها ومراقبها ، والالفاظ التي هي كالرياض . فمن يدع قوله في الغزل ، في فتاة نرمانية بلا ريب ، واعجب بفقته مسلم يعشق فتاة نرمانية ويتغزل فيها !

يا بني الاصغر (٢) انتم بدمي منكم القاتل لي والمستريح
 امليح هجر من يهواكم وحلال ذاك في دين المسيح ؟
 يا عليل الطرف من غير ضنى (٣) واذا لاحظ قلبا فصحيح
 كل شيء بعد ما ابصرتكم من صنوف الحسن في عيني قبيح
 عمر بن حسن النحوى - كان شيخا من شيوخ اللغة ، واماما من ائمة
 النحو وبليغا من اكبر البلغاء في عصره ، وكان من جاحد ضد الترمذ ، وابي
 البلاء الحسن الى ان اسر وتكب ، وجاء عهد الملك رجار فافرج عنه وقربه ،
 فقال يمدحه من قصيد :

طلب السلو لو غير سعاده حلت سويدا قلبه وفؤاده
 ورجا زيارة طيفها في صدره وغرامه يابى لذيذ رقاده
 والله لسولا الملك (رجاز) الذي اردى لحيته عظيم وذاده
 ما عاف كاس الوجد يوم فراقها ورأى محيا المجد في ميلاده
 يهتز للجدوى اهتزاز مهتد يهتز في كفيه يوم جلاده
 ويضئ في الديجور صبح جبينه فيخال ضوء الشمس من حساده
 ومطالع الجوزاء ارض خيامه والنجم والقمران من اجناده
 واذا الامور تشابهت فلقصبه خط يبيض سودها بمداده

ابن القطاع - هو ابو القاسم علي بن جعفر بن علي السعدي ، المعروف
 بابن القطاع ويرتفع نسبه الى ابراهيم بن الاغلب ، ولد في صقلية سنة ٤٣٣
 (١٠٤١ م) وبها عاش وتعلم وتادب ، وقرأ على ابن البر الصقلي واضرابه من

(١) الحيا ، المطر (٢) بنو الاصغر النصارى ، يقول البهاء زهير :
 واقسم ما ذاقتم بنو الاصغر الكرى وما حلت الا باعلامه الصفر
 (٣) الضنى ، المرض

رجال ذلك العصر وقال انشعر صربيا ، وجمع من اخبار اهل صقلية من الشعراء والادباء الشيء الكثير فانف كتابه «الدرة الحظيرة» ، والمختار من شعراء الجزيرة جمع فيه طائفة صالحة من شعراء صقلية ، وذكر البعض من جيد شعرهم ، وهاجر آخر ايامه الى بلد الكنانة ، فعاش الى آخر زمان الملك الافضل ، وقد ألف كتاب « تاريخ صقلية » ذكره ونقل عنه ياقوت الحموي في معجم البلدان : ولا يزال نجد في البحث عنه ؛ وتوفي في صفر سنة ٥١٥ .

ابو عبد الله محمد بن الحسن - المعروف بابن الطرى : كان ايام الدولة الاسلامية ، صاحب ديوان الرسائل والانشاء ، وكان من ذوي الفضل والمكانة فصيحاً بليغاً مترسلاً شاعراً ؛ وكان من اصحاب الباع الطويل الى جانب ذلك في علم الطب . قال يهجو منافقاً :

يقرب قوله لك كل شيء وتطلبه فتبصره بعيداً
فما يرجو الصديق الوعيد منه ولا يخشى العدو له وعيداً

الاصلاح الاسلامي - ولقد ترك لنا من ابيات ، صورة لما كانت عليه حالة المسلمين في صقلية يومئذ ، من الركض في ميدان البدع والمنكرات التي انصفت بالاسلام ظلماً وعدواناً ، بدعوى انها من القربات الصوفية ؛ شأنها في ذلك شأن بقية العالم الاسلامي ، وما كان كرام الامة ومصلحو الاسلام يشنونه من غارة على تلك الاباطيل ، فيقول :

ليس التصوف لبس الصوف ترقعه ولا يكاء اذا غنى المغنونا
ولا صياح ولا رقص ولا طرب ولا تغاش كان قد صرت مجنونا
بل التصوف ان تصفو بلا كدر وتنبع الحق ، والقرآن ، والدينا
وان ترى خائفاً لله ، ذا ندم على ذنوبك طول الدهر محزونا

ابو الفضل مشرف بن راشد - من شعراء امجاد ، تغني بذكر الجزيرة فاجاد ، مما يقوله مادحا احد كبار قوادحها مفتتحاً التقصيد بالفزل حسب الطريقة المالوفة التقليدية :

سرت ورداء الليل اسبحم حالك (١)
 عشية اعشى (٢) الدمع انسان مقلتي
 وظاف اتكرى (٤) يظرف وهو محجب
 سرت موهنا ثم استثناء فودعت
 به غصن بان اثمر البدر طالعا
 غريسة حسن يحسن الهجير عندها
 واحور (٦) مكحول المدافع عافني
 رعى الله اكثاف الجزيرة ان رعى
 يشيد اعباده الحصون منيعة
 واني لآتي الحق فيما اقوله
 شهدت لقد حاز العلا بيمينه
 ليوث وعى اذ كنت خلال ضلوعها

عمار بن المنصور الكلبي - الامير ابو محمد عمار بن المنصور الكلبي من
 امراء بني الحسين الكلبيين ملوك صقلية نشأ في بيت الملك وانعزة والجاه ،
 واقطع للعلم والادب ، فكان من افاضل علماء زمانه المبرزين في الفقه والحديث
 له من اروع الشعر ، يصف بيته ويمجد قومه ، ويجمع بين شرف العلم
 وهمة الابطال :

تقول لقد رايت رجال نجد
 التت وقائع الغمرات حتى
 الى كم ذا الهجوم على المنايا
 فقلت لها سمعت بكل شيء
 وما ابصرت مثلك من يمان
 كائنك من رءاها في امان
 وكم هذا التعرض للطعان
 ولم اسمع بكلمتي جبران

(١) السبح - اسود حالك شديد الشواد (٢) اعشى - اساءت بصرة (٣) تبت فشت واذاغت
 (٤) الكسرى - النوم (٥) الحقن - المعوج من الرمل والعاتك من الرمل ما تعقد وارفع : يعني
 بذلك رذنها ، كما قال الشاعر :
 كيف اسلمو وابت حقن وغصن وغزال لظفا ولدا وردفا (٦) واحور - الحور

ويقول في ابن عمه الأمير ، وقد أساء إليه :

ظننتك سفا انتضيك (٤) على العدا وما خلعت ابنى انتضيك على نفسي
وجئتك ابغى رفعة وكرامة فامسيت مقهورا بقربك في حبس
الرشيد احمد بن قاسم - من ابناء صقلية وكبار علمائها ، هجر وطنه بعد
توطد قوم النصارى فيه ، وجاب الآفاق حتى استقر بمصر واصبح ايام الملك
الافضل قاضي القضاة بها ، ولقد دخل يوما على الافضل فوجد بين يديه دواة
من عناج محلاة بمرجان فانشد :

الين لنداود الحديد بقذرة يقدهه في السرد كيف يريد
ولان لك المرجان وهو حجارة على انه صعب المرام شديد
مجبر بن محمد بن مجبر - كان من رجال الادب والعلم بصقلية ، بها
ولد ونشأ وتثقف ، ثم هاجر منها واستقر بمصر مع القاضي الرشيد الآف
الذكر ، وكان زينة مجالس الادب ، وله من قصيد في الغزل والمدح :

ليس الفراق بمستطاع	فدعيه من ذكر الوداع
وعديه ما يحيى به	من طيب وصل واجتماع
يا وجه مكتمل البندو	وحسن ما تحت القناع
يا اخت يوسف ان قلبي	في هواك هو الصواع
فلئن ظفرت به لديد	لك وكنت سارقة المشاع
فلاخذنك ممن قبيل	لك اخذ ملك واقتطاع
يا نفسي حسبك لا تهابى	بالخطوب ولا تراعى
يكفيك انك فى حمى	من ليس يرضى ان تضاعى

بالفتح شدة يائض يائض العين وسواد سوادها (٤) زاح الشيء شبطه وغلبه والغرم اغفل عليهم .
الفتك جذب الشيء تقبضه ثم تكسره يعنى : ان زاعها قوى شديد قابض على زمام الامور
(٥) بباتك ، قباطع السيف (٥) المسايك جمع حسيكة اداة للحرب تصنع من حديد على شكل
المرووف (٤) انتضيك ، اسلك .

مصعب بن محمد - أبو العرب مصعب بن محمد ابن أبي الفرات القرشي ، ولد ونشأ وتعلم في صقلية ؛ أما ولادته فقد كانت سنة ٤٦٤ (١٠٥٤ م) ، وأم بلاط المعتمد بن عباد ، ملك اشبيلية بالأندلس ، قال يمدحه ويذكر وطنه الضائع :

الى م اتباعي للاماني الكواذب	وهذا طريق المجد بادي المذاهب
اهم ولي عزمان ، غزم مشرق	وأخر يغري همتي بالمغارب
ولا بد لي ان اسأل العيش حاجة	يشق على اخفافها والغوارب
على لآمالى اضطراب مؤمل	ولكن على الاقدار نجح المطالب
فيا نفسي لا تستصحبى الهون انه	وان جذعت اسبابه شر صاحب
ويا وطني ان بنت عنى قاتنى	ساوطن اكوار (١) العتاق النجائب
اذا كان اصلى من تراب فكلها	بلاذى وكل العالمين اقاربي

عمر بن حريق - شاعر رقيق الاحساس ، نشأ بصقلية وهجرها عند تغلب النرمان عليها ، وله من قصيد يذكر به مدينة بالرملة بعد ان زال عنها سلطان المسلمين :

نفسى تحن الى اهلى واوطانى	وهل رايتم مجبا غير حنان
كانوا بقلبي احياء وفى كبدي	نار تاجع من شجوى (٢) واحزاني
ما ضر حين ناوا لو ودعوا (٣) دنفا	رهن الحوادث فى كف الهوى عان (٤)
عز اضطبارى لرزه قد ذهبت به	وبان عنى لوشك البين سلبوانى

محمد بن الحسن بن علي ، **ابوبكر الربيعي** - ولد بمدينة جرجنت ، وتفقه بها وتبحر في العلوم العربية الاسلامية متما في مدينة القيروان عليه ؛ وكان من خيار الرجال وافاضل المسلمين ، هاجر صقلية عند زوال سلطان المسلمين ، واستقر بمدينة الاسكندرية وبها توفي سنة ٥٣٧ .

محمد بن خراسان - يعرف بالنحوى الصقلي ؛ كان صولى لبني الاغلب سمع من ابي جعفر النحاس مصنفاته ؛ وروى عن ابي بكر محمد ابن بدر القاضى ، ومروان بن عبد الملك بن بحر وروى عنه يوسف بن ابي حبيب بن

محمّد وقد قضى رحمه الله كامل حياته فى مجالس العلم ، وفى اوساط العلماء الى ان مات سنة (٣٨٦) عن ست وسبعين سنة .

محمد بن ابي فرج بن فرج - هو ابو عبد الله ، المالكي الكتاني ، المعروف بالذكي النحوي ، كان من كبار العلماء ، مبرزاً فى علوم اللغة والنحو ، وسائر فنون الادب ؛ وكان مولعاً بالمغامرات والاسفار .

ساح جهاث العراق وفارس وغزاة حتى وصل بلاد الهند وجرت له مفاوضات مع جماعة من الائمة ، آلت الى طعنه فيهم ، وبسط لسانه الى ما لا يليق بهم .

مما يدل على علو كعبه وسمو مكانته فى العلم والزاجه ، انه حضر املاء محمد بن منصور السمعاني ، فلم يصادق ابن ابي الفرج على ما املاه السمعاني وقال للناس ليس الامر كما املاه عليكم بل هو كذا وكذا فقال السمعاني رحمه الله اكتبوا كما قال فهو اعرف به ، فخيروا الكلمة وكتبوا كما قال الذكي ، فبعد ساعة قال الذكي ياسيدي انا سهوت والصواب ما املت انت فقال السمعاني اذن غيرهه وارجعوه كما كان ومات محمد بن ابي الفرج متسوحاً فى ارض خراسان سنة ٥١٢ ؛ وقد كان مولده بصقلية سنة ٤٢٧ .

الشريف محمد بن احمد الادريسي - ليس هذا النابغ الفذ من ابناء صقلية بل هو مغربي قح ، من سلالة الاشراف الادريسيين ، مؤسس الدولة العلية الادريسية بالمغرب الاقصى ، لكنه قد سجل اسمه فى التاريخ الصقلي ، بماثرته الخالدة التى فتحت بها فتحة جديدة فى وجه التمدن العالمى ، وفجر بها ينبوعاً حياً لعلم الجغرافيا ، وهو يعتبر حقاً اول اساطينه ، وبالف سدره منتهاه فى عصره . ولد الشريف الادريسي بمدينة سبتة سنة (٤٩٤ هـ) (١١٠٠ م) وابتدا تعلمه ببلاد المغرب الاقصى ، ثم خرج سائراً فى الارض راكضاً وراء التعقّب فى العلم ؛ فام مدينة قرطبة كعبة القصاد ومنبع الهدى والنور فى القرون الوسطى ؛

(١) اكوار جمع كبور - الرجل العتاق من الجبل نجائب يعنى انه يوطن مروج الجبل التجارب
(٢) شجوى ، حزنى واحزانى مرادف (٣) دق ، مريض مرضاً مزمناً . (٤) عانى ، امير

وهناك اقبل على علم الجغرافيا والنجوم والطب ؛ فلما استكمل معلوماته خرج سائحا يكتشف البلاد ويطلع على الامصار ، فزار اسبانيا والبرتغال وايطاليا وسواحل فرنسا وبلاد الانكليز وبلاد اليونان وبلاد الشرق التركي والعربي والبرسي .

ادى به المطاف يومئذ الى جزيرة صقلية ؛ ايام ملكها الكبير رجار الثاني ، فاتصل به واكرم مشواه ، واختصه لنفسه ، وبذل له اقصى ما يبذله ملك حكيم عالم ، الرجل في مثل قيمة الادريسي ؛ فاستقر الشريف في صقلية ، واصبح درة لامعة في بلاط الملك النرمانى .

هناك اخذ الادريسي طوعا لاشارة الملك رجار ينجز مآثرته الكبيرة خريطة العالم ، كما كان معروفا يومئذ .

نقشها على دائرة من الفضة وزنها ١٨٠٠ اوقية ؛ وقسم الدنيا المعروفة اذذاك الى سبعة اقاليم متوازنة ؛ يبتدىء الاقليم عند خط الاستواء تقريبا وينتهى الاقليم السابع عند المنجمد الشمالى ، الذى يدعوه بحر الظلمات (١) . ولكى يبين ما نقشه في الخريطة الف كتابه الجليل الشان : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ؛ وقد قسمه الى سبعة ابواب ؛ حسب تقسيم الاقاليم ، وكل باب مقسم على عشرة اقسام يقول مسيو لوريش ، في دائرة المعارف الفرنسية الكبرى : « هو اكمل كتاب جغرافى تركه لنا العرب ، وان ما دققه الادريسي من تحديد المسافات ، وما حققه من دقائق الوصف ، يجعل من هذا الكتاب وثيقة نفيسة لعلم الجغرافيا في مستهل القرون الوسطى . » وقد اتم تأليفه سنة ٥٤٥ (١١٥٠) .

ويقول عنه حاجى خليفة في كشف الظنون « اورد اوصاف الممالك والبلاد مستوفيا وهى المسافات بالميل والفرسخ لكنه لم يذكر الاطوال والعروض » . وقد ترجمت قطع كبيرة من كتاب الادريسي ، لمختلف لغات العالم ؛ وكادت كل بلاد تترجم ما يتعلق بها من نزهة المشتاق ، اما بالفرنسية فقد ترجمه بزمته مسيو جوبير ، ونشره في جزأين ، سنة ١٦١٩ .

وله مع ذلك كتاب : الجامع لصفات اشتات النيات .
وتوفي الشريف الادريسي في صقلية ودفن ببالرمة بعد ان ادى للعالم
خدمة تذكراها الاجيال ، خلال سنة ٥٦٢ هـ : (١١٦٦) .

جمهرة من العلماء والكتاب والشعراء

عدد جسيم من اشتهر في صقلية بالعلم والادب ، وتبرز في الشعر ،
وركض في ميدان النفع والتأليف ، لا نستطيع ان نترجم لهم ترجمة وافية ،
لان ذلك ربما اخرجنا عن دائرة الايجاز التي حددناها لانفسنا في هذا البحث ؛
ولكننا لا نستطيع كذلك ان نقفل اسماءهم ، ونترك ذكرهم ، وهم ممن شادوا
صرح المدينة الاسلامية في صقلية ورفعوا عاليا ذكر هذا القطر الذي جعلوه
متنفس نور وهدي ، ومركز حضارة ومدنية ، فلنذكر اسماءهم في ايجاز
واختصار ؛ الى ان تسمح الظروف لي او لغيري بتأليف خاص عن تراجم وآثار
علماء وادباء صقلية الاعلام :

ابو الحسن احمد ابن الحسن الكلبي - من امراء الكلبيين من عائلة بني
الحسن كان اديبا قاضيا ، وكان ميالا للشعر له فيه باع وابداع ، يقول :
شئت البيض حين شنين شيبى وتاباني التي ملكت فؤادي
وهل يختار ذو عقل ولب بياض المقلتين على السواد
ابو القاسم عبد الله ابن سليمان الكلبي - من الامراء الكلبيين كذلك ، كان
مثل بقية امراء تلك العائلة الزكية ، من رجال العلم والفن والادب ، انما ادركته
حرفة الملوك ، فكان اكثر قوله في الغزل والنسيب والصهبا ، يقول :

كفى حزنا على البلوى مقامي اخص عداك دونك بالسلام
فجد بالنوم اذا منعوك عني لعلني ان ازورك في المنام
رجوت بمقلتيك شفاء قلبي وهل يشفى السقيم من السقام
وما ابقى الحمام على عطفها ولكن خفيت عن الحمام

(٩) اعادتها المجمع العلمي العراقي الى اصلها العربي سنة ١٩٥١ . ونشرها (٢) ميتر × ١٠
وصحح بها الشريفة التي نشرها ميلر ، بما جمعه من خرافات الادريسي .

واذا ما جاريت الادبيات في ابحاثهم ، قلت ان قوله هذا مأخوذ عن ابي
الطيب المتنبي .

كفى بجسمي نجولا انتي رجل لولا مخاطبتي اياك لم تبرني
ثم يقول من خيرية وقد ابدع :

ما ان سمعت ولا رايت يمثلها ناز على ايدي السقات تدار
وجلوتها غلس الظلام فراغني ان قام في غلس الظلام نهار
محمد بن عيسى بن عبد المنعم - من علماء علم الهندسة ، وله في علم
النجوم باع طويل وقد ذكر يهاذين النعميين ، خاصة بكتاب تاريخ الحكماء
المخطيبي .

علي بن حبيب ابو الحسن - يقال له اللغوي الصقلي ! كان من علماء اللغة
المعروفين واكابر البلغاء المبرزين ؛ وكان ممن يشار اليهم بالبنان ، في نقد
الشعر وتحليل معانيه .

عمر بن خلف بن مكي - من اكبر علماء عصره ، وافاضل المبرزين في
مصره ، جمع الى علم الدين علوم الادب ، فكان من المتقدمين في كليهما ؛ وقد
ادى به علمه الى تقدمه لمنصب قضاء حضرة تونس فوئيه ، وروى انه كان خطيبا
مفوها بليغا يخطب كل جمعة خطبة من انشائه تفوق خطب ابن نباته حسبا
يقول الشيباني في انباء الرواة ، وقد كان آخر قضاة المسلمين بصقلية
الاسلامية خرج منها مع آخر امرائها ابن الخواس عند الانجلاء النهائي وتغلب
البرمان .

ظاهر بن عمر بن الرقباني - من علماء صقلية الاعلام في اللغة والادب
وكلام العرب ؛ قال الشيباني انه لم يكن في زمانه اعلم منه بلغة العرب وكلامها
ونثرها ونظمها ، وكان بينا مقدما ، جليلا معظما ، قصده العلماء من كل جهة
الى صقلية فلقوا منه بحرا طاميا .

عمر بن علي بن عمر السرقوسي - من كبار علماء العربية بصقلية له
تأليف في القراءات والنحو والعروض ، وقد استوطن مصر ، وكانت له حلقة

للقراء ، يؤمها الطلاب .

محمد بن علي بن الحسن بن عبد البر - التميمي القرشي الصقلي ، نبغ في موطنه . ثم رحل لأتمام التفقه في الدين وملك الوطاب من علوم العربية والادب . وعاد الى الجزيرة بحرا من العلم والفضل والهدى ؛ واستقر في مدينة مازرة وصحب أميرها الذي قربه وأكرم مثواه وكان أمير مازرة يومئذ ابن مذكور ، على غاية من الزهد والورع والتقوى ، وكان محمد موجودا الى سنة ٤٠٠ (١٠٥٩ م) وقد انتفع به وتخرج عليه جمهور كبير من العلماء الجلة ، ومن أشهر تلاميذه ابن القطاع الأنف الذكر والترجمة .

يوسف ابن احمد ابو يعقوب الدباغ - من علماء العربية الاعلام بصقلية كان حافظا لكتب الاقدمين ، وله شعر جيد حسن .

ابو محمد اللمعة - كان معدودا من كبار الشعراء ؛ وكان من اكابر المعلمين ورؤسائهم بصقلية تخرج عليه جمهور كبير من الادباء .

سليمان بن محمد الصقلي - قال عنه صاحب مسالك الابصار ، صقل الفهم الجلي مرآته ، وضور في حياة الصباح المضي ، مشكاته ، ودأوى به سقم الادب حتى اذا لشكاته ، وكان من اهل الادب والشعر وحافظا لكلام العرب ؛ وتقدم بفضل اذبه عند الكبراء .

بعض مؤلفات الصقليين

ما ورد ذكره في كتاب كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون للعلامة المحقق المدقق مصطفى بن عبد الله حاجي خليفة التركي :

الاشتراك اللغوي والاستنباط المعنوي : للشيخ محمد بن عبد الله بن ظفر المتوفى سنة ٥٦٨ (سبقت ترجمته) .

اعراب القرآن - لابي طاهر اسماعيل بن خلف الصقلي المتوفى سنة ٤٥٥ ؛ في تسع مجلدات .

اعلام النبوة : للشيخ ابن ظفر الانف الذكر

الأفعال وتصاريحها : للشيخ أبي القاسم ابن القطاع المتوفى سنة ٥١٥ وقد ذكر ابن خلكان أن تأليفه أجود من أفعال ابن القوطية ،

انباء نجباء الأبناء : للشيخ ابن ظفر .

تاريخ صقلية لابن القطاع السائف الذكر .

الدرة الحظيرة ، والمختار من شعراء الجزيرة : لابن القطاع أيضا ؛ اورد فيه ذكر مائة وسبعين شاعرا ، من شعراء صقلية .

تثقيف اللسان : لابن القطاع ايضا

تجويد ، لبغة المزيدي ؛ كتاب في القراءات السبع ، للشيخ أبي القاسم عبد الرحمن ابن أبي بكر بن الفحام الصقلي ، المتوفى بالاسكندرية سنة ٥١٦

تفسير القرآن لابن ظفر

تهذيب المطالب ، لعبد الحق الصقلي ؛

المعلم ، للامام المازري الشهير ، المتوفى سنة ٥٣٦

سلوان المطاع ، في عدوان الاتباع ، لابن ظفر ،

الشافعي ، في علم القوافي ، لابن القطاع ؛

طبقات الشعراء ، لابن القطاع ؛

الملح العصرية ، له ايضا ؛

المختار في النظم والنثر ، لافاضل اهل العصر . تأليف ابن بشرون الصقلي ؛

كتاب المشي والسير ، لابن القطاع ؛

التنقيب ، على ما في المقامات من غريب ، لابن ظفر ؛

الروضة الانيقة ، ليحيى ابن عبد الرحمن بن عبد المنعم

ينبوع الحياة في التفسير ، لابن ظفر ؛

تاريخ صقلية - ١٦

عبد الجبار بن حمديس

هو رابع اربعة اعلام ذاع صيتهم فى كل الاصقاع والبقاع ؛ وتتردد ولا يزال اسمهم يتردد دوما واستمرارا ، كلما ذكر العلم والادب والشعر هم : المازرى وابن الطقاع ، وابن ظفر وابن ظفر وابن حمديس ؛ وان صقلية لو لم تنجب من ابنائها انكرام البررة الا حيوالا اربعة لكفاهها ذلك فخرا على مر الايام ، ولبقى بهم ذكرها حيا خالدا لا تقتدى عليه عواذى الزمان .

كان ابن حمديس علما من اعلام الشعر ؛ وفذا من افذاذ البيان - وكان روحا سامية ، ونفسا ابية ، وفيضا نورانيا يشع بنفسه كالراديوم ، كان يمثل اجلى تمثيل وطنه صقلية ؛ فى عبثه ترى عبثها ، وفى لهوه ترى لهوها ، وفى حماسه ترى حماسها ، وفى اوصافه ترى اوصافها ذات الالوان الزاهية الخلافة ، وفى تلديدته باهلها ترى وتسمع لسانها العاقل يندد بابنائها الذين اضاعوها ؛ وفى رثائه لها ، وبكائه عليها ، يخيل لك انك تسمعها تبكي وتنتحب ؛ تندب سلطانا ضائعا ، وملكا مفقودا .

بل ان شعر ابن حمديس فى مجموعته ، يعد ملحمة من ابداع ما اخرج الشعراء للناس من الملاحم .

ولد ابن حمديس فى مدينة سراقوسة من صقلية سنة ٤٤٦ (١٠٥٥ م) فى وقت كان حكم المسلمين فيه يسلم الروح ؛ وقد فتح عينيه النافذتين فرأى مصائب قومه وفتنهم وتغلب الافرنج عليهم ؛ وصورها لنا كما قلت ، فابعد تصويرها ، ثم نزع عنها اذ لم يستطع اليقاء تحت حكم النصارى ؛ فجاب بلاد المغرب والاندلس واتصل بملوكها وامراتها ؛ وصدح ابن علقاس فى بحاية ؛ ويحى ابن تميم ابن المعز بن باديس فى المهديّة والمعتد بن عباد ملك اشبيلية الشاعر وغيرهم وكان ابنما حل وحيشما ارتحل يترنم بذكر صقلية ويزفر حار الرفرات كانه يستحث المسلمين عامتهم وخاصتهم امرأهم وسوقتهم على الاخذ بيدها واستخلاصها من يد العدو الغاصب الى ان هجرهم ، وجاوز الثمانين واصبح يقول :

اسلمنى الدهر للرزايا وغير الحاديات نفسى
وكننت امشى وكننت اعيىا فصرت اعيىا وكننت امشى
كاننى اذ كبرت نسر يطعمه فرخه بعش

سأله بعض الادباء عن تشبيهه نفسه بالنسر ، فقال ليس فى الطيور من يطعمه ولده اذا هرم الا النسر .

واصبح يسير الهوينى متكئا على عصاه :

ولى عصا من طريق الدم احدها بها اقدم فى تاخيرها قدمى
كانها وهى فى كفى اهش بها على الدمايين عاملا لا على غنى
كاننى قوس رام وهى لى وتر ارمى عليها زمان الشيب وانهرم

ومات رحمه الله كتيب النفس ، مجروح الفؤاد ، سنة ١٢٧٧ هـ (١) . واني لذاكر لك ، فى خاتمة هذا الباب بل فى خاتمة هذا الكتاب ، شيئا من صلاح ابن خديس كانها تلخيص لجميع ما مر فى هذا السفر ، او استدراك لما لم يتوصل هذا القلم لبطه وتسجيله عن صقلية .

يقول فى قصيد رائع : يذكر شبابه وشباب صقلية

قضت فى انصبا النفس اوطارها وابلقها الشيب انذارها
وما غرس الدهر فى تربة غراسا ولم يحسن اثمارها
نعم واجبلت قداح الهوى عليها فقسمن اعشارها
فأفنت فى الحرب الاتها واعدت للتسلم اوزارها
كميتا لها مرج بالفتى اذا حث باللهو اوارها
مجالس الشرب واللهو :

تناولها الكوب من دنها فتحسبه كان مضارها
وساقية زررت كفها على عنق الضبي ازارها
تدير بياقوتة درة فتغبس فى مائها نارها

(٩) بجاية ، وهو الاصح - وقيل بجزيرة ميورقة .

وفتيان صدق كزهر النجد
ينديرون راحا تقيض الك
كان لها من نسيج الحجاب
راهبة دير : او مديرة مأخور :

وراهبة اغلقت ديرها
عدنا اليها شذى قهوة
كان نوافجه عندها
طرحت بميزانها درهمي
خطبتا بنات لها اربعا
من اللاء اعمار زهر النجوم
تريك عرائسها ايديا
خبير بنت الحان

تقرس في شمسها طيبها
فتى دارس الكاس حتى ذرا
بعد لما شئت من قهوة
مجلس الطرب :

وعدنا الى هالة اطلعت
نفى ملك الهم عنا الهموم
وقد سكنت حركات الاسى
فهذى تعانق عودا لها
وراقصة لقطت رجلها
وقصب من الشمع مصفرة
كان لها عمدا صنففت
تقل الدياجي على هامها
كانا تسلط آجالها

على قضب البان اقمارها
تشور فيقتل ثوارها
قيان تحرك اوتارها
وتلك تقبل مزمارها
حساب يد تقترت طارها
تريك من النار نوارها
وقد وزن العدل اقطارها
وتهتك بالنور استارها
عليها فتحقق اعمارها

الحنين لصقلية :

ذكرت صقلية والاسى يهيج فى النفس تذكاريها
ومنزلة المتصالي خلت وكان بنو الطرف عمارها
فان كنت اخرجت من جنة فانسى احداث اخبارها
ولولا ملححة ماء البكاء خلعت دموعي انهارها

التسوية والندم :

ضحكت ابن عشرين من صبوة بكيت ابن سنتين اوزارها
فلا تعظمن لديك الذنوب ب اذا كان ربك غفارها

ثم يبكى صقلية بكاء مرأ ، كأنه قد ضاقت به الأرض على سعتها بعدها ،
وكان ما لاقاه من عطف الملوك والامراء ، ورعاية اكابر القوم لا يعد شيئا
مذكورا امام « جنته المفقودة » فيقول :

فبت من الليل فى ظلمة فيها غرة اتصح هائى الضياء
ويا ريح اما مررت (١) الحيا ورويت منه الزبوع الظماء
فسوقى الى حمام (٢) الغيوم لاملأها لك بالدمع ماء
ويستقى بكائى ربيع الصبا فما زال فى المحل يستقى البكاء
ولا تعطينى طللا (٣) بالحمى تدانى على مزنة او ثناء (٤)
فلا تعجبى فمغائى الهوى يطيب طيب ثراها انهواء
ولى عندها مهجة صبية تزودت فى الجسم منها ذماء
ديار تمشت اليها الخطوب كما تمشى الذئاب الضراء (٥)
صبحت بها فى الغياض (٤) الاسود وزرت بها فى الكنائس الطباء (٥)
وزادك يا بحر لى جنة ليست النعيم بها لا الشقاء

(٢) حمام جمع حمام وهو الكثير من كل شيء - يريد هنا الكثير من الغيوم .
(٣) مريى الناقة منزعها - يريد الشاعر من الريح اما ان تحلب المطر الخ .

إذا أنا طالعت منها صباحا تعرضت من دونها لي مساء
 قلو اننى كنت اعطى المتى اذا منع البحر منها اللقاء
 ركبته الهلال به زورقا الى ان اعانق فيها ذكاء (٦)

* * *

ويذكر في ديار الغربية ، اسود العرين ، ابطال صقلية الذين لم يتركوا
 السيف حتى فارقه النفس الاخير : قال كانوا فيما بينهم ذئابا ، فقد كانوا
 تجاه الاعداء اسودا : فيقول من قصيد طويل :

ويا رب نبت تعتريه مراة وقد كان يسقى عذب ماء السحاب
 علمت بتجربى امورا جهلتها وقد تجهل الاشياء قبل التجارب
 ومن ظن امواه الزواجر عذبة قضي بخلاف انظن عند المشارب
 ركبته الهوى في رحل كل حبيسة (١)
 قلاص (٢) حناضن الهزال كأنها حنيات تبع (٣) في اكف جواذب
 اذا وردت فى زرقة الماء اعينا وقعن على ازجائها كالمواجب
 بصادق عزم فى اجماني يحيلني على اصل من همة النفس كاذب
 ولا سكن الامتاجاة فكرة كساني بيا مستحضر كل غائب
 فلما رأيت الناس يهرب شرهم تحنيتهم واخترت وحدة راحب
 احتى خيال كنت احظى بوصلته له فى انكرى عن مضجعى صد غائب
فخر :

فهل حال من شكنى عليه تغير نحافة جسمي وايضا ض ذوائبي
 اذا عند من غاب الشهور لغربة عدت لها الاحقاف (٤) فوق الحقائق
 ولي فى سماء الشرق مطلع كوكب جلا من طلوعى بين زهر الكواكب
 متى تستمع الجوزاء فى الجو منطقى تصح من معانى الارتجال القرائب

(١) الطل : الشاخص من آثار الدور : (٢) النناض : البعد : يعنى ترائى على مقربة من مؤنة
 او بعد منها : (٣) القراة : جمع ضرور ، والضارى من الوحوش الذى تموت اكل لحم الضيد وذمه
 واولع به : (٤) القياض : جمع غيبة ، الاجمة مجتمع الشجر فى منبض الماء (٥) الكناس
 بالكسر مستتر الظبي من الشجر : (٦) الذكاء : بالضم ، الشمس

اخوان الانس والصفاء :

وكم لي من صفو وود محافظ
لذي العيب من اعدائه غير عائب
أخي صبرة نادمته الراح والصبا
له من يد الايام غير سوالب
معتقة دغ ذكر احقاب عمرها
فقد ملئت منها انامل حاسب
إذا خاض منها الماء في مضر المشا
بدا الدر منها بين طاف وراسب
ليالي لم يذهبين الا لثالثا
نظمن عقودا للمستين الذواهب

مصيبة صقلية بين اعداء الخارج واعدا الداخل :

ولو ان ارضى حرة لاتبعتها
بعزم يعيد السير ضربة لازب
ولكن ارضى كيف لي بفكاكها
من الاسر في ايدي العلوج الغواصب
احين تغاني (١) اهلها طوع فتنة
يضرهم فيها ناره كل خاطب
ولم يرحم الارحام منهم اقارب
تروى سيوفنا من دماء الاقارب

وصف ابطال صقلية في الجهاد

وكان لهم حذب (٢) الاصابع لم يكن
رواجب (٣) منها حاجيات رواجب
اناس اذا بصرتهم في كزيهة
رضيت من الاسناد عن كل غاصب
اذا خالدوا في مازق الحرب جردوا
ضواعق من ايديهم في سحائب
لهم يوم طعن السمور اذ مبيحة
كنا الاسد في كراتهم للشعالب
تخب (٤) بهم قب يطيل صهيلها
بارض اعدائهم نباح النوادب
اذا ما اذارتها لذكر حسبتها
تدور على اتهامات فوق الكواكب
اذا سكتوا في غمرة الموت انطقوا
على البيض بيض المرحفات القواضب
تري شعل النيران في خلج (٥) الضبا
تذيق المنايا من اكف المواضب
اولئك قوم لا يخاف انحرافهم
عن الموت ان حامت اسود الكشائب
اذا ضل قوم عن سبيل الهوى اهدوا
واى ضلال للنجوم الشواقب ؟

(١) الحبسة ، من الجبل المحيطة في سبيل الله ، هذا هو الامل (٢) قلائص جمع قلائص وهذا
جميع قلوب ، وهي النافذة الطويلة القوائم (٣) نبع ، شجر للقس وللشهام (٤) الاخفاق ، جمع
حقف وهو الموج من الرمل ، كما تقدم ، والحقائب جمع حقب وهو مئة ثمانين سنة وقيل غير ذلك .

وكس قيههم من صادق الناس مفكر اذا كر في الاقدام لا في العواقب
غزواتهم في بلاد ايطاليا :

اذا ماغزوا في الروم كان دخولهم يطون الحايا (١) في متون السلاهب
يموتون موت العز في حومة الوغى اذا مات اهل الجين بين الكواعب
حشوا من عجاجات الجهاد وسائدا اعنت لهم في التدفن تحت المناكب
فعادوا اقول الشهب في حفر البلا وابقوا على اندنيا سواد الغياهب
التوجع والحنن :

امثلها في خاطري كل ساعة ومرت لها قطع اندموج السواكب
احن حنين البنات للموطن الذي معاني غوانيها اليه جواذبي
ومن سار عن ارض نوى قلبه بها تمنى له بالجسم اوبلة آيب
ثم استمع اليه يشدو بذكر وطنه وقومه فيرفع ذكر صقلية الى السماك
الاعزل ويسموا باهلها الى منزلة الابطال :

رجال الحرب الصقليون :

رعوا ورق البيض الذي زهره دم لهم ورق عن زهرة الروع تبسم
جبابرة في الروع تعدو جيادهم بهم فوقها رشح الوشيح (٢) المقوم
تنوء (٣) بهم في ذبل الخط انجم سحائبها تقع وامطارها دم
ترجل من آجارها (١) الاسد خيفة اذا نزلوا للرعى فيها وخينوا
تري كل جو من قناهم ونقمهم يكوكب ان ساروا اليه ويعظم
فضاح غداة الحرب عز سكوتهم واتسنة الاغماد عنهم تترجم
كان بايديههم اذا ضربوا الطلا (٢) عزائمهم لو انها تجسم

(١) تغاني اهلها : استغنى بعضهم عن بعض (٢) حذبه بالنيك - ضربه او قطع اللحم
دون العظم (٣) الرواجب - الفاصل اصول الاصابع : حائيات - حبة خطه واحكته وقتلته
يعنى انها - بعد قطع الاصابع - لم يكن في امكانها ان يحكم بعضها بعضا (٤) تعب : تسرع ،
قب اي خيل ضامرة البطون (٥) اشلج - بالقبح الفساد : والقيا يقال ضبته النار غيرته
وشوبه : والضابن الرماد ولعله يريد انك ترى شمل الثيران في رماد قاسمه من جثثهم وامتعهم
عليهم ر .

إذا ما استعوى فعل المنايا وفعلهم
 اعاريب ابقى في تباريح (٣) حيهم
 صحبهم في موحش الارض فقفر
 سقا الله عنا عذبة (٧) الدمع ان بك
 بارض يميمت لهم عنك سرورها
 وكرم لي بها من خل صدق مساعده
 يفيض على ايدي الكماد مساحه
 اذا فرت الابطال كسر وسقيمه
 يروح به بحر كان حبابه (١٠)
 ونحن بنو الثغر الذين ثغورهم
 ومن جلب الوداج (١) يغذى فطيننا
 لنا عجز الجيش اللغام (٢) وحذره
 يضاعف ان عد الفوارس عينا
 تؤخر للاقدام في كل ساعة
 فان كان للحرب العوان معول
 ونسج يوم الروع من نسج جردنا (٤)
 فمن كل صديده على اعوجية
 اسطول المسلمين الصقل :

وطائرة بالدمر ملء عنانها لها البسوق في شأو البروق مسلم

(١) بطون اهلها ، الخلايا جمع خلوة ، ما يمثل فيه التحل ؛ والسلافة من الخيل ، المسيرة ؛
 والسلافة المزينة ، ولم يوضح لنا ما يزيد الشاعر هنا ؛ ولعله يريد انهم اذا ما غزوا في
 الروم كان دخولهم اليهم دخول الزنابير في بطون الخيل فيلجرون (٣) الوشج الاشتباك والوشج
 في الاميل شجرة تصنع منها الرماح وتطلق على الرماح ذاتها ، (٣) كاه به الخيل يتوءم انقله
 واماله ، يبل الرماح الدقيقة ؛ اخطف موقا للسيفين بالبحرين حيث تباغ الرماح - يعني ثققل بهم
 في جبل الرماح الدقيقة شجرة الرماح الحديدية اللامعة كالنجوم ، يقع الفيل

رمينا عداة الدين فى عقور دارهم بعادينة فى غمرة الموت تقحم
 نعوم بها بين العلوج مظلة كما حلقت فتح على الجو حوم (٧)
 فمن حامل من غير فصل وفرخها لدى وضعها فى ساحل الزوم ضيلم (٨)
 ومنسوية للحرب منشاة لنا طوانير بالآساد فى الماء نعوم
 كان قسيما فى مؤاخرها التى يفوق منها فى المقادير اسهم
 وترسل نطقا يركب الماء محترقا كمثل (١) به تشوى الوجوه جهنم
 مدائن تغرور للعلوج مدائننا فتفتح قسرا بالسيوف وتغتم
 ومتخذى قمص الحديد ملايسنا اذا نكل (٢) الابطال فى الحرب اقدموا
 كانتهم خاضوا سرايا بقية ترقى للثريا فيه غينا عليهم
 صبرنا لهم صبر الكرام ولم ينغ لنا الشهد الا بعد ما ساع علقم (٣)
 فغادر افئواها بهم هير ضربنا بواحدتها من مرهفات يثلم
 وان بأيدينا الحديد نساطق اذا ما عدا فى غيرها وهو انكم

الرأية الحمراء :

واجتحة الرايات فىنا خوافق كان دم الابطال فيهن عديم (٤)
 امين ابرق بالذاز او مض بارق كطائش كف بالبيان يسلم
 نرى من عيون شاهرات مدامنا وكخلها بالنور والميل مظلم

(١) آجادهما جمع وجار ، عجز الاعداء ، معنى ترحل من اجبارها. (٢) الطلاء ، بالكسر الاعناق
 او امتولها (٣) تباريع الحب توجهه (٤) اعوج ، قرأ شهير لبس غلال وتنسب اليه الاعوجيات
 (٥) اوجف القرص ، جملة يعدو (٦) شدم : فعل للنعمان ومنه الشدقيات من الابل يعنى
 ان خيلهم المتاع وابلهم الفحلة ان جودتها لا تستحق تسييرها واسراعها بل تسيير وتعزو وحدها
 اعظم انه لقران الابطال وكرة على المدور يقتص به وحدة فيبقى لسيفه حكم الغل ولدم العدو لية
 (٧) عذبة الدمع ، مانعة وتاركته ، شخيتة (٨) منيم ، معبد مثل بالحب (٩) يعنى والله
 الحرم لا حق لاجد دونه (١٠) الحياض بالفتح ، ما يعلو الماء من التفافيع (١١) دلاص ، يقال
 درع دلاص أى ملئها لينة : سردما ، تسجها

الحنين لصقلية البائسة الاسيرة :

ويا عجباً من روضة زار طيفها جفونا من التهويم فيها توهم
 اثم يساقني عبرة حد قفيرة بمنسم حرق كلما بل يلطم
 واصدى اريجاً من شذاها ودونها بمقتحم الاهوال شهب وحضرم (٥)
 وللصبح نور فى الظلام كما اكتسى حميماً (٦) بطول الركض فى انصدر ادهم
 احسن الى ارضى التى فى ترابها مفاصل من اهلى بليين واعظم
 كما حن فى قيد الدجى بمضلة (٧) الى وطن عود من الشوق يوزم
 وقد صفرت (٨) كفاى من ريق الصبا ومنى ملاقى بذكر الصبا فم

* * *

الينس هذا الشاعر الفحل ، جذيرا بما قاله فيه ابن بسام : « هو شاعر
 ماهر يقرطس اغراض المعانى البديعة ، ويعبر عنها بالالفاظ النفيسة الرفيعة ،
 ويتصرف فى التشبيه المصيب ، ويغوص فى بحر الكلام على در المعنى الغريب »

رثاء صقلية

واخيرا بلغ بابن خديس الياس من انقاذ صقلية ، مبلغا جعله يعلن عن
 ذلك الياس اعلانا فيه حرقه الموجد ، وذفرة اللتاع فيقول ، ونحن نجعل من
 قوله هذا خاتمة هذا الباب ، ونهاية هذا الكتاب :

(١) الوداج عروق بالخلق - يعنى من دم عروق اغتاق الاعداء يندى قطينا حال نظامه وهو
 فى احضان الحرب (٢) اللهم بالقسم العظيم من الجيش (٣) يعنى اننا نؤخر لاجل الاقدام فى كل
 ساعة ما دام التقدم يقضى الى الخلف الخلق : (٤) الاجراء الفرس القصير الشعر رقيقه والسباق
 (٥) ملاء - جمع ملاة - الربطة وهى من الثوب ما يكون من نسج واحد غير ذى لففتين او كل
 ثوب لى رقيق : (٦) القشاعر جمع قشعم ، القشعم الاسد ، اى قشعم الموت : (٧) كان شاعرنا
 الملقب ، قد اطلع على القيد فوصف فى هذه الابيات الثلاثة الطائرات المدبرة الحديثة
 (٨) الصيغم ، الداهية ، والاين الشديد

اعاذل دعنى اطلق العبرة التى
 اود لارضى ان تعود لقومها
 وعزيت فيها النفس لما رايتها
 عهدت لها من اجمل الصبر خابسا
 فسيات ظنوني ثم اصبحت يائسا
 تكابد داء قاتل السم ناحسا

* * *

صقلية كان الزمان بلادها
 فكلم اعين بالخوف امست سواها
 ارى بلدى قد سامه الروم ذلة
 عدمت اسودا منهم عريية
 اما ملئت رعبا « قلووية » بهم
 وساقوا بايدي السبي بيضا حواسرا (١)
 افى « قصريانا » رقة يعمرونها
 ومن عجيب ان الشياطين صيرت
 واضحت لهم « سرقوسة » دار منعة
 مشوا فى بلاد اهلها تحت ارضها
 ولو شققت تلك القبور لخرجت
 ولكن رايت الغيل (٢) ان غاب ليثه
 وكانت على اهل الزمان محاربا
 وكانت بطيب الامن عنهم نواعسا
 وكان بقومى عزه متقاعسا (٣)
 ترى بين ايديها اعلوج فرائسا
 وادوا بطارقيا بها واشاوسا (٤)
 تخال عليهن الشعور يرانسا
 واسما من الاسلام اصبغ دارسا
 بروح النجوم المحرقات مجالسا
 يزورون بالدربين فيها التواوسا (٥)
 وما مارسوا منهم ايبا مبارسا
 انهم من الاجداث اسدا عوايسا
 فيجتر في ارجائه الذئب مانسا

(١) المهل بضم الميم ، القطران الرقيق وما ذاب من صفر او حديد ؛ (٢) اذا نكل تكلم وجبن ؛
 (٣) العلقم ، الحنظل ؛ (٤) العديم ، دم الاخوين ؛ (٥) حضرم القوس ، شد توترها (٦) حميما
 عرقا ومنه سمي الحمام لانه يفرق (٧) مضلة ارض يضل فيها ؛ - عود المسن من الابل والشاة ؛
 - يرزم ، رزم ، البعير يرزم لا يقدر ان يقوم من هزال .

(٨) صغرت ، خلت ؛ ريق الصبا ، لمعانه ؛ (٩) متقاعسا ، تائبا متيما ؛ (١٠) اشاوسا ، جمع
 اشوس ، الشديد الجرى ، فى القتال .

تم الكتاب
والحمد لله رب العالمين



(١) حواش ، مكتشفات (٢) التواويس ، جمع ناورس ، مقبرة النصاري (٣) الغيل ، الإيعة
موضع الإسد .

اهم المصادر الغربية

|||||

كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر	لابن خلدون
كامل التواريخ	لابن الاثير
اتحاف اهل الزمان	احمد بن ابى الضيف
مروج الذهب	للمسعودى
الامامة والسياسة	لابن قتيبة
نهاية الارب	للتويرى
الفارسية	لابن قنفذ
تقويم التواريخ	لحاجى خليفة
المؤنس	لابن ابى دينار
رحلة	ابن جبير
رحلة	التيجانى
معجم البلدان	لياقوت الحموى
وفيات الاعيان	لابن خلكان
مسالك الابصار	لشهاب الدين العمري
نزهة المشتاق فى اختراق الافاق	للمشرف الادريسي
الواقى فى الوفيات	للمصفى
نقح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب	للمقرى
كشف الفنون	لحاجى خليفة
طبقات اللغويين	للسيوطى
خريدة القصر	عبد الدين الاصفهاني
طبقات علماء افريقيا (نشر الدكتور ابن ابى شبيب)	محمد بن الحارث
الفتح القدسى	عبد الدين الاصفهاني
ديوان	ابن حمديس

محمد قريـد وجدي

دائرة معارف القرن العشرين

اعمال الاعلام ، فيمن ولي قبل الاحتلام من

لابن الخطيب

ملوك الاسلام

حسن حسنى عبدالوهاب

تعاليق وخواشني على اعمال الاعلام

• • •

بساط العقيق في حضارة القيروان

• • •

المنتخب المدرسي من الادب التونسي

الى غير ذلك من نصوص عربية جمعها العلامة المحقق الاستاذ ميكال عماري

في كتابه الجليل : المكتبة العربية الصقلية •

Biblioteca Arabo-Sicula

(Lipisa) 1857

اهم المصادر العربية

La grande Encyclopédie Française.

Le Épigrafi Arabiché de Sicilia - M. AMARI

Les Civilisations des Arabes - G. LEBON

Storia Dei Musulmani de Sicilia M. AMARI

Les Civilisations de l'Afrique du Nord - Vitor PIQUET

L'école Méditénale de Kairouan - D. A. BEN MILAD

La Domination Musulmane en Sirie - H.H. ABDELWAHAB

Le Moyen âge - Albert MALET

Histoire de l'Algérie - H GARROT

Histoire de la Tunisie - G LOTH

Les Siècles obscurs du Magreb - E. F. GAUTIER

La Berberie Orientale sous la dynastie des Benous l'Aghlab - Von Derheyden

Origine de la Renaissance en Italie - GEHART

Contribution des Arabes aux Progrès des Sciences Médicales - ABDALLAH
MANSOURI

Les Invasions Barbares - Ferdinand LOT

Histoire du Moyen Age - G. MARÇAIS

Histoire de l'Afrique du Nord - Ch. André JULIEN

Manuel d'Art Musulman - G. MARÇAIS

Essai sur l'Architecture des Arabes - Girauld DE PROGEY

الفهرست

الجرمان . اخراج المسلمين

مذايح صقلية

الحكم الاسباني

الجمهورية

بونايارت

عهد الظلمات

غاريبا لدى

الحكم الطلياني

﴿ القسم الثالث ﴾

امعات المدن والعالم والآثار

38

بالرمة

قصر الفوارة والعزب

القبة - القصر الملكي . الكاتدرائية

المتحف والضيواحي

مسينا

شيفالو . ترميني . مارزة

مرسي علي . طرابش . قلعة النساء

﴿ القسم الاول ﴾

وصف جزيرة صقلية

السواحل

الجبال

المياه . المناخ

الثروة الطبيعية

السكان

المجتمع

﴿ القسم الثاني ﴾

موجز تاريخ صقلية

19

الفنيقيون . الاغريق

تدخل قرطاجنة

روما وقرطاجنة

الحكم الروماني

الروم - المسلمون

الترمان

مملكة الصقليتين

تاريخ صقلية —

طبرمين . قطانية

سرقوسة . نوطن

(للقسم الرابع)

الحكم الاسلامي الاغلبى

نشأة الدولة الاغلبية

المحاولات الاولى للفتح

اسباب الفتح

العزم على الفتح

* اسدين الفرات

المعارك الاولى

* محمد بن ابى الجوارى

غلطة الروم

ابن فرغلوش الاندلسي

الوياء

* زهير بن عوف

فتح بالرمة

احتلال مسينا الاول

القاضى ابن ابى معمر

* ابو الاغلب ابراهيم

الحرب البحرية

وقائع قصر يانة

المسلمون في ايطاليا

فتح مسينا ولسى

* العباس بن الفضل

فتح قصر يانة

محاولة فتح رومة

محاولة فتح اقريطش

انهزام الروم فى البحر

* عبدالله بن العباس بن الفضل

* خفاجة بن سفيان

المراة فى السياسة

مقاومة سرقوسة

حادثة طبرمين

فتح مالطة

* محمد بن خفاجة

* احمد بن اعمر يحيى

* جعفر بن محمد بن بربر

* احمد بن ابى عبد الله الاغلبى

فتح سرقوسة

* الحسين بن رباح

نكبة بحرية

* الحسين بن العباس

عصر الولاة والارهاب	محمد بن الفضل
109 * الحسن بن ابي خنيزر	89 * سوادنة بن محمد بن خفاجة
110 * علي بن عمر البلوي	* عسودة الروم
110 احمد بن قهراب	91 * ابو مالك احمد حبشي
— * الخلافة العباسية	91 * ابو الغياض عبد الله بن الاغلب
— رجوع الفاطميين واندحارهم	الانتصار البحري
نذالة وسقوط	في قلورية
113 * ابو سعيد الضيف	فتنة عبياء
114 سالم بن راشد	95 * ابراهيم بن الاغلب
— الفتح في جنوب ايطاليا	— احتلال طبرمين
القاضي ميمون التزني	فتح رمطة
طريقة القضاء في اروبا	في ايطاليا
مبدأ ظهور النرمان	سيرة ابراهيم بن الاغلب المجنون —
استمرار الفتح بايطاليا	الدعوة الشيعية
— الثورة	انهيار الدولة الاغلبية
* خليل بن اسحاق الطاغية	المبيدون بالقبروان
الروم والنرمان	تأسيس المهدية
121 * عطاف الازدي	105 * محمد السرقوسي
(القسم السادس)	* علي بن ابي الفوارس
عصر الاستقلال الذاتي	(القسم الخامس)
123 * الحسن بن علي	الحكم الاسلامي الفاطمي

العدل اساس الملك	
فتح طبرمين	
مسجد ريو	
محاولة الروم في جنوب ايطاليا	—
معركة الهجاز الكبرى	
* احمد بن الحسن بن علي	128
الاجاز على الروم	—
الصلح	
ختان اطفال الجزيرة	—
* ابو القاسم علي	130
تدخل الترمان	—
رسالة البابا للامبراطور	
نتيجة التدخل الترماني	
الفاطميون بمصر	
استمرار الفتوح	
انتصار قلورية الاكبر	
* جابر بن ابي القاسم علي	137
* جعفر بن محمد	138
من اجل جارية يخرّب ملك	
* عبد الله بن محمد	140
* ابو الفتوح يوسف	—
قصيد ابن قاضي ميلة في مدحه	
صفحة سوداء في تاريخ الفاطميين	
* تاج الدولة جعفر	143
نورة علي	—
نورة الامة	—
خسارة جنوب ايطاليا	
الهجرة الى صقلية	
استطراد عن اعمال المسلمين	145
بجنوب ايطاليا	
* اسد الدولة احمد الاكمل	153
سياسة فرق تسد	—
تدخل المعز بن باديس	
نكبة هائلة	
* صمصام الدولة حسن	155
* القادر بالله بن الائمة	156
الحرب الاخوية والحيانة	
خراب دولة المعز علي يد بني هلال	
قصيد ابن رشيق عن خراب	
القيروان	
ملوك الطوائف بافريقيا	
تميم بن المعز	—

محاولة انقاذ صقلية	
ابن حديد يستنقذ الخوارج	161
الانحلاء النهائي عن صقلية	
آخر مقاومة	
سيرة النرمان الاولى	
(القسم السابع)	
صقلية الاسلامية تحت الحكم الترماني	
* وجار الثاني	165
ملوك النرمان بصقلية	167
التفوذ الاسلامي تحت امرة النرمان	168
بعد مائة عام - حكاية ابن جبير	
* الملك غليام	
النضرايات يزيم السلطات	
ابتداء امر الفتنة في الدين	
الزعيم ابن حمود	
حادث اليم	
* فريديريك الثاني ملك صقلية	177
اقرار المسلمين بجنوب ايطاليا	177
تأسيس المملكة	
البلاط - الافكار الدينيه	
في الحرب الصليبية	
اخراج آخر المسلمين من صقلية	
استشهاد مسلمي نصيرة	
(القسم الثامن)	184
(التمدن والعمران)	
النظام الاداري	
القضاء	—
الجباية والديوان	—
الحرية الدينية - التسامح	—
الزراعة	—
الصناعة. التجارة	—
الآثار	—
نزهة المشتاق	—
بالرمه	188
مسينا - طبرمين	189 - 190
قطانية - لنتني - سرقوسة	190 - 191
نوطس - مرغوس - بشيرة	191 - 192
جرجنتي - مازورة - مرسالا	193 - 194
طرابنة - برطينق - قرينتش	195
الحزان - الصنم قلعة النساء	—
قصر يانبا	—
حياة اللغة العربية	

انتشار العلم والادب

قسطنطين الافريقي

محمد بن علي المازري

محمد بن يونس التميمي

— محمد بن محمد بن ظفر

عبد الرحمن بن عمر

ابن ابي العباس

عيسى بن عبد المنعم

— عمر بن حسن النحوي

ابن القطاع

— ابو عبد الله محمد بن الحسن

— الاصلاح الاسلامي

ابو الفضل مشرف ابن راشد

عمار ابن منصور الكلبي

— الرشيد احمد بن غانم

مجبر بن محمد بن مجبر

— مصعب بن محمد

عمر بن رحيق

— محمد بن الحسن بن علي ابو بكر الربيعي

— محمد بن خراسان

— محمد بن ابي فرج بن فرج

الشريف بن محمد الادريسي

جمهرة من العلماء والكتاب والشعراء 213

— ابو الحسن احمد بن الحسن الكاكي

ابو القاسم عبد الله بن سليمان الكاكي

محمد بن عيسى بن عبد المنعم

— علي بن حبيب ابو الحسن

— عمر بن خلف بن مكي

— طاهر بن عمر بن الرقباني

— عمر بن علي بن عمر السرقوسي

محمد بن علي بن الحسن بن عبد البر

— يوسف بن احمد ابو يعقوب الدباغ

— ابو محمد الدمعة

— سليمان بن محمد الصقلي

215 بعض مؤلفات الصقليين

217 عبد الجبار بن حديس وشعره

فهرست ابجدی

ابن القاسم	أ
ابن القطاع	ابن ابی دینار (مؤرخ)
ابن قهر ب	ابن ابی الفضل
ابن کاس	ابن ابی عامر
ابن وکیل (اصغ)	ابن الاثیر
ابو الاغلب ابراهیم	165
ابو بکر المالکی	ابن الجزار (طبيب)
ابو جعفر النعمان	ابن جیر
ابو حنیفة (الامام)	ابن حدیس
ابو زکریا الحفصی	ابن حمود (زعیم)
ابو سعید الضیف	ابن حوقل
ابو الطیب المتنبی	ابن الخطیب
ابو عبد الله المؤدب	
ابو عبد الله الصنفانی	ابن خلدون
ابو عبد الرحمن الاسدی	ابن رشد
ابو الفتوح یوسف	ابن رشیق (الحسن)
ابو الفرج الاصفهانی	ابن زدغة (مفتی وقسیس)
ابو الفضل الدارمی	ابن فرغلوش
ابو فهر محمد بن عبد الله	ابن قادم

ابو القاسم بن عبيد الله

ابو القاسم علي

ابو محمد عبد الله

ابو محمد الدمعة

ابو محرز الكناشي

ابو يوسف

ابراهيم بن الاغلب الاول

ابراهيم بن الاغلب الثاني

اينان

ايوس كلوديوس

اتنا

اترينا كريسا

احمد الاكمل

احمد ابن ابي الضياف

احمد ابن ابي الحسين

احمد بن ابي عبد الله

احمد بن الحسن بن علي

احمد بن حنبل (الامام)

احمد بن طولون

احمد بن عبيد

احمد الجرجاني

احمد بن عمر يحيى

احمد بن عمر حبشي

احمد القديدي

احمد بن قزح

احمد المهدي النيفر

الاخشيدي

الاخوة الاسلامية

ادرياتيكا (بحر)

اداري (نظام)

ادلغيز (امير)

ادريس الاكبر

ادريوس (بطريق)

ارخميدس

ارغون (عائلة)

ارسلو (دوج)

الاربص

اردونيو (ملك)

اوستراطية

اروبا

الازهر الشريف

الاسباب	الاطلس
اسد بن الفرات	اعتصاب الجوع
الاسدية (كتاب)	الاغريق
استقراز ديني	اغسطس (امبراطور)
استقلال	الاغاني (كتاب)
	الاغليبية (دولة)
استعمار	
اسطول	اغاثة (مدينة)
	افريقيا
	افنديون (مدينة)
	الافضل (الملك)
اسيا	اقريطش
اسماعيل شاه	الاقطاع
اسماعيل الطبري	اكستريس
اسحاق بن عمران	اكروشي
اسحاق بن سليمان	الالمان
الاشراف (غزوة)	الكانو
الاشتراكية	الف فارمن (ممركة)
الاصلاح الاسلامي	املاك
اطباء	المنصور بالله (خليفة)

تاريخ صقلية —

باتنة (مدينة)
 بازيل (امبراطور)
 باقية (مدينة)
 بادو —
 باري (امارة)
 باريس
 باسيرو
 بالومة

بانورم
 يايزيد (سلطان)
 بشيرة (مدينة)
 بيماية
 البحر المتوسط
 بخاري
 بربر
 برتقال
 برغونيا

اموال الدولة

الاموية (دولة)
 امية بن ابي الصلت
 اميركان
 اندلس
 انكشارية
 الانسان الاول
 انكليز
 انهيار صقلية (اسباب)

انوسانت - بابا
 اوترنته (مدينة)
 اوستي —
 اوطلون (امبراطور)
 اوكتافوس —
 ايطاليا
 ايوب بن تميم
 ايوب بن المعز

بنو هلال	بنو نديزي (مدينة)
بوانية - معركة	بردويل (زعيم)
بومباي	برطينق
بوربون - ملوك	برلمان
بوردر - مدينة	البصرة
بوتابارت	بطرس وبواس (كنيسة)
بونيقيه - حرب	بغداد
بياتراروسا - قصر	بقر
البيت الحرام	بالاطة
بيان ليريف - ملك	بلزمة
بميز نطة	بلقان
بينغانت - اماره	بنو بويه
ت	بنو جبارة بن مكى
تاج الدولة	بنو حماد
التجارة	بنو الحسن
تداول الولاة	بنو حمدان
توكيا	بنو خراسان
الترك	بنو الرند
التسامع الديني	بنو سامان
تقويم النصور	بنو الطبري
التملن	بنو مدافع بن جامع

ترميني - مدينة

تف - سمك

تميم بن المعز

تونس

التونسية - البلاد

تبر - نهر

تيمور لوك

تيهرت - عاصمة

ث

ثرمة - مدينة

الثريا - مجلة

الثروة الفلاحية

تفة الدولة

الثقل النوعي

الثورة الكبرى

الثورة العالمية

ج

جابر بن أبي القاسم

جارية

جامعة سالرنو

— مونيلي

— نابولي

جباية

جيهار - مؤلف

جربة

جرجان

جرجنلي

الجرمانيون

الجريد

الجزائر - سقوطها

الجزائر - قطر

جزية

جص

جعفر بن احمد

جعفر بن فلاح

جعفر بن محمد

جعفر بن محمد بن بربار

جعفر بن يوسف

جلاص

جمهورية

جنسريق

جنوب إيطاليا

جنوة

جوهر الصقلي

جوزاف يونابارت

الجواري

جوير - مؤلف

جيليون

ح

حادث البنت المسجلة

الحاكم بامر الله

حاجي خليفة

الحبشة

حبيب بن أبي عبيدة

ح. ج. عبد الوهاب

الحجاج بن يوسف

الحديد

الحرية

حرية الدين

الحرير

الحسابات العامة

حسان بن النعمان

الحسن بن احمد بن نافذ

الحسن بن أبي خنزير

الحسن بن علي الكلبي

الحسن بن عمار

الحسن بن عمار بن علي

حسن بن محمد البغائي

حسن بن يزيد

الحسن بن يوسف

الحسين بن احمد

الحسن بن العباس

الحسين بن رباح

حلاوان - مدينة

حنايا

حنبل

حنون

حيطة الاريب

خ

خالد بن أبي حبيب

الخالصة

ختان اطفال الجزيرة

ديار بكر	الخراج
دى ساسو	خراسان
دى قالو	خرج الرعونة
دي-نس	خريطة الادريسي
دواوين	حزف
ديوان للظالم	الخطبة
ديوان	خفاجة بن سفيان
ديوانة	الخلافة .
ذ	١٨١
الذكي النحوي	الحدونية
الذهب	خلق القرآن (محنة)
ر	خليل بن اسحاق
راشلمديس	د
رجار الاول	دار صناعة تونس
رجار الثاني	دار مبرغ
٢٣٧ ٢٣٠	دانمارك - بلاد
رجيو	دعاة الهزيمة
رخام	دمشق
ردواف	دمياط
رسالة البابا	دنيابر - نهر
الرستمية (الدولة)	دومنيون

الرشيد احمد بن قاسم	الزكاة
رغوص	زلازل
رقادة	زلازال قطانيا
رمطة	زلازال مسينا
135 - 138	زنوج
رهبان	الزهراء
روبير الترماني	زهير بن عوف
روح بن حاتم	زي النصرانيات
روسيا	زيادة الله الاول
رولان الترماني	» الثاني
رومان	» الثالث
روم	الزيتون
	الزيتونة - جامع
	من
روما	سالمرة
ز	سالامين
الراب	سالسو
الزبير	سالم بن راشد
الزراعة	سامانية (دولة)
زغفرانة - قرية	سبنة
زقاق - مدينة	سبستكين (قائد)

سودان	سيرينة (مدينة)
سيكار	سبط
سين (نهر)	ستراتيج
ش	سجلعاسة
شارل الاصلم	سحنون
شارل دانجو	سردينيا
شارل العاشر	سردين
شارل مارتيل	سرقوسة
الشام	
شامبيوني (زعيم)	سر من راي (مدينة)
شان سي (الصين)	سعيد بن عثمان
الشتاء	السكان
شرلمان	السلط (الفصل بين)
الشراف الادريسي	سلديس
شريك	سليمان بن محمد
الشعراء	سمرقند
الشهير	سمك
شلندي	سواب
شمال افريقيا	سواده بن محمد
163 - 134	سوسة
شينفالو (مدينة)	

الشيعة الاسماعيلية

ص

الصافي (قائد)

صاحب المظالم

صباغنة

صدر بعل

الصعيد المصري

صفاقس

صفالبة

صلاح الدين الايوبي

صليبية (حرب)

صمصام الدولة

الصناعة

الصنم

صماجة

الصيف

صيقول (شعب)

الصين (الانراك في)

تاريخ صقلية —

ض

ضرائب

ط

طارق بن زياد

طارنطة

طانكرت (ملك)

طاهر الزقباي

طبرستان

طبرمين

طرابلس الغرب

طرابنة

الطقس

طرمولي

طرميس

طغيات

طلبيان

طنجة

الطور

ع

العاظم لدين الله

العباس بن الفضل

العباسيون

عبد الرحمان (الثالث)

عبد الرحمان الداخل

عبد الرحمان بن زياد

عبد الرحمان بن العباس

عبد الرحمان بن محمد

عبد الرحمان بن القاسم

عبد الرحمان الغافقي

عبد الرحمان بن رستم

عبد الله الاعلى

عبد الله بن ابراهيم بن الاغلب

عبد الله بن ابي سرح

عبد الله بن احمد

عبد الله بن الحسن

عبد الله الحضرمي

عبد الله بن حبيب

عبد الله بن سليمان

عبد الله بن العباس

عبد الله بن محمد

عبد الله بن المعز

عبد الله بن منكوث

عبد الله بن موسى

عبد الحق بن خراسان

عبد المسيح

عبد المؤمن بن علي

العبيد

عبيد الله المهدي

عبيد الله بن الحبش

عدوة (معركة)

عثمان بن عفان

عثمانية (دولة)

العرب

166 - 109

العربية (اضمحلالها)

عراق

العزير بالله

عطارين

عطاف الازدي

عناية	عقبة بن نافع
عنب	عقمة
عياض (القاضي)	العلم
عيسى بن عبد المنعم	علي بن أبي طالب
غ	علي بن أبي الفوارس
الغابات	علي بن حبيب
غارات الحمير (كتاب)	علي بن زياد
غاندي	علي بن العباس
غاريبا الذي	علي الرضا بن موسى
غرادات	علي بن يوسف
غريغوريوس (بابا)	عمار بن علي
غليام القامح	عمار بن منصور السكبي
غليام الاول	عماري ميكال
الثاني	عمال الفلاحة
الثالث	عمال المناجم
غوسطاف لوبون (مؤلف)	عملكرض
ف	عمر بن أبي محرز
	عمر بن حسن النحوي
فارص	عمر بن خلف المكي
فاطمة البتول	عمر بن رحيق
فاطمية (دولة)	عمر بن علي السرفوسي

فكتور عمانويل الاول	فاشيست
الفلاحة	فاليز (مدينة)
فلسطين	الفتح بن خاقان
الفنيقيون	فتيان غليام
الفوارة	الفتنة في الدين
ق	فرجيوة
قابس	فردينا
قابو (مدينة)	«الثاني»
القادر بالله بن الشحنة	فردينان لوط (مؤلف)
القار	الفرس
قاطون	فرنسا
القاموق (مدينة)	الفرانسيون
القاهرة	فرنسوا الاول
القبة (قصر)	فريدريك الثاني
قبر مسيحي	القسطاط
القدس الشريف	فسقية الاغالية
القديس يوحنا (كنيسة)	فضة
القرامطة	الفضل بن جعفر
قرصان الاندلس	« بن يعقوب
بيزنطة —	فكتور بيكي (مؤلف)
المسلمين —	

القطن	قرصان الترمات
القضاء	قرطاجنة
قضاء القرون الوسطى	قرطبة
قلاع حصينة	قرقنة
قلعة السبت	قرقشنة
قلعة الملك (انتصار)	القرون الوسطى
قلعة النساء	القرية الصقلية
قلعة نصر	قسطنطين الاقريقي
قلورية	قسطنطينية
القماش	قشالة
القمح	قصب السكر
القنطرة	قصر سعد
قنوات الري	قصر العمارة
القوط	القصر الملكي ببارمة
قونية	قصر المولى
القيروان	قصريانا
ك	قطانية
كائدرانية بالرمة	القطاني
كافور الاخشيدي	

كنعان	كافور (سياسي)
كورا دين (راهب)	كاربوناري (جمعية)
كوزو (مدينة)	كارليانو (معركة)
كوفي (خط)	كارولين (امبراطورة)
ل	الكاهنة
اللباس	الكبريت
لسي (مدينة)	الكتاتيب القرآنية
لنقيني (مدينة)	الكتان
لندن	كستامة
لصيرة (مدينة)	123 - 153
لوثير (امبراطور)	الكتيبة الخامسة
لوردات	كرسكا
لويس (امبراطور)	كستته
— (ملك إيطاليا)	كنديلا ماري
— فليب (ملك فرنسا)	كسيلة (زعيم بري)
— القديس	كسين (دير جبل)
ليريتو	كفر فريدريك الثاني
ليمون	كلنس
ليون التاسع (بابا)	كليمان الرابع (بابا)
م	كنائس
مازرة	كستنس (ملكة)

محمد بن الاغلب	ماعر
محمد بن الحارث الحشني	ماغنون
محمد بن الحسن	مافيا (جمعية سرية)
محمد بن الحسن الربيعي	ماكسويني
محمد بن خراسان	مالك بن انس
محمد بن خفاجة	مالطاة
محمد بن عبد البر	مالي
محمد بن عبد الله	الأمون (خليفة)
محمد بن علي المازري	مانويل
محمد بن عيسى	متحف بالرمة
محمد بن القاسم النخعي	— قطانية
محمد بن الفضل	— سرقةوسة
محمد بن محمد بن ظفر	ملوس
محمد بن منصور السمعاني	المتوكل على الله (خليفة)
محمد بن يونس التميمي	المجانيق
محمد الثاني العثماني	المجاز (انتصار)
محمد علي باشا	مجير بن محمد
محمد السرقةوسة	مجنور (بطريق)
المحمدية	محمد (صلم)
محمود الثاني العثماني	محمد بن الاشعث
المدن	محمد بن أبي الجوارى

مصعب بن محمد	المدينة المنورة
مصمر (امير)	المرأة
معاوية بن خديج	المرأة في السياسة
معبر صقلية	الرجان
المعتمد بن عباد	موسى علي (مرصالا)
المعتصم بالله (خليفة)	مزوان (مكتبة قصر)
معروف الرصافي	مزوان بن محمد
المعز بن باديس	مسائل صقلية (كتاب)
المعز لدين الله	مساجد
المعزية (جزيرة)	
معطية	مستعمرة
مفرم	المستنصر بالله الحفصي
مفتي	مسرح سرقوسة
مفرج بن سليمان (امير)	مسيحية
مقبرة مسينا	مسينا
المقتدر بالله (خليفة)	
مقدونيا	مشرف بن راشد
مكتبة بالرمة	مصاب القيروان (فضيد)
المكشفي بالله (خليفة)	مصارف
مكوس	مصر
الملك الكامل	

نارنج	مليلي (مدينة)
الناصر	مملكة الصقليتين
نخيل	الناخ
نذالة	منصور بن نصر (زعيم)
نربونة	المواريث
نرمان	الوحدون
	مور كولي - راهب
168 - 164	موسى بن نصير
نرمنديا	الموصل
نرويج	المهدية
نصر بن الصمصامة	منيليك - نجاشي -
نصيرة (مدينة)	ميناء - مدينة -
نقش جديدة	ميمون القاضي
نقود (مجموعة)	» السيف
نلسون (امير بحر)	ميمونة - الاميرة
نمسا (دولة)	» الهدلي
نهضة اروبا	ن
نوارين	نابولي
نوطس (نوتو)	
191	
نويل دي فرجي (مؤلف)	نابوليون الثالث

الوهابية

ى

اليابسة (جزيرة)

ياقوت الخوى

يحي الطراز

يعقوب بن اسحاق (امير بحر)

يمامة

يهود

يوحنا بروتشينا

يونان

يوسف بن ابي حبيب

يوسف بن عبد الله (ابو الفتوح) 138

142

يوسف بولافين

يوسف الدياغ

يوغو سلافيا

هارون الرشيد

هاسينق

هجرة

هشام بن عبد الملك

هملقون

الهند

هو هانستوفن

هيارون (الملك)

و

وادي الامير

واري (اوريا)

الوباء

الولايات

الوليد بن عبد الملك

الوندال

انتهى

طبع بمطبعة ام ق بئر كوز

رقم النشر: 160/69

